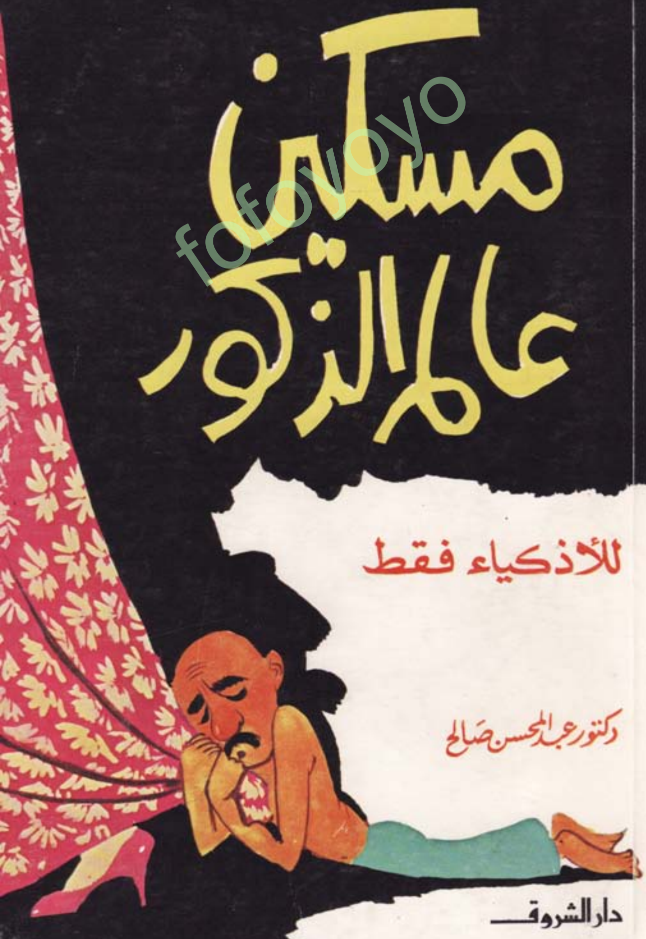
مسكين عالم الذكور

للأذكياء فقط



دكتور عبد المحسن صالح

دار الشروق

مسكين عالم الذكور .. !!

دكتور عبد المحسن صالح

مساكين عالم الذكور

للأذكياء فقط

دار الشروق

الطبعة الثالثة

١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

الطبعة الرابعة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني هاتف: ٥١٢١٤ برقيا: شروق القاهرة
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ برقيا: داشروق.

الغلاف بريشة الفنان مصطفى حسين

مقدمة

نكد أو دكر !

المخلوق الـذكر ـ بالنسبـة للحياة ـ « كالفقـر الدكـر .. كاللبان الـدكر .. كالحظ الـدكر » .. ومن السخريـة والغرابـة حقـا أن تكون كل هذه التشبيهات « النكد » التى تجرى على السنة البشر ، قـد اصبح القاسـم المشترك الاعظم بينها « دكر » ، ولـم تلصق بالانثى واحدة من هذه الصفات السيئة التى الصقت لصقـا بالذكـر .

فمن وجهة نظرنا نحن ـ النابعة أصلا من وجهة نظر الحياة ـ نستطيع أن نهتف ونقول : محظوظ عالـم الانـاث ومسكين عالـم الذكور .. ثمين عالم الاناث ، ورخيص عالم الذكور !

لكن قبل أن نسترسل فى هذه المقدمة « النكد او الدكر » وقبل أن نندب حظنـا نحن معشر الذكـور ، وقبـل ان تمـوع نفـوس القراء ـ ذكورا ام اناثـا ـ وقبل أن يضربوا أخماسا فى أسداس ، ثـم قد ينحاز الذكر الى بنى جلدته ، والانثى الى بنات جنسهـا ، فتعقب احداهن على هذه المقدمة بقولهـا : « ياعينى علينـا وعلى بختنا .. قطيعة تقطعهم وتقطع أيامهم السودة » .. وقد تستطرد أخرى لتكمل حكم زميلتها التى ربما تجهش بالبكـاء ـ فتقول : « ان الرجـال هـم الاقويـاء المتجبـرون ، ونحن الضعيفـات المكسورات الخاطر .. ربنـا يكسر خاطرهـم » ثـم قـد تقلـد

صاحبتها ، وتنهمر من عينيها عدة دموع على الوجنات ، ربما لأن حظ هذه أو تلك فى الحياة مع من احبت أو تزوجت كان نكدا ، الا انه يجب علينا ان نشير الى أن هذا الكتاب سيتناول العموميات ، ولا شان له بالحالات الفردية . ذلك ان الموضوع الذى سنناقشه هنا موضوع علمى .. والعلم دائما دراسات هادفة ، كما انه لا يستمد استنتاجاته الا عن طريق تجميع اكبر عدد ممكن من الظواهر والحقائق الطبيعية ، ثم يجرى عليها دراسات احصائية تحليلية ، ليخرج من ذلك بنتيجة واضحة ، نرتكز عليها فى حكمنا وتقديرنا للامور ، وبدون تحيز .. فالعلم لا يقبل المداهنة او الافتراء أو الخداع .

فاذا تناولنا هذا الموضوع من وجهة نظرنا ، وقصرناه على انفسنا ـ رجالا كنا أم اناثا ـ فلا شك أننا نتحيز لنوعنا الانسانى دون اعتبار للخلائق الأخرى التى تشاركنا الحياة على ذلك الكوكب .. ففيها أيضا الذكر والانثى ، ولهذا كان لابد أن ندخلها معنا فى الحلقة ، فلسنا عنها بمفصولين ، بل سيتضح لنا فيما بعد ـ ان الكثير من عاداتنا وتقاليدنا متوارثة عن تلك الكائنات التى سبقتنا فى الظهور على الارض بعشرات ومئات اللايين من السنين .

اذن ، فلتكن نظرتنا لهذا الموضوع نظرة شاملة جامعة ، فمن الخطأ ان يقيمه أحد على هواه ، أو يتخذه مقياسا للحياة الفردية ، بل عليه أن يرقب المسرحية العريضة التى تقدمها الحياة على خشبة مسرح هذا الكوكب ، وعندما تنتهى فصول التمثيلية ـ التى يلعب فيها الذكر والانثى الدور الرئيسى ـ فعليه أن يحكم الحكم الصحيح ، وسيتضح له ان الحياة تتحيز لاناثها ، وتضحى بذكورها ، أو كأنما هى تتعامل معنا على مبدأ « الخيار والفقوس » .. فالخيار يعنى الاناث ، أما الذكور عندها فبمثابة « الفقوس » ، أو البضاعة الرخيصة !

كأنما طعمنا نحن معشر الذكور فى « فم » الحياة قد اصبح مثل طعم اللبان « الدكر » فى افواهنا ، فهو ـ أى اللبان الذكر ـ لا يعمر بين أضراسنا طويلا ، لانه هش ، وبه مرارة ، وما أسرع أن نبصقه او نحرقه فى خلطة البخور لنستمتع برائحته التى لا يظهرها الا « الحرق بالنار » .. هذا بعكس اللبان « النتاية » ، فله بين الأسنان طراوة ، وفى المضغ حلاوة .. ومن اجل هذا كان فى الاسواق اغلى سعرا ، وفى الافواه اطول عمرا !

كذلك يكون المخلوق الذكر فى سوق الحياة .. انه ارخص من الانثى ثمنا ، واقصر عمرا .. فالانثى مرغوبة ، أما الذكر فى حياتها فليس الا بمثابة عابر سبيل ، يضع البذرة، ويترك لها الباقى ، ولهذا فان الانثى بالنسبة للحياة اثمن واهم بيولوجيا من الذكر !

وقد تثير هذه الحقيقة بعض الاصدقاء من عالم الذكور ، فتراهم يفتلون شواربهم (ان كانت موجودة) ، ويمسكون بذقونهم، وينفخون أوداجهم ، ويبرزون عضلاتهم ، وبصوت جهورى أجش فيه نبرة رجولة فياضة قد يقولون : كيف ذلك يكون ، وقد جعلنا الله قوامين على النساء ؟ .. ثم قد يستطردون ويقولون : ان الرجل من قديم الزمن هو سيد هذا الكوكب ، وهو الذى صنع الحضارة ، ووضع القوانين ، وطور العلوم ، واقام الدنيا واقعدها .. وبالاختصار فهو ـ لا شك ـ أهم من الانثى واحسن !

صحيح ! .. صحيح ان الرجل صانع الحضارة ، لكن المرأة صانعة الاجيال ، وشتان ما بين هذا وذاك ، فالرجل قد يبيد حضارته نتيجة لتهوره ، فى حين أن المرأة لا تبيد ما تحمل

وتضع وتصنع ، ثـم اننا فى تقديمنـا لهذا الموضوع لـم نتعرض للذكر والانثى من وجهة نظر العلم والحضارة والسيادة ، ولكننـا نتعرض لها من وجهـة نظر الحياة .. فاستمرار الحيـاة أهـم بيولوجيـا من استمرار اى شىء آخر ، ولهذا كـانت الانثى اغلى ، لانهـا هى الحاضنة الحقيقية للاجيـال .. وفيهـا وفى الاجيـال صفـة الاستمـرار .

لكن .. لماذا تسرعنا فى حكمنا قبل أن نقدم فصـول هـذا الكتـاب ؟

لسنا ندرى .. فالكلام « يجر بعضه » كما يقولون ، والذى جرنـا الى كتابة هذا الكتاب حوادث عـدة تمر بنـا فى كـل آن وحين .. فلقد مررت ذات يوم على رجـل ، وهـو يمسك بيـده فأسـا ، وبه يهوى على جذع نخلة فى ضربات قاسية متلاحقة .. لـم يكن فى النخلـة عاهـة ولا شذوذ ، بل تبدو فى منتهى الصحة والعافية ، وبدافع الفضول تقدمت وقلت : على رسلك يا صاح .. لماذا تجز نخلتك هكذا جزا ، وكانما هى قـد جاءت شيئا نكرا ؟ .. عندئذ مسح عرقه ، ونحى فأسه ، ونظر الى بألم وحسرة وقال : فقرى دكر .. حظى دكر .. النخلـة دكر ، وليس لدكـر النخـل من فائدة تذكر ، ونحن اولى بجذعه واليافـه وجريـده ، ولابـد ان اقطعـه من جذوره ، لازرع مكانـه نخلة اخـرى .. وياليتـه جـاء انثى ، عندئذ كنت اصونهـا وارعاهـا ، لانهـا ستمـدنى بمـا أهـوى !

قلت وانـا اجتر مرارتى وحزنى : لكن لولا الذكور مـا كانت الانـاث ، فهذه مكملـة لتلك .. قـال أعلـم ذلك ، لكن ذكـرا واحـدا يكفى لعدد كبير من الاناث ، ولابد ان نتخلص من الـذكور الزائدة لنفسح مكانا لمزيد من الاناث .. ففيها خير كثـير .. دعنى ونقـرى الدكـر !

وتركته وانطلقت الى حال سبيلى وانا اتمتم بمرارة : مسكين عـالم الذكور .. رخيص عالم الذكور !

وتكرر المشهد امامنا مرة أخرى فى عالم الحيوان ، كمـا تكرر قبل ذلك فى عالم النبات ، ففى حظيرة الدجـاج حلت المأسـاة بديك شاب كان يتبختر ويتباهى مع رفيقين آخرين بين عدد كبـير من الاناث ، وجىء بالسكين ، ووقع الاختيار على المسكين ، وبعـد لحظات كان الديك مضرجا فى دمائـه ، وأخـذ يرفرف ويرتعش الى ان همد جسده ، وأسلم الروح الى بارئهـا ، وسألت وقتهـا بغيظ : لمـاذا الديك بالذات والفراخ كثيرة ؟ !

وجاء الجواب كصفعة لعالمى الذى أنتمى اليه ــ عالم الذكور عمومـا ، والرجال خصوصا ــ وقيل لى : ديك واحد يكفى لكـل الفراخ .. فالدجاجـة احسن من الديك ، وحتى لحمهـا أطعم من لحـم الديك (تماما كاللبان الذكر واللبـان النتايـة) . ثـم أن الدجاجـة هى واضعة البيض ، والبيضة بخمسة وثلاثين مليما .. وهى التى تحضنه ليفقس ويعطى كتاكيت ، والكتكوت يسـاوى خمسين مليما .. وهـذا يعنى ان الدجاجـة من ورائهـا الخير والنعمة ، امـا الـديك فعليـه اللعنـة ، ونحن أولى بلحمـه .. ولبحيا الدجاج ، ولتذبح الديوك !

وانطلق فى داخلى هاتف حزين : بائس حقا عالم الذكور !

ثم يجىء الانسان فى النهاية ، ويضع القوانين الوضعيـة على نفس المنوال الذى سارت به القوانين الطبيعية .. ولقد كان القانون الوضعى فى صالح الانثى ، وضد الذكر على خط مستقيم ، فباسم القانون الوضعى « ممنوع ذبح الانـاث ، ولتـذبح الـذكور » ..

والقانون بطبيعة الحال وضع للمواشى ، ولم يوضع للبشر (١) . . يعنى فليذبح العجل او الثور وتبقى البقرة .. نذبح الارنب ، ونحافظ على الارنبة .. نضحى بالكبش ، وتحيا النعجة ، والغريب ايضا ان الله ارسل كبشا ليفدى به اسماعيل ولم يرسل نعجة ! (٢) وكأنما فى التضحية بالذكر حكمة ، وتبقى الانثى معززة مكرمة !

لكن هناك قانونا طبيعيا يتمشى تماما مع قانوننا الوضعى .. فباسم القانون الطبيعى « على الذكور أن تتصارع فيما بينها ، ولتقتل ـ ان امكن ـ بعضها بعضا فى حضرة الانثى ـ فمن تغلب ملكها ، ومن استسلم وجبن وضعف فالى الجحيم » !

قانون قاس ذلك الذى يضحى بالذكور ، ويعرضها لما لا تحب وترضى .. ولتبق الاناث فى مرتبة اعلى ، ودرجة أغلى ، وهكذا شاءت الحكمة الالهية من قديم الزمن .. لكن رغم ان فى ظاهر هذا القانون قسوة ، الا ان فى باطنه حكمة ، وحكمته ان يتقدم للانثى اقوى الذكور واشدها ، وهكذا تختار الحياة لاناثها افضل ما انتجت ، اما الباقى فعليه اللعنة .. وسوف نتعرض فيما بعد لصور غريبة من هذا الصراع ، ليتبين لنا ان عالم الذكور

(١) بعد أن انتهينا من كتابة هذه المقدمة ، سمعنا وقرأنا عن احتمال إصدار عدة قوانين جديدة تحدد علاقة الرجل بالمرأة ، والمرأة بالرجل ، وفيها – كما يقولون – مزيد من القيود والاغلال لنا معشر الذكور ، صحيح أننى لا أهتم بمثل هذه القيود ، لأننى لم أدخل إليها أصلا ، إلا أننى أرثى لحال بنى جنسى حينما أسمع أن الذكر العاصى سوف يذبح ذبحاً ، أو أنه سيمشى « على العجين مايلخبطوش » .. ولهذا فلا بد أن يؤدبوه ويحسنوا تأديبه ، فن مفاخر الزواج أنه تأديب وتهذيب وإصلاح .. ولا بد أن يسير الذكر فى هذا الطريق القويم إلى أن يسلم الروح إلى بارئها ! .

(٢) كما سمعنا ذلك من أحد خطباء المساجد .. بارك الله لنا فى علمهم ، ونفعنا به ! .

« بريالة » .. أى أن لعابها يسيل على الانثى ، وقد تهون الحياة فى سبيلها .

لكن يبدو اننا نحن معشر ذكور البشر لسنا معزولين عما يجرى فى الطبيعة الحية من حولنا .. فصراع الذكور ـ أو الرجال ـ فى هذا العالم اشد وطأة ، واعظم قسوة من صراع الاناث . كما ان تعرض الرجال من قديم الزمن لشدائد الحياة واخطارها اكبر مما تتعرض له النساء .. فعلى الرجل دائما ان يحمى الانثى ، فاذا لم يفعل كان فى عرفنا غير جدير بما وهبته الحياة من صفات ليكون كفؤا لمجابهة كل الاحتمالات ، وفى مقدمتها حماية الدار من الاخطار .. كما ان الحروب لا يثيرها الا الرجال ، والجيوش المقاتلة كان حطبها ووقودها شبابا ورجالا .. ويبدو أن نعرة الرجولة هى التى تدفعنا دفعا لكى نتطاحن ونتقاتل ويبيد بعضنا بعضا ، ربما لسبب أو لغير سبب ، او قد تكون من وراء ذلك انثى .. المهم ان الرجال تروح ، وتبقى النساء ، وعندئذ قد تختل النسبة بين عدد الاناث والذكور ، وقد يؤدى ذلك الى نوع من الانهيار الاخلاقى .. لكن الشريعة قد سمحت فى هذه الحالة للرجل المقتدر ان يتزوج من النساء مثنى وثلاث ورباع ، وفى هذا حكمة باطنة .. هى المحافظة على النساء وكرامة النساء حتى لا يتعرضن لما لا يحمد عقباه ، وفى ذلك تكريم لهن على اية حال ، « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » !

لكن المآسى الحقيقية التى قد تحل بالذكور من جراء الانثى ، والتى سنتعرض لها فى هذا الكتاب ، سنراها اكثر فى عالم الحيوان ، ومن الحقائق التى سنسوقها سيظهر لنا أن الذى « اخترع » هذه التعبيرات الطريفة ـ اى الفقر الذكر واللبان الذكر .. الخ ، ونطق بها لاول مرة فى التاريخ كان على حق ، وربما كان حكيما من الحكماء أو عالما من العلماء ، او ربما كان مجنونا ، فأحيانا ما تأتى الحكمة من افواه المجانين ، وربما يكون جنونه قد أثمر واينع على يدى انثى ـ وما دمنا قد تعرضنا للجنون ، فلابد أن نشير

هنا الى أن نسبة المجانين بين الذكور اكثر منها بين الاناث — فأعصاب الذكر — رغم قوته الجسدية — قد تنهار وتتحطم امام اعصاب الانثى القوية — رغم ضعفها الجسدى الظاهرى .. فمن ضعفها تبزغ القوة ، وبدموعها الحقيقية والصناعية — التى تنهمر احيانا كالمطر الطبيعى والصناعى — قد تحول قوتنا الى ضعف ، وشموخنا الى خنوع ، فنستجيب للانثى بما تحب وتهوى .. فهى تعرف تماما كيف تستخدم الدمعة المناسبة ، وفى الوقت المناسب ، للموقف المناسب .. وهذا ذكاء لا نقدر عليه نحن معشر ذكور البشر — كما ان دموع الانثى قد يحل بها السلام ، وقد يأتى منها الخراب ، ورحم الله ابانا آدم وقصته مع امنا حواء — فلقد أخرجته من الجنة بمطلب ودمعة ، وفى قول آخر ضحكت عليه بدمعتين — ويقال انهما دمعتان صناعيتان .. لكن ليس ذلك هاما بقدر ما يهمنا ان نعرف انه ضعف امامها ، فلم يستمع لكلمات ربه ، وسمع كلامها ، واطاع رغبتها ، وخرج وخرجت وخرجنا والسلام. ولازالت الدموع متوارثة فى بنات امنا الاولى حواء حتى يومنا هذا ، او بعد يومنا هذا بملايين الايام .

والدموع — لا شك — رحمة ، ولقد اصابت رحمة الله الانثى دون الذكر ، فهيأ لها طريق الدموع ، ويسر لها سبيل البكاء .. فى حين ان الذكر منا قد خلق عصى الدمع ، « محبوس » الدم .. فان تمرد اوبكى قيل له « اكتم امال . . خليك دكر » . . ولابد ان ينكتم ، وقد ينفجر .. وما انفجاره الا سكتة قلبية ، أو نزيفا فى مخه أو جلطة فى شريانه ، أو ضغطا فى دمه .. وكل هذه الامراض تظهر بين الذكور اكثر من ظهورها بين الاناث — كما سيتبين لنا ذلك فيما بعد .

ولقد كان الانسان هو المخلوق الوحيد الذى يستطيع أن يضحك ويبكى .. ولهذا عرف باسم « الضاحك الباكى » .. ولقد ظهرت فيه هذه الصفة نتيجة لتطور المراكز العليا للعاطفة فى مخه .. فاذا اثير الانسان ، ووقع فى ضنك عضوى ، واجهاد

نفسى ، فان ذلك ينشأ من سلسلة من الاحداث الكيميائية الحيوية التى تؤدى فى النهاية الى افراز هرمون الأدرينالين من الغدة الكظرية أو الغدة فوق الكلى ، ثم صبه فى الدم ، ليقوم بعمليات فسيولوجية كثيرة من بينها احتقان الغدد الدمعية فى عيوننا ، فتسيل الدموع على خدودنا ، أو قد تندفع الدماء الى وجوهنا ، او قد نجهش بالبكاء .. كل هذا يتوقف على نوع الضنك والاثارة التى يتعرض لها الانسان او الحيوان .

لكن الحيوان اذا تعرض للاثارة ، فانه لا يبكى ولا يدمع ، ولا تندفع الدماء الى وجهه ، بل يقف شعره ، أو « ينتفش » ريشه (كما فى القطط والكلاب والطيور) ، والذى فعل ذلك هو هرمون الادرينالين العجيب . . وهو يفعل ايضا فى اجسامنا الكثير ومنها اثارة الدم والدمع والحض على البكاء ، فاذا بكى الانسان ارتاح ، ولهذا كانت الدمعة او البكاء بمثابة صمام الامان الذى يريحنا من الازمات النفسية .. ولقد استخدمت الانثى ذلك الصمام اعظم استخدام بحيث اصبح من « التكتيكات » الهامة فى حياتها ، ولهذا اصابت بدمعتها عصفورين فى وقت واحد : عصفور ينفرج به كربها ، وتستريح اعصابها ، وتهدأ نفسها ، وعصفورها الثانى ذكر يضعف امام دمعتها ، ويجيب لها مطالبها — تماما كما فعل من قبل الذكر آدم ، فعرفنا الحلال والحرام ، والفضيلة والرذيلة ، والقبح والجمال .. الخ ، اى اننا ادركنا كثيرا من المتناقضات بعقولنا المتطورة .

اذن فالدمعة ايضا سلاح ذو حدين : حد تذبح به الانثى ضنكها ، وتنفرج ازمتها ، وحد لتذبح به ذكرا ، او تضعف ارادة رجل ، او تستعدى ذكرا على ذكر ، او تاخذ ما ليس لها بحق .. الى آخر هذه « التكنولوجيا » الدمعية التى قد تفعل أكثر مما تفعله الاسلحة الفتاكة .. ومع ذلك فالانثى فتاكة بدموعها ، فتاكة بعيونها .. على شرط ان تكون ساحرة الطرف ، جميلة الوجه .. والا فلا !

والواقع ان الذكر ليس هاما فى حياة الانثى الا بقدر ما يجلب ، فان لم يفعل فعليه اللعنة ، او ان شئتم تعبيرا ادق من عالمكم — عالم العقل والحكمة ، فعليكم بهذا القول العظيم المأثور عن عالم الحريم « الراجل عيبه جيبه » .. يعنى أن الذكر منا ليس مرغوبا فيه من اجل انه رجل فقط ، ولكن بما يستطيع ان يقدم ، فاذا كان غير ذلك .. فالى الجحيم !

لكن مما لا شك فيه ان الانثى بها شيء من ذكاء ، وان الذكر به بعض غباء ، ونسبة الذكاء والغباء فى الحقيقة متروكة لتقديرك ، وغباء الذكور عموما يقودهم رغما عنهم الى الدخول برؤوسهم راضين فى المصيدة ، وكأنما هناك طعم لذيذ فى « سنارة » ، وعندما « يشبك » الذكر فى الشص ، وتقع الفاس فى الراس ، تراه يقول بمرارة ان هذا « شر لا بد منه » . او هكذا اخبرنى من قضم الطعم وشبك فى السنارة ، ثم لا يستطيع منها فكاكا ، ولا من براثنها انطلاقا ، ولابد أن يدور فى فلكها وملكوتها الصغير ، فاذا اهمل او تمرد او اظهر العصيان ، وهرب من الميدان .. ميدانها ، فالى المحكمة .. فلقد حفظت للانثى هناك حقوقها .. فمن دخل راضيا سالما ، فانه فى أغلب الاحيان — لا يخرج غانما ، فليست الامور فوضى ، ولابد للذكر ان يتحمل المسئولية مع انثاه حتى نهايتها .. وليشارك بعبء محمود او غير محمود .. لسنا ندرى !

ولا شك ان الحياة حكيمة ، والطبيعة ماكرة .. فلقد ضحكت علينا نحن معشر ذكور الانسان والحيوان ، وزودتنا بمادة كيميائية يطلقون عليها اسم « تستستيرون » ، وبهذه المادة العجيبة ينقلب كياننا راسا على عقب ، فتبدو الانثى امامنا وكأنما هى الفردوس المقيم . فاذا دخلناه من بعد حرمان ، انتهى التأثير وضاعت المباهج ، وانطفأت الشعلة المتوقدة ،

ليكون من ورائها أجيال وأجيال من سائر المخلوقات ، ومن هنا برزت الحكمة .. حكمة ان يعمر هذا الكوكب بطوفان دافق من سائر افراد البشر والحيوان !

ولولا هذا التستستيرون العجيب ، او الهرمون الجنسى الفريد ، لما سعت الذكور الى اناثها ، ولا توددت اليها ، ولا دخلت فى شراكها ، ولا حدث الصراع والتنافس بينها لتفوز بها .. وتتضح لنا هذه الحقيقة تماما فى ذكور الانسان والحيوان قبل ان يبلغوا مبلغ الرجال او قبل ان يحل هذا الهرمون فى اجسامهم كضيف عزيز ، ففى هذه الحالة يعيش الذكر الصغير مع الانثى الصغيرة . دون ان يفكر احدهما فى الاخر كما يفكر فى ذلك البالغون من الجنسين ، او لو اننا ازلنا الغدد الجنسية من الذكور قبل سن البلوغ ، وتركناها حتى تبلغ . فلن تظهر عليها اية مظاهر للرجولة ، بل سيصبح الفتى اقرب الى الفتاة صوتا وبشرة وسلوكا ، وفوق كل هذا يبدو له الجنس الاخر كشيء عادى لا يستحق الاهتمام او الاثارة ، حتى ولو برزت امامه كل مفاتنه !

لكن ان يظهر هذا الهرمون فى الذكور . ثم يسرى فى دمائهم .. فهذا اعظم « تكتيك او تكنولوجيا » بيولوجية على درجة هائلة من الكفاءة والضحك على الذقون .. ذقوننا نحن معشر الذكور ، فما ان تظهر مفاتن الانثى امام اعيننا ، حتى يسيل لعابنا ، كما سال لعاب ابينا آدم من قديم الزمان ، فعصى امر ربه واتبع هوى حواء (وهوى كل حواء جاءت بعدها بطبيعة الحال) .. فهى بذكائها تعرف مكامن الضعف فينا ، ولا شك ان هذا الهرمون اللعين يلعب نفس اللعبة ، حتى نقع فى المصيدة .. يقول البعض انها مصيدة لذيذة ، والبعض الاخر يقول « يا ريت اللى جرى ما كان » .. ولا ندرى ايهما على حق فيما يفتى ويقول !

كأنما نحن معشر الرجال نجيء الى الحياة اول ما نجيء من المراة لتحضننا بأمومتها وحنانها ونحن صغار ، ثم نترعرع ، ونصبح شبابا يتدفق قوة وحيوية وجنسا ، فاذا بها تحتوينا فى احضانها مرة اخرى ، وبطريقة اخرى ، وكأنما ندخل برؤوسنا فى حلقة ضيقة نصبتها لنا الطبيعة على هيئة شباك سندسية ، وفى داخلها صيد لذيذ ، او تكوين انثوى بديع ، ليجذبنا كما يجذب « الطعم » فى السنارة سمكة جائعة ، و كما يجذب الفخ بما حوى حيوانا ، فاذا بهذا السحر الانثوى او « الطعام » اللذيذ الذى يتراقص امام اعيننا على هيئة « وجبة جنسية » يسيل لها اللعاب .. اذ به جميعا يطير من الشباك بالزواج .. حقيقة علمية نفسية معروفة ــ فالحرمان من الاشياء هو الذى يجعلها مرغوبة (١) ، فاذا امتلكناها زهدنا فيها ــ ولولا تلك الروابط الاجتماعية المقدسة ، لتغيرت الامور ولتبدل الحال !

ان غرورنا نحن معشر الرجال بقوتنا ورجولتنا هو الذى يوحى الينا باننا نحن الذين نصطاد ، ولكن الحقيقة غير ذلك ، فالجوع الجنسى ، او ذلك الهرمون السحرى العجيب هو الذى يحركنا .. كما يحرك الذكور فى عالم الحيوان ، وهو الدافع الاول الذى يدفعنا دفعا الى دخول هذا العش او تلك المصيدة المنصوبة ، فاذا بنا نصبح صيدا ، ويسخر الصياد الحقيقى ــ المراة ــ بما اصطاد ، ولهذا فكثيرا ما نسمع همسا من الصياد تلك العبارة المكررة « لقد اوقعته فى حبالى من اول نظرة » .. وبعدها تسير على تلك الحكمة « الحوائية » ــ نسبة الى حواء ــ

(١) والرمز المستتر فى قصة آدم وحواء يشير أيضاً إلى أن الشجرة الوحيدة فى الجنة التى كانت لها جاذبية لا تقاوم من بين كل الأشجار ، هى الشجرة التى حرمت عليهما أن يقرباها .. وعندما كشفا عن سرها ضاعت مباهج الجنة وعاشا فى الواقع .

الشهيرة « قصقصى طيرك ، ليلوف بغيرك » .. والقصقصة تعنى هنا اشياء كثيرة تعرفها حواء ، وتحتفظ بها وكأنما هى اسرار عسكرية ، وتاكتيكات حربية لا يصح افشاؤها .. ولا حول ولا قوة الا بالله .

انا لست فى هذا ضد المراة ، فالمراة ولا شك تستهوينى .. انها حقا فردوس رائع (البعض يفضلها جحيم مقيم) ، لكننى لا اريد ان امتلكه او يمتلكنى ، حتى لا يزهد فى ، ولا ازهد فيه .. وليكن هذا الفردوس امام عينى كطعم لذيذ فى سنارة ، احيانا اقضم الطعم ، ولا اقرب السنارة .. نوع من الحرص ليس الا .. فاذا دخل الزواج من الباب ، طار الحب من الشباك .. او اذا اردت تعبيرا ادق لقلنا : طار السحر والجنس والجمال من الشباك ، او هكذا اخبرنى من قضموا الطعم والسنارة ، « فشبكوا » فيها وكثير منهم نادمون كندم ابينا آدم .. او هو « شر لابد منه » .. وكذلك يقولون !

لكن .. هكذا شاءت الحياة وقدرت من قديم الزمان ، وسالف العصر والأوان ، ليكون من وراء ذلك صفة الاستمرار فى الافراد والانواع ، وعلى جميع مستويات المخلوقات .. فحيث يذهب جيل ، يحل محله جيل جديد ، والمراة او الانثى عموما هى صانعة الاجيال .. وهى الاساس .. وهى الاثمن والابقى بالنسبة للحياة ، ولهذا فقد وهبتها من المكرمات والمزايا والصفات ما يجعلها هى الجنس الاقوى ، ونحن الجنس الاضعف .. حتى ولو كره الرجال !

كيف ذلك يكون ، وقد قال الله فى كتابه العزيز « الرجال قوامون على النساء » ؟

هذا صحيح .. لكن عليك ان تكمل الآية .. تجدها تقول « بما فضل الله بعضهم على بعض ، وبما انفقوا من اموالهم » !

والتفضيل هنا متروك لتقديرك وتعمقك فى بواطن الأمور .. لكن من وجهة نظر العلم نستطيع ان نقول ان المراة افضل واثمن بيولوجيا من الرجل !

وعلينا ان نترك هذه المقدمة « النكد او الذكر » لنوضح وجهة نظرنا فى فصل وفصول آتية ، ليتبين لنا اننا التعساء وهن المحظوظات !

دكتور عبد المحسن صالح
استاذ الكائنات الدقيقة
كلية الهندسة . جامعة الاسكندرية

هن أطول عمراً

لا شيء فى هذا العالم يساوى الحياة

فلو ان انسانا خير بين ماله وحياته .. لتخلى من المال والجاه والسلطان وكل ما يملك لكى توهب له الحياة .. حتى ولو لبضع سنين تعد على اصابع اليد الواحدة !

ولقد نالت المراة خاصة ، والانثى عامة هذه المكرمة .. اذ وهبتها الحياة من المهد الى اللحد حياة اطول من حياة الذكور !

الاحصائيات البيولوجية تؤكد هذه الحقيقة ، فحيث يكون متوسط عمر الرجل فى مصر ٥١ر٦ سنة ، نجد عمر المراة يصل الى ٥٣ر٨ عاما .. وفى فنلندا ٦٣ر٤ عاما للذكور و ٦٩ر٨ عاما للاناث .. وفى انجلترا ٦٨ عاما للذكور و ٧٣ر٣ للاناث ، وفى الولايات المتحدة ٦٧ و ٧٣ر٦ عاما للذكور والاناث على الترتيب ، والشيء نفسه فى الاتحاد السوفييتى .. للمراة من سنى الحياة ٧١ر٩ عاما ، وللرجل منها ٦٤ر٤ عاما ، وهكذا منحت المراة فى جميع دول العالم عددا من سنى الحياة اطول من سنى الرجل .. عدا دولتين اثنتين : هما الجزائر وكمبوديا .. لنساء الجزائر من العمر فى المتوسط ٥٢ر١ عاما ، وللرجال ٥٤ر٣ عاما ، ولنساء كمبوديا ٤٣ر٣ عاما ولرجالها ٤٤ر٢ عاما .. وفى هاتين الدولتين شذوذ على القاعدة ، ولا حكم على الامور الشاذة !

فماذا يعنى هذا بحق السماء ؟

قد يقفز هنا فصيح ويقول معللا دون الاستناد الى دليل مدروس : ان عمر الرجال اقصر ، لانهم معرضون لمسئوليات الحياة واخطارها اكبر .. وهم الذين تقع عليهم اعباء الحروب ، وتشييد الدول . وبالاختصار فهم بناة الحياة ، وهم عمدها .. اما النساء فليس لهن من كل ذلك نصيب محمود ، ولهذا طالت اعمارهن اكثر من الرجال

وذلك – فى الواقع – استنتاج غير صحيح ، ومردود عليه باحصائيات علمية شتى .. فالنساء والرجال الذين يقومون بالاعمال نفسها ، او حتى هؤلاء الذين لا يقومون بأعمال تذكر من كلا الجنسين . وفى الاعمار ذاتها ، نجد ان الحياة تتحيز للانثى وتمنحها عمرا اطول من عمر الرجال !

ولكى نوضح ذلك ، دعنا نقدم دراسة واحدة من هذه الدراسات .. فلقد قام الاب الراهب فرانسيس ماديجان بدراسة على متوسط اعمار الراهبات والرهبان ، وهؤلاء – بطبيعة حياتهم – متساوون فى سلوك الحياة ، ولقد تناولت الدراسة حوالى ۳۰ الف راهبة ، واكثر من عشرة آلاف راهب ، ثم تقدم ببحثه هذا الى جامعة نورث كارولينا وفيه من الاحصائيات ما يؤكد ان متوسط عمر الانثى اكبر من متوسط عمر الذكر بحوالى ست سنوات

تتضح الحقيقة اكثر واكثر عندما نتناول فرص الحياة بين الذكور والاناث فى بدايات حياة الانسان ، اى وهو لا يزال جنينا فى بطن امه

يذكر دكتور آشلى مونتاجو فى كتابه « الوراثة والبشر » اشياء مثيرة واحصاءات غريبة عن الفرق بين الرجل والمراة من المهد حتى اللحد .. فعند مجىء الذرية الى الحياة نجد ان كل مائة مولود

انثى يقابله ١٠٥ مواليد ذكور .. وهذا يعنى ان عدد الذكور الذين يفقدون على هذا الكوكب أكثر من عدد الاناث الوافدات .. ومع ذلك فان الآية تنعكس عندما يصل هؤلاء وهؤلاء الى سنى الشيخوخة فمن سن الستين حتى الرابعة والستين نجد أن عدد النساء اكبر من عدد الرجال بحوالى ۲۳ ٪ .. وفى سن الخامسة والسبعين فما فوق ترتفع النسبة ويصبح عدد النساء اكبر من عدد الرجال مرتين .. اى أن كل حيتين منهما يقابلهما حى واحد منا !

لكن مأساتنا نحن معشر الذكور تتضح اكثر عندما تبدا بدايتنا الحقيقية فى الحياة ، والبداية ليست من يوم الولادة ، ولكنها من يوم اخصاب بويضة بحيوان منوى . ولهذا فان الصينيين هنا على حق عندما يضيفون تسعة اشهرا الى عمر المولود هى الفترة التى يمكثها الجنين فى الرحم من يوم الاخصاب حتى الولادة .

المفروض ان تكون فرص مجىء الذكور والاناث الى الحياة فرصا متساوية .. بمعنى أن يكون عدد المواليد من البنات مساويا لعدد المواليد من الاولاد .. لكل منها نسبة ٥٠٪ .. فالذى يحدد نوع المولود هو الرجل لا المراة .. ذلك أن ٥٠٪ من حيواناتنا المنوية « حريمى » ، و ٥٠٪ منها رجالى .. اى أن تكويننا الوراثى نحن معشر الرجال ليس « رجالى » صرفا .. ففى كل خلية من خلايانا الجسدية « أشرطة » ميكروسكوبية دقيقة يطلقون عليه اسم « كروموسومات » .. والكروموسوم بمثابة خريطة كيميائية وراثية ، وفيه تتراص مواقع حيوية استراتيجية نعرفها باسم المورثات أو الجينات .. والمورثات هى خطة العمل التى تترجمها الخلية الى مخلوق ايا كان شكله وحجمه ونوعه وجنسه

لكن موضوع الكروموسومات والمورثات موضوع متشعب وطويل ، وهو يفرض هنا نفسه مادمنا قد ذكرنا ان جزءا من مكوناتنا الوراثية نحن معشر الذكور حريمى ، وجزءا آخر رجالى .. ولكى نوضح هذا الامر لغير المتخصصين – وهم غالبية عظمى –

يكفى ان نذكر باختصار ان فى كل خلية من خلايانا الجسدية نواة .. وفى النواة ٤٦ كروموسوما .. او ٢٣ زوجا من الكروموسومات .. ٢٢ زوجا منها متشابهة ومكررة .. لكن الزوج الاخير ــ اى رقم ٢٣ يختلف عن الازواج الأخرى .. هذا الزوج من الكروموسومات يتكون من كروموسوم حريمى يسمونه « س » (او اكس X ، وكروموسوم رجالى يسمونه ص (او واى Y) .. فى غددنا الجنسية (الخصى) نحن معشر الذكور تنفصل الازواج بالتساوى ، ويرحل نصفها الى قطب الخلية الجنسية ، والنصف الاخر الى القطب الاخر ، ثم يقام بينهما جدار حى رقيق ، وبعد هذا ينفصلان ليصبحا حيوانين منويين .. حيوان منوى منهما يحمل الكروموسوم س (حريمى) ، والاخر يحمل الكروموسوم ص (رجالى) !

فى عملية الاخصاب ينساب من الرجل حوالى ٢٠٠ مليون حيوان منوى ــ ينقص هذا العدد او يزيد على حسب فحولة الذكر وعمره وتكوينه الجسمانى ــ لكن ليس ذلك مهما الآن بقدر ما يهمنا ان نعرف أن نصف الحيوانات المنوية فى السائل المنوى تحمل الكروموسوم س ، ونصفها الاخر يحمل الكروموسوم ص ــ فلو كان فى المقذوف ٢٠٠ مليون حيوان منوى ، نجد أن مائة مليون منها حريمى ، ومائة مليون رجالى !

ومن هذا يتضح ان فرصة المواليد الاناث كفرصة المواليد الذكور .. فاذا سبق الحيوان المنوى السينى ولقح البويضة ، كانت المولودة أنثى ، واذ سبق « ص » ودخل ، جاء المولود ذكرا .. وعلى حسب قوانين الاحتمالات ، ومادام نصف الحيوانات المنوية تحمل معها الصفات الوراثية الحريمى ، ونصفها الثانى يحمل الصفات الرجالى ، فانه من المتوقع ان يكون عدد حالات الاخصاب التى تؤدى الى مجىء بنات مساوية لعدد حالات الاخصاب التى تؤدى الى مجىء صبيان !

وقد يبرز هنا تساؤل : ولكن هناك حالات تلد فيها النساء ذكورا صرفا ، او اناثا صرفا .. والجواب ان العلم لا ينظر الى الحالات الفردية ، ولو اتخذها مقياسا لكان ذلك مدعاة الى الخطأ ، ولكنه فى تحليله لاى أمر من الامور يرتكز على احصائيات تتناول قطاعات كبيرة من السكان ، او حتى دولا باكملها .. تماما كما يحدث فى الميزانيات والدخل والمنصرف وانتاج الثروات الزراعية والحيوانية والصناعية .. فدائما ما نذكر ان متوسط الدخل كذا جنيها ومتوسط محصول الفدان كذا اردبا او قنطارا .. الخ

دعنا نعود الى تحليل موضوعنا الذى يهمنا لنقول : ان التقديرات الحسابية والرياضية توضح أن عمليات الاخصاب التى تتم ستؤدى الى تكوين اجنة من الذكور والاناث بالتساوى !

لكن الانثى قد لعبت بحساباتنا وتقديراتنا ، كما لعبت من قبل بعقولنا .. فالحيوان المنوى الذى يحمل الكروموسوم الرجالى او الصادى يؤدى الى اخصاب اكثر (١) ، وسيقود ذلك حتما الى انتاج عدد من الذكور اكبر .. ولهذا تشير الاحصائيات البيولوجية الى ان عدد البويضات المخصبة التى ستؤدى الى مجىء مواليد من الذكور تقع فى حدود ١٢٠ ــ ١٥٠ بويضة ، يقابلها مائة بويضة مخصبة بالحيوان المنوى الحريمى لتاتى منها البنات

ولماذا كانت هذه التفرقة من البداية ؟

الواقع ان احدا من العلماء لم يستطع ان يقدم تعليلا مقبولا

(١) يعتقد العلماء أن السبب فى ذلك يرجع إلى أن الحيوان المنوى ص . أخف قليلا من الحيوان المنوى س (الأنثوى) ، لهذا كان السينى أبطأ فى الحركة نسبياً من الصادى ، ولا بد والحال كذلك أن تكون فرصة الاخصاب بالذكرى أكبر ؛ وعلى أساس ذلك ، فإن فرصة تكوين أجنة من للذكور أكبر من نسبة تكوين أجنة من الإناث بنسبة تتراوح ما بين ٢٠ – ٥٠ ٪ .

لمثل هذه الظاهرة الغريبة .. لكن ذلك سيتضح من مجريات الاحداث التى تتم بعد الاخصاب ، وسيتبين لنا أن الجنين الذكر هو الأضعف من ناحية التكوين الوراثى ، ولابد أن يعوض هذا الضعف بزيادة فى عدد حالات الاخصاب ، لتصبح الأجنة الذكور اكثر من الاجنة الاناث ، حتى اذا ما تعرضت الاولى لعوامل ومصائب ليست فى الحسبان ، فان عددها الزائد عن الاناث ، سوف يتوازن عند الولادة وما بعدها !

ولكى نوضح ذلك بالارقام نقول : فى سجلات المواليد يتبين ان كل مائة مولودة انثى يقابها ١٠٥ مواليد ذكور .. ولو قارنا هذين الرقمين مع عدد حالات الاخصاب التى ستؤدى الى صبيان وبنات ، لوجدنا ان عددا من الاجنة الذكور يتراوح ما بين ١٥ و ٤٥ جنينا قد اختصروا الطريق الى الحياة الاخرة وهم لا يزالون فى الارحام .. ذلك ان عدد البويضات المخصبة التى ستؤدى الى ذكور يتروح ما بين ١٢٠ ــ ١٥٠ حالة ، مقابل مائة بويضة فقط تؤدى الى اناث .. فاين ذهبت البقية ؟ .. الجواب : ماتت قبل ان تخرج الى الحياة .. لكن هذا لا يعنى أن كل الاجنة البناتى تعيش ، فلا شك ان هناك نسبة منها ستختصر الطريق الى الآخرة وهى لازالت فى الارحام .. لكن الاحصائيات تشير الى ان ما يموت من الاجنة الذكور أعلى من الاجنة البنات !

يؤكد مونتاجو ذلك فى كتابه فيقول « فى كل مرحلة من مراحل تكوين الجنين ، وفى كل مرحلة من مراحل الطفولة ، يكون معدل الوفيات فى الذكور اكبر من الاناث .. والشىء نفسه صحيح بالنسبة لمراحل العمر المختلفة » !

ثم يسوق بعد ذلك ارقاما ، فيذكر :

* ان ما يموت من الاجنة الذكور أعلى مما يموت من الاجنة الاناث بحوالى ٥٠ ٪ !

* فى الشهر الاول من عمر الطفل ترتفع معدلات الوفيات بين الذكور عنها فى الاناث بنسبة تصل الى ٤٠ ٪ !

* عندما يصل المواليد الى مرحلة من العمر تقدر بسنة واحدة ، نجد ان ما مات من الذكور اكبر بحوالى ٣٣ ٪ مما مات من الاناث !

* ما بين سن الخامسة الى التاسعة من مراحل الطفولة ترتفع نسبة الوفيات بين الذكور عنها فى الاناث ، فالذين يموتون فى هذه المرحلة من الذكور اكثر بنسبة ٤٤ ٪ من الاناث !

* ترتفع نسبة الوفيات مرة اخرى فيما بين سن العاشرة والرابعة عشرة ، ليصبح ما مات من الصبيان اكثر بحوالى ٧٠ ٪ مما مات من البنات !

* ترتفع النسبة بشكل يدعو للفزع فيما بين سن ١٥ ــ ١٩ عاما ، فتصبح نسبة عدد الضحايا من الذكور ١٧٠ ٪ منها فى الاناث ، ثم تنخفض النسبة قليلا الى ١٣٠ ٪ حتى سن الواحدة والعشرين !

* تنقص نسبة الوفيات تدريجيا بين الجنسين حتي يحدث التوازن بينهما عند سن ٣٠ ــ ٣٤ عاما ، وبعدها يقصف من اعمار الرجال اكثر مما يقصف من أعمار النساء .. وفى نهاية رحلة الحياة يزيد عدد الحيات عن عدد الاحياء بضعفين .. واحد منا لكل اثنتين منهن .. ويا قلب لا تحزن ، فهن أهم منا وائمن !

هل يعنى هذا ان الحياة تتحيز للانثى ، وتحافظ عليها ، فى حين انها تضحى بنسبة معينة من الذكور ؟ .. وما هو السر الكامن فى ذلك ؟ .

الاناث بلا شك اغلى وارفع منزلة من الذكور .. لكن هذه الحقيقة ستضح لنا اكثر فى عالم الحيوان والنبات ، وسوف نتعرض لذلك فيما بعد .

ان موت الذكور من البشر بهذه النسبة المحزنة ليس كارثة تدق لها الحياة طبول الخطر ، ولكن الكارثة الحقيقية هى موت الاناث ، خصوصا عندما كانت الحياة تشق طريقها بالانسان فى العصور البالغة القدم .. فلكى يترعرع النوع الانسانى وتزيد اعداده من بعد اضمحلال ، كان اعتماد الحياة على الاناث اكثر من اعتمادها على الذكور .. فذكرواحديكفى لقبيلةمن النساء ،ولكن بقاء انثى واحدة يشكل امام الحياة مشكلة خطيرة للغاية حتى ولو كثر الذكور ! .

ولكى نوضح ذلك لابد ان نشير الى ان غريزة الجنس هى المسئولة عن استمرار الحياة ، ولهذا فهى أهم من غريزة الطعام . صحيح أن الغريزتين هامتان واساسيتان لاستمرار الطوفان الحى ، لكن غريزة الطعام فيها استمرار لحياة الافراد ، وغريزة الجنس فيها استمرار للانواع ، والنوع بالنسبة للطبيعة اهم بيولوجيا من الفرد .. فالفرد قد يموت ، ولابد أن يظهر غيره عن طريق الجنس، لكن ان يموت النوع ، فان ذلك يعنى انقراض كل افراده من هذا الكوكب .. والمسئول الأول عن انتاج « بضاعة » الحياة هى عملية الجنس التى أصبحت بمثابة العملة البيولوجية المتداولة بين كل انواع الخلق .

ان الجنس بالنسبة للانثى بداية ـ اعظم بداية ، وبالنسبة لنا نحن معشر الذكور نهاية .. أبسط نهاية .. !

يعنى ان عملية الاتصال الجنسى لا تعمر الا دقائق تعد على اصابع اليد الواحدة ، او اذا اردت ، فلنقل اصابع اليدين والرجلين .. ولقد كان هدف الذكور من ذلك

اساسا أن تحصل على لذة عارمة ودت انها تدوم ، لكن ليس هذا هو هدف الحياة ، بل اتخذت من اللذة وسيلة فعالة لكى يقذف الذكر بالملايين من خلاياه الجنسية ليحدث التلقيح ، وهذا ـ فى الواقع ـ هو الهدف الحقيقى الهام .. وكانما الطبيعة قد ضحكت علينا ضحكة ازلية ، وصورت لنا الجنس الآخر كجنة نتغنى بجمالها وسحرها وحبها .. وما اكثر الاغانى والآهات وكلمات الغرام والهيام التى نسمعها ليل نهار ، وكانما هذا الكوكب قد خلق لذلك ، وهو فعلا كذلك ، فالنتيجة الوحيدة لذلك ان يحصل المحب على من يحب او لا يحصل ، فاذا بالحب يتحول الى عيال ومسئوليات جسام ، وهكذا تأتى الاجيال ، وتستمر الحياة بمخلوقاتها .

وعندما ينتهى الذكر من لذته بعد دقائق ثم يخمد وينام ، نرى البداية العظيمة لهذا التاكتيك الهرمونى الجنسى وهى تبدا فى الانثى بعد أن يحدث الاخصاب ، وعندئذ تنقسم البويضة الملقحة الى عشرات ومئات وآلاف الملايين من الخلايا التى تتشكل فى جنين لن يأتى الى الحياة الا اذا عاشت من تحمله فى بطنها على الاقل أشهر تسعة ، ومن هنا كانت حياتها اهم من حياة الذكر .

بمعنى آخر نقول : ان دور الرجل فى انجاب الذرية لا يستغرق وقتا مذكورا ، فى حين أن الدور الرئيسى يقع على عاتق المراة ، ولا بد ان تحافظ الحياة عليها غالبا حتى تضع مولودها ، ثم لا بد ان تقف بجوارها لترضعه وتحميه وتحتضنه لسنوات قادمة .. وموتها فى هذه الفترة سيكون كارثة على الحياة ، لكن ان يموت الذكر بعد عمليات الاخصاب ، فلن يقدم ولن يؤخر ، وتتضح هذه الحقيقة اكثر فى عالم الحيوان ، فمعظم ذكورها تقوم بتلقيحها ثم تذهب الى حال سبيلها ، وعلى الانثى تقع كل المسئولية ، اذ لابد ان تسعى لاطعام نفسها واطعام ما فى بطنها من دمها ، وبعد الولادة ترعاها وترضعها وتقف بجوارها حتى يعتمد أولادها على

انفسهم ، ويذهبون الى حال سبيلهم ، والذكر عن كل ذلك لاه عن رسالة كبرى حملتها الانثى ، وبها شقت طريقها .

ولو فرضنا أن هذا الذكر كان الوحيد فى قبيلة من النساء ، فانه يستطيع ان يقوم باخصابهن جميعا فى شهور قليلة ، ولو مات بعد هذه الشهور فلن تحدث المأساة ، ذلك ان الذرية القادمة من هؤلاء النساء ستؤدى الى جيل جديد من الاولاد والبنات ، وعندما يبلغون ، فسوف يتناكحون ويتناسلون ، وبهذا تستمر الحياة ، لكن ان تكون هناك امراة وحيدة بين قبيلة من الرجال ، فليس لهؤلاء الذكور من فائدة ، ولاشك ان الانثى هنا بالنسبة لاستمرار الحياة ـ اغلى بكثير من كل الذكور اذ لو ماتت بعد التلقيح او قبل الولادة ، لتوقفت الحياة فى القبيلة ، ولانقرضت من الوجود .

طبيعى ان ذلك لا يحدث الآن ، فلقد طفح الكيل من كثرة الذرية والتناسل ، لكن اهمية الانثى قد بزغت منذ بزوغ النوع الانسانى فى فجر التاريخ .. ولكى تكثر الذرية ـ اى نوع تشاء من اى مخلوق تشاء ـ كان لابد من الاعتماد على الانثى اولا ، ثم يأتى الذكر فى المرتبة الثانية .. ومن اجل هذا فقد ضحت الحياة بذكورها ، وحافظت على اناثها .. ويكفى أن نشير هنا مثلا الى تلك القصة الرمزية أو الحقيقية التى سجلها قدماء المصريين على قبورهم ، فلقد خرج جميع الشبان والرجال الى الحرب ، وغابوا لعدة سنوات عن نسائهم ، ولم يعد منهم الا عدد جد قليل ، وكانت دهشتهم بالغة عندما وجدوا أن انتاج الذرية لم يتوقف فى النساء ، رغم غياب الرجال ، فلقد كان هناك رجل لا يصلح للحرب ولهذا تركوه وراءهم ، فاذا به يخصب معظم الاناث ، فأعاد للدولة مجدها من بعد اضمحلال فى عدد الذرية ، وهكذا يتبين لنا أن من لا يصلح فى الابادة والقتل والحرب ، يصلح فى أمور أخرى تقوم عليها اعمدة الحياة .. ليكون استمرار الاجيال .

لكن ليس ذلك كل ما فى الموضوع .. فلا زالت للقصة بقية .

فمن الحقائق المعروفة ان الفترة الخصيبة فى المراة اقصر من الرجل ـ فحيث تبدا فى الجنسين عند سن ١٤ ـ ١٦ عاما فى المتوسط عند البلوغ ، نراها تمتد فى المراة الى سن الخمسين فى المتوسط .. حيث ينقطع الطمث الشهرى ، وهذا يعنى ان المبيضين قد توقفا عن افراز البويضات لاصابتهما بالشيخوخة المبكرة نسبيا ، وفى ذلك دليل على ان المراة قد احيلت الى « المعاش» اخصابيا ، مع انها لازالت تمارس كل حقوقها فى الحياة بما فى ذلك الجنس طبعا ، ولكن بدون ذرية ! .

والواقع ان ذلك ليس حال الذكور .. اذ قد تمتد فترة الاخصاب فينا الى اكثر من ٦٠ عاما .. وهذا يعنى ان الذكر منا قد يحال الى المعاش وظيفيا ، ولكن يبقى خصيبا بعد هذه السن جنسيا .. فهناك حالات من الرجال المسنين جدا (ربما فى الثمانين او اكثر) قد تزوجوا من نساء صغيرات نسبيا ، واستطاعوا أن ينجبوا منهن ذرية فى هذه السن المتأخرة .. وبمعنى آخر نقول : ان الفترة الخصيبة فينا نحن معشر الذكور قد تمتد الى ٦٠ أو ٧٠ عاما ، فى حين انها فى النساء قد لا تزيد عن ٣٥ عاما ! .

وهذا ايضا كان فى صالح الجنس البشرى عند بداية ظهوره على هذا الكوكب .. فلقد كانت النساء وقتها تلوذ بالكهوف ، ولا يتعرضن بذلك للاخطار التى يتعرض لها الرجال الذين يخرجون للقنص والصيد بطرق بدائية ، فلا تنفعهم عضلاتهم امام الوحوش المفترسة ، وكانوا ينقرضون واحدا بعد الآخر ، ولا شك ان وجود بعض المسنين فى القبائل البدائية القديمة مع النساء الشابات كان بمثابة تعويض لما يضيع ويموت من الشباب والرجال ، والمسن يستطيع ان ينجب ذرية من امراة او شابة مات زوجها .. فلا زالت غدده الجنسية صالحة لافراز حيوانات منوية خصيبة ،

حتى ولو امتد به العمر .. فمن مفارقات الحياة الغريبة ان كل خلايانا الجسدية يحل بها الضعف ، وتزحف عليها الشيخوخة كلما تقدم بنا السن ، ولكننا لا نرى ذلك فى الخلايا الجنسية .. فهى دائما ابدا تمتاز بالحيوية والنشاط حتى ولو كان الذى افرزها قد وصل الى أرذل العمر .

ويذكر بعض العلماء ان المراة فى العصور القديمة جدا كانت تختلف عن المراة فى العصور الحديثة .. فمنذ مائة الف عام تقريبا كانت الانثى تتميز بفترات اخصاب اطول ، بمعنى انها كانت تستطيع ان تنجب اطفالا وهى فوق سن الخمسين أو الستين، وفى ذلك تعويض عن عددهن القليل جدا فى بداية نشوء النوع الانسانى .. فلكى تكثر الذرية وتنتشر ، كان لابد من الاعتماد اساسا على المراة .. وعندما اشتد عضد النوع الانسانى ونشأ وترعرع وبدأ ينتشر على الارض ، بدأت الفترات الخصيبة للمراة تتناقص تدريجيا بمرور عشرات الالوف من السنين .. وربما كانت هناك علاقة بين عدد سكان الارض من البشر وبين الفترات الخصيبة للنساء .. فكلما زاد تكدس السكان ، تناقص لديهن معدل الاخصاب .. لكن ذلك لا يظهر بوضوح فى الانسان ، ولا نستطيع أن نلحظه فى فترات تقدر بالوف السنين .. كما اننا لا نستطيع ان نجرى التجارب العملية على النساء والفتيات لسبب بسيط .. ذلك انهن لسن بحيوانات تجارب ، ولكن التجارب التى اجراها العلماء على اناث الحيوان تؤكد هذه الحقيقة الغريبة .. ولنذكر هنا تجربة واحدة اجريت على « حريم » الفئران ! .

عندما تتكدس اناث الفئران فى أقفاص لفترات طويلة ، تظهر عليها العصبية وتوتر الامزجة ، وهذا بدوره ينعكس على درجات اخصابها .. فأحيانا ما تصاب بعقم كاذب ، وأحيانا أخرى لا ترغب فى الجنس ، وقد يحدث لديها اجهاض ، وقد تتكاسل مبايضها عن افراز البويضات .. الخ ، المهم فى الموضوع ان اناث

الفئران المزدحمة فى اقفاصها أو جحورها تحدد نسلها بطريقة طبيعية .. لكن المسئول عن ذلك مادة كيميائية خاصة اسمها « فيرومون » ، وهذه تنتشر منها كما تنتشر العطور من نسائنا ، وكلما زادت أعداد اناث الفئران ، كلما زاد تركيز الفيرومون .. وهذا بدوره يؤثر تأثيرا فعالا على اخصاب الفارة ، ويصيبها بالعقم الوقت ، وربما يؤدى ذلك الى اختصار فترة حياتها الخصيبة ، وكأنما الفئران قد حلت مشاكلها ، وتغلبت على تحديد نسلها قبل ان يظهر البشر على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين .

الى هنا يبرز سؤال هام : هل سيؤدى ازدحام البشر على هذا الكوكب الى اختصار الفترات الخصيبة لنسائنا اكثر واكثر ؟

ربما يحدث ذلك ، وربما لا يحدث .. فعلم ذلك عند ربى ، فالامر يحتاج الى الوف من السنين قادمة !

واذا كانت الاحصائيات البيولوجية تؤكد ان المراة اطول عمرا من الرجل لاسباب سنوردها فى حينها ، الا ان هذه الحقيقة تتأكد اكثر اذا نظرنا الى طوفان الحياة ككل ، بداية من الميكروب الى النبات الى الحشرة الى الضفدعة الى الطير الى كل ما يدب على هذا الكوكب من مخلوقات شتى .. بما فى ذلك الانسان .

ونحن لا نستطيع ان نتعرض هنا لكل الوسائل والأساليب التى سارت عليها الحياة لتضع فيها مخلوقاتها تحت اختبارات قاسية لتنتقى الصالح الصامد ، وتقضى على الطالح المتواكل .. الا ان قسوة الحياة قد انصبت اساسا على ذكورها .. وكأنما هى تقدم الذكر قربانا للانثى بوسائل شتى ، ومن أجل هذا نقصت اعداد الذكور ، وزادت الاناث .. أو لو وضعنا ذلك فى احصائية علمية ، لتبين لنا ان الانثى فى عالم النبات والحيوان اطول عمرا من الذكر .. ربما بأضعاف مضاعفة .

الى فصل قادم اذن ، لنعرض مأساتنا نحن معشر الذكور .

الأنثى أولا .. من فضلك !

الحياة لا تهتم كثيرا بالذكر قدر اهتمامها بالانثى !

حقيقة يعرفها العلماء جيدا من خلال دراساتهم الطويلة من بداية الخلق حتى نهايتة . نعنى من الميكروب والاميبا ، الى الشمبانزى والانسان .

وكثيرا ما اسقطت الطبيعة الذكر من حسابها ، واحيانا ما قدمته لنا بصورة ممسوخة تدعو الى الازدراء والاحتقار .. وكانما هى تؤكد ان الانثى هى الاساس ، وانها هى التى نشأت اولا ، ومنها اشتق الذكر بعد ذلك وظهر !

ولو تعمقنا فى جوهر الحياة ، واسس البيولوجيا لوجدنا ان المخلوقات جميعا ليست الا بمثابة مواعين حية لتحتفظ بسر خلود النوع وانتشاره فى الزمان والمكان .. والماعون او الكائن الحى يأتى الى الحياة ضعيفا ، ثم يقوى ويشتد عوده ، ولابد ان يستهلك بعد ذلك ويبلى ويموت .. يستثنى من ذلك الخلايا الجنسية .. فهى دائما تترك مواعينها الفانيةلتتقابل فى عمليات النكاح او التزاوج او التلقيح ، وبعدها تندمج ليأتى من ورائها مواعين او مخلوقات جديدة .. وهكذا تظهر اجيال ، وتروح اخرى !

لكن الماعون الاساسى للحياة يتركز فى الانثى .. فهى التى تستقبل الخلايا الجنسية الذكرية ، وهى المسئولة عن تنشئة الاجنة وحملها وولادتها ورضاعتها ورعايتها ، ولهذا كانت اهم بيولوجيا من الذكر !

وقد يبدو لنا الذكر احيانا وكأنما هو ليس الا اداة حية من ادوات التلقيح ، وبعد ان يؤدى رسالته نحو الحياة ، فلا فائدة من وجوده بعد ذلك ، وقد يتحلل ويموت ، فى حين ان الانثى تبدأ حياتها الحقيقية بعد موت الذكر .

ولقد قدمت لنا الطبيعة امثلة كثيرة ، وكأنما هى تضع النقط فوق الحروف ، وكأنما لسان حالها يقول : فلنشطب الذكر من سجلات الحياة ، ولنبرز الاناث ، ولنهىء لها السبيل فى انتاج ذرية من وراء ذرية دون ان يشارك فيها الذكر بخلية من خلاياه الجنسية ، وكيف يشارك وهو ليس موجودا اساسا فى هذا العالم الغريب الذى ينطوى على مجتمعات كلها حريم فى حريم ؟!

نعم .. ان الانثى تستطيع ان تحمل وترزق بذرية دون ان يمسها ذكر .. اى انها تتوالد عذريا .. بمعنى انها تنجب وهى عذراء ! . ومن هنا اطلق العلماء على مثل هذه الحالات اسم « التوالد العذرى » .. Parthenogenesis (وهذه الكلمة من شقين يونانيين « بارثينوس » بمعنى عذراء وجينيسيس بمعنى توالد .. وهناك معبد البارثينون اى معبد العذارى فى اثينا القديمة .. وقد انشىء فى القرن الخامس قبل الميلاد) !

والتوالد العذرى واسع الانتشار فى رتب كثيرة من مملكة الحيوان ، وخصوصا فى الحيوانات الدنيا مثل براغيث الماء (الدافنيا والسيكلوبس Daphnia & Cyclops) ، وبعض انواع من الديدان والحشرات مثل المن والتربس والنمل والنحل والدبابير .. الخ ، لكن هذا موضوع متشعب وطويل ، ولا يهمنا منه الا ان نعرف ان للذكر دورا ثانويا مع الانثى ، او قد لا يكون له دور على الاطلاق !

فمنذ اكثر من قرنين وربع قرن من الزمان ، وبالتحديد فى عام ١٧٤٠ ، اكتشف هذه الظاهرة المثيرة شاب سويسرى – لم

يتجاوز العشرين من عمره ـ يدعى تشارلز بونيه .. فلقد اخذ انثى من اناث المن الحديثة الولادة وعزلها عن كل ما حولها من ابنـاء او بنات جنسها ، وبعد عشرة ايام اكتشف ـ لدهشتـه ـ ان الانثى قد ولدت « طفلا » .. وفى غضون الواحـد والعشرين يومـا التى تبعت ذلك وضعت الانثى نفسها اكثـر من ٩٥ من ذريتهـا وكتب يصف مولدها « وكلها جاءت حية ، وظهرت الى الوجـود امـام عينى التى فى راسى » !

ولقد اثار هذا الاكتشاف نوعا من النقاش والامتعاض وعـدم التصديق .. فالأجيال لا تأتى ـ كما هو دائمـا معروف ـ الا اذا اجتمع ذكر بأنثى .. دودة كـان ذلك او حشرة او سمكـة او فأرا وارنبا وكلبا وخنزيرا وثعبانـا وانسانا .. الخ ، لكن بونيه استمر فى بحوثه ، واستطاع ان يتوصل الى انتاج عشرة اجيـال متتابعـة دون ان تحدث بينها عملية تلقيح واحدة ، وهنا يقول بونيه « من الصعب حقا ان نبلع هذه الحقيقة .. حقيقة ان هذا الخلف قـد تـم تلقيحه من اجداد اجداد سلفه » ! .. وهـو يعنى بـذلك أن الذكر لـم يكن موجودا اساسا فى الذرية ومن بدايتها !

والواقع ان الاناث قد تتعطف وتنتج بعض الذكور بطريقـة التوالد العذرى ، لكن ذلك يحدث بتوقيت معلوم .. ففى فصلى الربيع والصيف تتوالد الاناث عذريا ، لتعطى اجيـالا كلها انـاث فى اناث .. ودون ان يظهر بينها مخلوق ذكرى واحد .. واخـيرا ـ وبحلول فصل الخريف ـ تنتج ذرية من الاناث والذكور ، ويحدث التزاوج بين هذه وتلك ، وبعدها تضع الاناث بويضاتها على اغصان النبات وبراعمها وتبقى البويضات نائمة حتى حلول الربيع لتفقس وتنتج اناثا تعرف باسم ـ المؤسسة ـ اى التى تؤسس المستعمرات الجديدة بمزيد من الاجيال ، وبعدها تعود الامور سيرتها الاولى .. اى انهـا تلد اجيالا متتابعة من ذرية كلها اناث فى اناث !

وهذا يعنى ان الاناث لا تضع ذكورها الا اذا حلت بها الازمات، وقست عليها الظروف الطبيعية والجوية .. ففى اواخـر الخريف ومع مقدم الشتاء ، تجف النباتـات وتتساقط الاوراق ، وتحـل البرودة ، وتنهمر الامطار ، ولن تتخطى الاناث هذه الازمة الا بانتاج الذكور ، لتتزاوج معها ، وتضع بويضاتها ، وفيهـا تكمن الاجنـة وتنام فى « لفتها » الطبيعية لتصحو مع مقدم الربيـع على هيئـة اناث تلد اجنـة ولا تضع بيضا .. فالبيض لا يأتى الا بالذكور .

وقد تستغنى الاناث كلية عن الذكور لأجيال طويلة متعاقبة اذا ما هيأنا لها الظروف المناسبة ، أو قـد نجعلهـا تسرع بانتاج الذكور اذا ما عرضناها لظروف قاسية .. مثل البرودة او الجفاف او الظـلام او بعض مـواد كيميائية خاصـة « تقرفهـا » ، ومن هذا « القرف » الصناعى تنتج الذكور .. صفعة جديـدة لنا نحن معشر الـذكور !

وتعنى هذه الامور اكثر ان الذكر فى تلك المخلوقـات هـو ابن امـه ، لا ابن ابيـه .. فليس له اب بالمعنى المتوارث فى العقول .. وهذا يؤكد ان الانثى هى الاصل ، وهى الاساس ، وان الذكر مشتق منهـا تحت ظروف سيئة ، واحوال غير مواتية !

تتضح هذه الحقيقة اكثر فى ممالك النمل والنحل .. فالملكة الخصيبة تضع بويضات ملقحة وغير ملقحة .. الملقحة منها تنتج ملكات وشغالة (يتوقف ذلك على نوع الغذاء) .. وغـير الملقحـة تنتج ذكورا .. اى ان الذكر هنا ابن امـه بالتأكيد ، امـا الانثى (الملكة والشغالة) فهى « بنت » ابيها وامها على السـواء (بويضة من الانثى تخصب بحيوان منوى من الذكر) .. اضف الى ذلك دليلا قويا نحصل عليه من حالة ملكة عذراء لم يمسها ذكـر ، وعندئـذ تضع بويضـات لا تنتج الا ذكورا .. كما ان الملكـة فى اخريـات ايامهـا لا تنتج الا ذريـة من الذكور ، والتعليـل الوحيـد لمثـل

هذه الظاهرة ان الملكة قد استنفدت كل ما لديها من ارصدة الحيوانات المنوية التى حصلت عليها من الذكور .. وعندئذ تضع بويضات غير مخصبة ، لتعطى ذكورا ..

ومع ذلك فهناك انواع قليلة من الحشرات لا تعرف عن انتاج الذكور شيئا مذكورا .. من ذلك مثلا الحشرة المعروفة باسم العصا او الغصن الجاف Stick Insect .. فعندما تقف الانثى على نبات جاف ، يصعب تمييزها بالنظرة العابرة .

ولقد قام العلماء بتربية نوع من الانواع فى معاملهم ، وحصلوا منها على مئات الالوف من الاناث التى جاءت فى اجيال متتابعة ، ونادرا ما كانوا يحصلون على ذكر ، وحتى فى هذه الحالات القليلة التى ظهر فيها شبح الذكر ، لم يكن له من فائدة تذكر ، فلا هو يستطيع ان يقوم بعمليات التلقيح ، ولا هو اساسا يمتلك اعضاء جنسية خصيبة .. والظن السائد ان « اشباه » الذكور هذه ليست الاناثا « مسخوطة » على هيئة ذكرية .. ولا فائدة فيها ولا مارب ! .. وهذا يعنى ان النوع يستطيع ان يشق طريقه فى الحياة لملايين السنين دون ما حاجة الى ذكر !

لكن دعنا من كل ذلك ، لنطرح سؤالا هاما : هل من الممكن ان تظهر حالات التوالد العذرى فى الحيوانات العليا ومنها الانسان ؟

الواقع ان الاجابة على هذا السؤال قد يطول شرحها ، وليس هذا مجالها ، ولكن يكفى ان نذكر باختصار بضع حالات غريبة ذكرتها المراجع العلمية .. ولنبدا بحالة انثى الديك الرومى (او الرومية اذا اردت) ، فهذه تستطيع ان تنتج بعض الكتاكيت الرومى دون ان يتدخل الذكر او الديك فى ذلك !

لقد اوضح لنا العالمان اولسين ومارسدين ان نسبة صغيرة من البيض غير المخصب للفراخ الرومى بامكانها ان تفقس وتنتج

كتاكيت تواصل الحياة ، ثم تبعا ذلك بعدة تجارب عزلا فيها عددا من الاناث الصغار عن الذكور ، وبوقت كاف قبل سن البلوغ ، وعندما بلغت الاناث التى لم يمسسها ذكر ، وضعت بيضها غير المخصب ، وتبين بالفحص انه يحتوى على آثار اجنة دقيقة ، وان ٢٧ من ٢٧٨ بيضة موضوعة فى حضانة بدات بالفعل فى تكوين اجنة عادية او شبه عادية ، ولكنها لم تستطع ان تكمل المشوار وتفقس ، ومع ذلك فقد تخطى جنينان من آلاف الاجنة كل العقبات ، وظهرا الى الوجود على هيئة كتكوتين ، ثم واصلا نموهما الى ان صارا ديكين يافعين يتمتعان بالحياة كما تتمتع بها الديوك الاخرى المنسبة الى آباء ، مع فرق واحد ، ذلك ان الديكين اللذين ظهرا الى الوجود بدون اب كانا اصغر قليلا من الديوك المنسبة الى آبائها !

وجذبت هذه الظاهرة الغريبة انتباه العلماء المهتمين بمثل هذه الامور ، وبداوا فى اجراء سلسلة هائلة من التجارب الهادفة ، وتوصلوا الى حقائق مثيرة .. من ذلك مثلا ان نسبة التوالد العذرى فى البيض الذى وضعته فراخ رومية معزولة من ديوكها جنسيا تزيد لوانها سمعت كركرة ذكرها ، ويبدو ان صوت الذكر يثير فيها اليه حنينا وقد يؤثر ذلك على مراكزها العصبية ، وقد تتأثر الغدد تبعا لذلك ، فتجرى فى دمائها هرمونات شتى ، قد تحدث تغييرا فى كيمياء البيض ، وبهذا تزيد فيه نسبة التوالد العذرى !

وفى السنة الماضية فقط اعلن كل من دكتور ادوارد باس ، م . اولسين من جامعة بنسلفانيا بالولايات المتحدة الامريكية ان هناك عاملا خارجيا قد بدا فى التدخل فى اخصاب بيض الفراخ الرومى اخصابا كاذبا ، ومع ذلك فان الاخصاب الكاذب او التوالد العذرى يؤدى الى انتاج اجنة وكتاكيت تنمو نموا عاديا حتى سن البلوغ .. لكن ما هو ذلك العامل الخارجي ؟

ليس بالتأكيد حيوانا منويا ، بل قد يكون فيروسا .. ولقد عرفنا الفيروس فى أمراض كثيرة تصيب النبات والحيوان والانسان .. فمن شلل اطفال الى التهاب فى المخ الى حصبة الى تيفوس الى انفلونزا الى ربما سرطان .. الخ ، وفى حالة الخلايا السرطانية يحدث شيء غريب ، فالخلية العاقلة لا تنقسم الا بحساب، ولا تتكاثر الا بمقدار ، لكن أحيانا قد يحل بها الجنون ، فتنقسم دون ما داع الى هذا الانقسام ، وتخرج بذلك على المجتمع الخلوى الذى فيه تعيش ، ولا تزال تنقسم وتنقسم حتى تنتج ملايين وبلايين الخلايا التى تظهر فى النهاية على هيئة ورم سرطانى مدمر .. ولقد اختلفت الآراء حول الاسباب الكامنة من وراء هذا الانقسام الغريب .. فمن قائل انها عوامل وراثية ، ومن قائل انها مواد كيميائية ، ومن قائل انها جرعات اشعاعية ، ومن قائل انها فيروسات .. الخ

والبويضة فى الطيور او فى الحيوانات الثديية لا تنقسم الا اذا اندمج معها حيوان منوى وخصبها ، لكن أن تنقسم هكذا دون أن يأتيها نصفها الآخر ، فان ذلك يجعلنا ننظر اليها كما ننظر الى خلية سرطانية حل بها الجنون بعامل من العوامل التى ذكرناها او التى لم نذكرها .. لكن جنونها ــ على أية حال ــ لن يكون خطرا ، وسوف يؤدى الى تكوين جنين طبيعى او ممسوخ

لكن يبدو ان اصابة البويضة بفيروس او غيره قد يغنيها عن وجود الذكر او وجود الحيوانات المنوية التى تفرزها الذكور لتخصبها ، ويقوم العالمان المذكوران بالبحث عن سر هذه الظاهرة ــ ظاهرة التوالد العذرى بين الطيور ، وعلى الاخص بين الفراخ الرومى ، فاذا ثبت ان انقسام البويضة من ورائه فيروس ، واذا ثبت ايضا ان هذا الانقسام يؤدى الى تكوين جنين كامل فكتكوت .. اذا ثبت هذا بالفعل ، فان ذلك سيكون بمثابة صفعة هائلة على قفا الذكور ــ نقصد الديوك الرومى .. وربما

صفعات اخرى تتقبلها الذكور التى تنتمى الى انواع ارقى فى التطور من الديوك الرومى !

والواقع ان ظاهرة التوالد العذرى تختفى تدريجيا كلما اكتسب المخلوق أو النوع اجهزة اعقد ، ومخا اكبر ، ووظائف فسيولوجية اكثر تباينا من المخلوقات الدنيا .. فهى فى براغيث الماء والحشرات عادية ، وفى الاسماك محتملة ، وفى البرمائيات (كالضفادع) أقل ، وفى الطيور اقل واقل ، وفى الحيوانات الثديية نادرة ، وفى القرود والانسان اكثر من نادرة أو قد لا توجد على الاطلاق !

هل هناك اذن سخرية اكثر من استغناء البويضة عن حيوانها المنوى ، واستغناء الانثى عن ذكرها ، ليحدث الاخصاب بعامل خارجى قد يكون فيروسا لا نستطيع ان نراه ــ لضآلته ــ الا بالميكروسكوب الاليكترونى ؟ .. وهل يمكن ان يكون مقام الذكر « العظيم » من مقام فيروس حقير ضئيل ليس من ورائه الا المرض والموت والخراب ؟ .. وكيف يصل الهوان بالذكر الى هذا الحد ؟ .. لسنا فى الواقع ندرى ، ولا نستطيع أن نجيب الا كما يجيب رجل الدين الذى يقف على المنبر ويردد بوعى أو بدون وعى قوله المشهور « اللهم هذا حالنا لا يخفى عليك ، وهذا ضعفنا ظاهر بين يديك ، فعاملنا بالاحسان .. اذ الفضل منك واليك » .. وهو لا يدرى أن دعاءه هذا قد يذهب فى الهواء لاننا لو احسنا الى انفسنا، لاحسن الله الينا .. فالله يحب الاقوياء .

وايا كانت الامور ، فبالامكان حث البويضات فى الانواع المختلفة على التكاثر والانقسام وتكوين الانسجة والاعضاء ثم الجنين المتكامل دون أن يكون للذكر او خلاياه الجنسية دخل فى ذلك .. وطرق الحث كثيرة ومتنوعة .. فقد تكون طبيعية مثل رفع درجة الحرارة (صدمة حرارية توقظها من سباتها) او انتزاع نسبة من محتواها المائى (تجفيف نسبى) ، او بتعريضها لعمليات

احتكاك حساسة ، أو معاملتها بجرعات اشعاعية مناسبة .. الخ .. وقد تكون كيميائية كوضعها فى أملاح خاصة ، أو احماض معينة ، أو قلويات محددة التركيز .. الخ ، وقد تكون طرق الحث بعوامل بيولوجية عن طريق فيروسات أو مواد وراثية او بروتينية .. الخ

لكن دعنا نختار نوعا من الحيوانات الثديية التى أجريت على بويضاتها غير الملقحة بعض هذه التجارب .. ولتكن بويضات ارنب أو خنزير ، ولنذكر تلك التجربة التى اجراها العالم بنكاس على عدد من بويضات أرنب حصل عليها من مبايضها مباشرة بواسطة عملية جراحية ، ثم وضعها فى محلول ملحى أو تعريضها لدرجة حرارة ٤٥ درجة مئوية لحثها على النشاط والاستجابة ، واعادها الى رحم ارنب مهيأ لاستقبال هذه البويضات وحضنها وتغذيتها .. ولقد استخدم بنكاس فى هذه التجارب ٦١٥ بويضة غير ملقحة ، واستطاعت ثلاث بويضات فقط بطريق التوالد العذرى ان تنتج ثلاثة أجنة كاملة النمو ، ولقد وضعتها الانثى كمواليد عادية فى الوقت المحدد !

صحيح ان نسبة التوالد العذرى نسبة ضئيلة ، ولكنها بلا شك تفتح طريقا رحبا وعميقا فى ساحة البحث العلمى ، ثم ان مغزى هذه التجربة قد غير المفاهيم التى سيطرت على العقول ردحا طويلا من الزمان .. فلا ولادة بدون ذكر — أو على الاقل بدون خلايا جنسية ، خصوصا فى الحيوانات الثديية .. ولا تنس اننا نحن معشر البشر من الحيوانات الثديية .. أى ان هناك حملا فى الرحم ، ورضاعة لبن من الاثداء .. لا يختلف هذا فى الكلب عن الارنب عن الخنزير عن القرد والحصان والانسان .. فالاساس واحد ، وان اختلفت الاشكال والانواع .

والتجارب فى هذا المجال كثيرة ومتنوعة ، لكن ليس لذكرها هنا مجال ، وعلينا ان نترك الارانب والفئران والكلاب ،

ولنقفز تجاه الانسان ، ولنتساءل : هل يمكن ان يسرى على الانسان ما يسرى على الحيوان من أمور التوالد العذرى ؟

مع حساسية الاجابة بصراحة على هذا التساؤل ، كان لابد ان نعرض وجهة نظر العلم مجردة .. صحيح ان العلم لم يصل الى منتهاه فى هذا المجال ، لكن النتائج الاولية المبنية على أسس بيولوجية تشير الى ان بويضة أنثى الانسان قد لا تشذ على القاعدة .. بمعنى انها لو تعرضت للعوامل التى تتعرض لها بويضات الحيوانات الثديية الاخرى ، فانها قد تستجيب لها ، وتتأثر بها دون مشاكسة أو عناد او مقاومة .. لكن الولوج فى هذه التجارب واجراءها على البشر لم يطرق بجدية الا فى خارج الرحم .. يعنى فى انابيب الاختبار ، فالانسان ليس حيوان تجارب ، لكنه ليس مفصولا عنها فى الاسس الكيميائية والحيوية والفسيولوجية . ولهذا فان ما ينفع فى الحيوان قد ينفع مع الانسان !

الا ان هناك ثمة ظاهرة غريبة لا يعرفها الا العلماء المتخصصون ، وفيها قد تحدث الولادة العذرية عندما تلقح البويضة بحيوان منوى تلقيحا جزئيا او ناقصا او كاذبا (gynogenesis) .. وفى هذه الحالة يدخل الحيوان النوى الى البويضة ، لكنه يموت دون ان يشارك مشاركة فعلية — بتكوينه الوراثى — فى التلقيح والاخصاب ، لكن مجرد ولوجه الى البويضة ثم موته وتخليه عن بعض مكوناته التى تتوزع فى المادة الحية ، يؤدى الى شحذ همة بويضته وحثها على الانقسام والتكاثر .. ولقد تعرض العالم البيولوجى ايفزد يليج لهذا الموضوع الحساس فى عام ١٩١٣ فى بحثه الذى تساءل فيه : « هل يمكن ان يحدث التوالد العذرى فى النوع الانسانى » ؟ .. ولقد بنى هذا التساؤل على عدة تجارب بين فيها انه بالامكان تدمير الحيوانات المنوية جزئيا بمواد كيميائية مثل الكحول او المورفين او الكوكايين او ربما بميكروب

الزهرى .. فاذا دخلت الى البويضة لم تستطع اخصابها ، لكنها تؤدى الى انقسامها وتكاثرها عذريا !

ولقد جذب هذا البحث انتباه العامة والخاصة واثار ثائرتهم ، خصوصا عندما كتب ديليج معلقا « ولما كان احتمال التوالد العذرى فى انثى الانسان ليس مستحيلا ، فان بعض الناس الذين قد يمرون امامنا فى الشارع دون أن نرتاب لحظة فى انهم قد جاءوا من ذكر وانثى ، وانما قد يكون احتمال مجيئهم عن طريق التوالد العذرى قائما دون ان تظهر عليهم اية سمات شاذة .. والطريق الوحيد لاكتشاف ذلك هو وضع تلك الحالات تحت الفحص العلمى فربما ينكشف السر ونصل الى نتيجة لحسم هذا الامر .. ان هذا الامر قد يكون ذات جاذبية خاصة وهو من الوجهة البيولوجية على قدر كبير من الاهمية والاثارة » !

ويضيف ديليج الى ذلك تلك الحالات النادرة للغاية التى يحدث فيها الاتصال الجنسى بين الانسان والحيوان .. والغريب ايضا ان هذه الظاهرة الاخيرة قد تعرض لها فيما بعد العالم البيولوجى ل . بونور واشار فيها الى تلك الحالة الغريبة التى ولدت فيها فتاة من الغجر تبلغ من العمر ١٦ عاما طفلا مشوها وبدون راس وغير مكتمل التكوين فى مستشفى فيشى للولادة بفرنسا .. ولقد كانت الفتاة تعيش فى خيمة واحدة مع والدها وبصحبة قرد من نوع الماكاك .. ومما يذكر أن الفتاة لم تتصل باى انسان غريب ، ولقد انطلقت اشاعة بين العامة الذين يقطنون فى المنطقة التى عاشت فيها الفتاة بأن هناك علاقة آثمة بين البنت وابيها ، ويستبعد بونور حدوث مثل هذه العلاقة التى قامت على اشاعة ليس لها أساس من الصحة ، وهو يميل الى احتمال حدوث علاقة بين الفتاة والقرد ، وعندما « تلوثت » بويضتها بمادة غريبة من الحيوانات المنوية للقرد (اخصاب كاذب) ، بدأت البويضة

تنقسم وتتكاثر عذريا ، وانتهت بمسخة ميتة .. لا هى بشر ، ولا هى قرد !

لكن .. ماذا يعنى كل ذلك ؟ .. وما هى الخلاصة ؟

يعنى انه مادامت الانثى هى الاساس ، فان بويضاتها او خليتها الجنسية هى أيضا الاساس .. بمعنى انها تستطيع أن تؤسس اجيالا ، دون الاعتماد على خلايا جنسية ذكرية ، فى حين ان الذكر لا يستطيع ذلك على الاطلاق .. ونضيف الى ذلك تعليق جين روستاند واندريه تيترى فى كتابهما « علم الحياة » وفيه يذكران « انه لا يوجد مانع ـ نظريا على الاقل ـ فى عدم امكان اخصاب المراة وحملها دون تدخل من الرجل ، وبهذا تستطيع أن تصبح اما فى يوم من الايام ، فى حين أن الرجل لا يمكن أن يكون ابا الا اذا اعتمد على المراة .. ان مبدا عدم المساواة من الناحية البيولوجية (بين الذكر والانثى) ينبع اساسا من عدم المساواة بين حجم الخلية الجنسية الانثوية (البويضة) وحجم الخلية الذكرية (الحيوان المنوى) .. لكن مهما تقدم العلم فى هذا المجال ، فسوف تستمر الذكور فى انتاج خلايا جنسية اصغر ، وعندئذ لا تستطيع الاعتماد على نفسها كما تفعل البويضة فى حياتها .. وهما بذلك يعنيان أن للبويضات امكانات بيولوجية شتى ، ولديها مخزون من الغذاء ، وتمتلك ميكانيكية حيوية وبها تستطيع أن تدوس على الزناد فى الوقت المناسب ، لتنطلق فيها قذيفة الانقسام والتكاثر بهدف أو بغير هدف (اى تعطى اجنة سوية او ممسوخة) لكن الخلية الجنسية الذكرية عاجزة عن مجاراتها فى هذا المضمار ، ومن هنا كان لابد أن يعقد لواء السيادة البيولوجية للانثى وبويضاتها ، ولتأت الذكر وحيواناته المنوية بعد ذلك فى المرتبة الثانية !

اضف الى ذلك أن بعض العلماء يذهبون فى تصوراتهم الى

ابعد من هذا ، فهم يتوقعون مزيدا من الكشوفات فى المستقبل ، وهذه قد تميط اللثام عن مزيد من الاسرار ، وعندما يتقن الانسان علومه ، ويصقل معلوماته وادواته واجهزته ، فانه قد يتوصل فى المستقبل القريب أو البعيد الى معاملة بويضة انثى الانسان بالطرق التى تعامل بها بويضات الحيوانات الاخرى لحثها على الانقسام ، وبعدها تزرع فى رحم المراة ، وتسحب غذاءها ، وتتكاثر وتنمو وتتشكل على هيئة جنين قد يشبه الانثى تماما او قد لا يشبهها ، لسنا فى الواقع ندرى ، لكن الذى ندريه أن قوانين الوراثة قد تقف عائقا ضد هذه الذرية التى لم تات عن الطريق الشرعى او التقليدى .. وقد يتغلب العلماء على العوائق بأفكار اخرى اكثر تطورا من افكارنا الحالية .. وما اكثر ما فى جعبة العلماء من افكار او « سهام » علمية تنطلق فى كل آن وحين ، بعضها قد يصيب ، وبعضها قد يخيب ، كل ذلك مرهون بسعيهم الجاد فى هذه السبيل !

فاليوم لا شك أرنب ، وغدا انسان .. بمعنى ان التجارب التى نجريها الان على الارانب والخنازير والفئران وتؤدى الى نسبة من النجاح (كأرنب بنكاس الذى سبق ان قدمناه واستطاع ان يحصل على ثلاثة اجنة بطريق التوالد العذرى) ، قد يمكن اجراؤها فى المستقبل على أنثى انسان ، ودون ان يتدخل الذكر فى ذلك على الاطلاق !

وفى زماننا هذا تستطيع المراة (أو ربما الفتاة) أن تحمل وتلد دون ان يمسها ذكر .. لكن حملها لن يكون بالتأكيد عن طريق جن او عفاريت او « بساط الريح » او غير ذلك من الخرافات التى تخرج بها علينا الصحف لتحدث نكسة فى الفكر ، وردة فى العلم ، بل يأتى حملها عن طريق التلقيح الصناعى ، اذ يكفى ـ لو ارادت المراة ـ ان تستقبل جرعة من الحيوانات المنوية فى الوقت المناسب ليتم التلقيح والحمل .. صحيح انها لم تتصل بذكر من

الذكور ، الا ان هذا ليس هاما .. ذلك ان عملية النكاح او الاتصال الجنسى ـ المباشر وغير المباشر ـ وسيلة لا غاية . فالغاية او المراد ان تتقابل الخلايا الجنسية وتتحد ، سواء كان ذلك فى انبوبة اختبار او فى رحم انثى ، ولهذا فهو يختلف عن بيولوجية التوالد العذرى اختلافا جوهريا ـ فالتوالد العذرى ـ كما سبق ان قدمنا ـ يتم عن طريق بويضة لم تتلقح ولم تتقابل بخلية جنسية ذكرية !

لكن التلقيح الصناعى ـ للاسف ـ قد ركن الذكر على الرف ، فمن الممكن « حلب » خلاياه الجنسية وحفظها فى كبسولات خاصة لتوزيعها على من يشئن من الاناث .. وقد تكون هذه الخلايا الجنسية لثور عظيم فى اسوان ، او حصان متين فى الشرقية ، او كبش ذى صفات وراثية محمودة فى « زريبة » باسيوط .. الخ ، ولكى تلقح بقرة فى لندن ، او فرسة بباريس ، او نعجة فى موسكو ، فان ذلك لا يستوجب شحن الذكور الى جميع انحاء العالم بالطائرات او الصواريخ او غير ذلك من سبل المواصلات .. بل يكفى ان تأخذ عدة قطرات من الحيوانات المنوية للذكور ، ونحتفظ بها تحت ظروف خاصة ، ونصدرها لمن يشاء ، ونبعث بها لمن يريد .. أو قد يحدث ذلك أيضا مع الانسان ، فقد ترفض الزوجة السفر الى زوجها فى بلاد « واق الواق » على سبيل المثال ، لانها لا تحب ان تعيش معه فى هذه البلاد ، وهى تريد ان تكون اما ، عندئذ قد يرسل لها طردا صغيرا به بعض خلاياه الجنسية ، وبه يتم المراد ، وتأتى الذرية ، لكن ليس من الممكن ان يحدث العكس ، بمعنى أن ترسل الانثى بويضتها الى ذكرها ليحملها ويرعاها ويلقحها ، لان الرجال لا يمكن أن يصيروا حبالى بالاجنة ، لكن احيانا ما تراهم كالحبالى ، وما هم بحبالى ، ولكن اذلال الانثى لشديد !

من انثى الى ذكر .. وبالعكس !

على ان اغرب الصور التى اكتشفها العلماء حديثا توضح لنا جزءا هاما من سلوك الحياة مع اناثها ، وتحيزها لها تحيزا مكشوفا ، بحيث يصبح المخلوق الذكر بين يديها لعبة « كلعبة الستات » فى عالمنا .. او ربما اكثر اثارة وشذوذا .. فالانثى التى سنقدمها هنا قد تتحول الى ذكر تارة ، ثم قد تعود سيرتها الاولى وتتحول الى انثى تارة اخرى .. كل هذا يعتمد على الظروف « النفسية » التى تتعرض لها فى حياتها .. صحيح انه لا يوجد فى عالمها طبيب نفسانى ، او جراح ليجرى لها عملية جراحية ، وبها يتحول جنسها من انثى الى ذكر ، الا ان الصحيح يبدو لنا فى تلك الميكانيكية الحيوية التى زودتها بها الحياة ، فتدوس على « الزرار » ، ويكون لها ما تريد ، والى هنا تتضح لنا الحقيقة دون لف او غلبة او دوران .. فالانثى هى الاساس ، والذكر يأتى بعد ذلك ، ومنها يخرج ، وليؤكد لنا أن تحت جلد كل ذكر انثى كامنة .. وربما ظهر هذا الكمون الانثوى بعد ملايين السنين تحت جلد بعض فتيان هذا الزمان ، فتراهم وقد فضلوا التحلى ببعض صفات الانثى .. لكن دعنا من هذا الآن ، وسنعود اليه فيما بعد لنوفيه حقه ، وان كان موضوعنا الذى سنقدمه هنا يلقى الضوء على بعض ما يجرى عند فتياننا ، ولكن بطريقة معكوسة !

يذكر دكتور روس روبرتسون من جامعة كوينزلاند باستراليا ، حقائق غريبة عن بعض أنواع الاسماك التى تعيش فى مجموعات صغيرة ، فلقد خرج منها بنتائج مثيرة بعد أن ظل يرقب ويدرس ويتأمل سلوكها الذى يؤدى احيانا الى تحويل الانثى الى ذكر !

ولناخذ منها النوع المعروف باسم سمك الراس The wrasse او اللبروس .. واحيانا ما يطلق عليها اسم سمكة النظافة او المنظفة ، لانها تنظف جلود الاسماك الاخرى الكبيرة ، وتدخل الى افواهها ، وتتجول بين خياشيمها ، وتلتقط منها الحيوانات الطفيلية الصغيرة او بقايا الطعام ، او بعض الانسجة الميتة ، وتتغذى عليها ، ومن هنا نشأت بين سمكة النظافة الصغيرة وبين بعض الاسماك الكبيرة علاقة منفعة متبادلة ، فالصغيرة اذا دخلت فم الكبيرة ، فان الكبيرة تحافظ عليها ، او قد تحميها من مطاردة عدو اكبر منها واقوى ، مقابل ان تقوم الصغيرة بدور « الماشطة » او الممرضة او المنظفة !

وسمكة النظافة رقيقة الحجم جميلة الالوان ، ولا يزيد طولها من عشرة سنتيمترات ، وتعيش فى مجموعات يتراوح عددها ما بين ٨ ــ ١٠ اسماك ، ويصحبها دائما ذكر وحيد مشاكس ، وقد تؤدى مشاكسته الى قصف عمره .. فحياة البحار خطرة ، ولا بد لكل مخلوق ان يأخذ حذره ، فالكبير هناك يأكل الصغير .. وصاحبنا الذكر يريد ان يحمى « حريمه » الثمانى او التسع او العشر ، وعليه ان يقوم بالدفاع عنها ، ولهذا تراه يدور حولها ليثبت لها انه نعم الذكر حامى الحمى ، وقد تقوم المعارك بينه وبين الذكور الاخرى ، او بينه وبين اكبر انثى .. وهذه تتصرف كما تتصرف « المعلمة » من النساء التى تتشبه بخصال الرجال ، وسوف يتضح لنا ذلك فيما بعد !

لكن الظاهرة الغريبة حقا فى هذه المجموعات الصغيرة تتركز فى « المركز الاجتماعى » الذى تحتله كل انثى .. فهناك تدرج فى الحجم والعمر بين الاناث .. فالحجم الصغير دليل على حداثة السن ، والمتوسط على وسطه ، والكبير على الكبر .. ولكل سن احترامها ، وقد تضحكون او تمتعضون من هذا التعبير ، او قد تتساءلون : هل يمكن ان يحدث ذلك فى مجتمعات سمكية لا تدرك ولا تعقل ، فيحترم صغيرها كبيرها ؟

وتلك هى عقدتنا نحن معشر البشر .. فلقـد نظمت الامـور بين مخلوقات هذا الكوكب اعظـم تنظيـم ، حتى قبـل ان نظهـر نحن بعشرات الملايين من السنين ، والواقـع ان الانثى الكبيـرة فى المجموعـة ـ اى اكبرها حجما وسنا ـ هى سيدة الموقف ، لكنهـا قد توحى بطريقة غامضة للذكـر بانـه مخلـوق مهـم وشجـاع « وراجل » فى المواقف التى تسحق التضحية ، وعلى هذا الذكـر تقع مسئولية حماية الحريـم ، فاذا تعـرضت حياتـه للخطـر او مات ، فالى الجحيم .. فمن ورائه ذكر فى انثى ، او انثى فى ذكر .. لسنا فى الواقع نـدرى ، لكن الـذى ندريـه ان اكبـر الانـاث سنا وحجمـا تصبح الحاكمـة والمسيطـرة والحاميـة لمجموعـة الاناث .. ولكى تعقد لها السيادة الحقيقية ، فلابد ان تتحـول الى ذكر .. وللذكر مهام جديدة تختلف عن مهـام الانثى .. اى عليـه ان يدافع ويحمى ويصول ويجول ويظهر عضلاتـه أمـام الـذكور الاخرى التى قد تسول لها نفسها ان تعتدى على حريمه ، وهـو ـ اى الذكر ـ يفضل الموت او التحول الى انثى على ان يحنى راسـه لذكر آخر يعيش معه فى أرضه ومع اناثـه .. كرامة نادرة لذكـر سمك لا يدرك ولا يعقل ، وما اكثر ما تمتهن كرامات البشر !

لكن .. من الذى سيقوم بتلقيح الاناث فى غياب الذكر ؟

لا تحمل لذلك همـا .. فالانثى التى تحـولت الى ذكـر ستتكفل بالعملية .. وبما افضل من الذكر الذى جاءتـه مصيبـة فانتقل الى رحمة مولاه !

كيف ذلك يـكون ؟

ان الذكر هنا يشبه فى الشكل والحجم واللـون اكبر الانـاث واضخمها حجما ، بحيث يصعب عليك ان تميز الذكر من الانثى ، اللهم الا اذا لاحظت سلوك هذا او تلك ، وعندئـذ سترى الذكـر

وقد خلـع على نفسه مظهر الشقاوة ، وسمات الاقدام والجسارة، وحبه للسيادة .. أما بين حريمه ، وأما على الذكور الاخرى التى قـد تدخل فى مجالـه .. أى انـه يظهر عضلاتـه كمـا يظهرهـا ذكور الحيوان والبشر !

لكن هذا الذكر ، الذى كان من قبل انثى وتحول الى ذكر ، قد يأتيه من هو اقوى منه واشد ، فيخلعه من كرسى الرياسة ، وينتزع منه السيادة ، وعندئـذ لابد ان يتخلى عن ثوب « الرجولة » الكاذب ، ويدخل من جديد فى عالم الحريـم ، ويعود الى انوثتـه ، فيحمـل البيض ، ويضع الذريـة .. وكما بـدأ عاد !

والواقع ان سلوك هذه المجتمعات معقدة اشد التعقيد ، ولقد وضعت العلماء المهتمين فى حيص بيص ، فما هو الهـدف الحقيقى من هذا التغيير والتبديـل ؟ .. وكيف يتـم بمثل هـذه البساطـة دون جراحـة وتخدير ومستشفيات ودواء واتعاب ؟

الاجابة على السؤال الاخير قد اتضحت من تشريح الاعضـاء الجنسية لهذه الاسماك ، اذ تبين ان الانـاث تحمـل فى تكوينهـا غددا جنسية ذكرية ضامرة ، اى انهـا اسماك خنثى ، لكن انوثتها هى السائدة بدليـل انهـا تحمل مبايض كاملة التكـوين ، ولهـا جهـاز لوضع البيض وتلقيحـه ، كما انهـا تدخـل مع الذكـر فى عمليات اخصاب جنسيـة .. وكلما تقدمت الانثى فى العمر ، كلمـا ظهرت عليها علامات الذكورة ظاهرا .. لا باطنا ، بمعنى انها تسلك سلوك الذكر فى حركاتـه وشقاوتـه وحبه للسيادة ، وقـد تنافسه فى الرياسة ، ويحـاول « السيـد » ان يصـد « السيـدة » عن تطلعاتهـا « البرجوازية » ، فتظهر العنـاد ، وتدخل معه فى عمليات نزال .. وقد تخسر الانثى المحنكـة المعركة ، فتبقى على حالها ، وقد تكسبها ، ويخسرها الذكر .. وعندئـذ يتحـول من خسر الى انثى ، ومن كسب الى ذكر ، اى انـه فى الوقت نفسـه تتحول الانثى

الى ذكر ، والذكر الى انثى .. وسرعان ما تتولى الانثى التى اصبحت ذكرا امور الحريم والدفاع عن حرمات البيت من الفضوليين فى غضون ساعات قليلة .. والواقع انها مارست تلك السيادة ، وعركتها عندما كانت تدخل فى صراع مع الذكر الذى كان يحكم ، ولهذا لن تجد صعوبة فى ادارة دفة مجتمعها الصغير ، ولها من قوتها خير سند ومعين ، وليوفقها الله فى ادارة عالم الحريم .. فكل من فيه يتطلع الى منصب الذكورة والسيادة .. « ولا احد خير من احد » .

فاذا تركنا عالم السيادة ، ودخلنا الى عالم الجنس ، لوجدنا ان الغدد الجنسية الذكرية الضامرة التى كانت فى الانثى قد بدات تنمو ، فى حين ان الغدد الجنسية الانثوية التى كانت ذات يوم خصيبة قد اخذت تضمر بالتدريج .. وبعد حوالى اسبوعين او ثلاثة تبدا فى افراز حيواناتها المنوية ، وتكون بهذا ذكرا كامل التكوين ، قادرا على الاخصاب !

وقد يموت هذا الذكر الذى كان انثى ، او قد تاكله سمكة اخرى ، وعندئذ يخلو الميدان لاكبر الاناث واقواها ، وتتولى بهذه امور الزعامة ، فتضمر غددها الانثوية ، وتزدهر الذكرية وتصبح ذكرا قادرا على التلقيح والاخصاب ، وقد ياتيه ذكر متشرد من خارج ارضه ، فيستولى على حريمه ، وعندئذ يعود الذكر الذى كان انثى .. الى انثى ، فهذا خير وابقى !

ارايت اذن مجتمعات اغرب من هذه المجتمعات ؟!

لكن الشىء المثير هنا ان تعريفنا للذكر هنا تعريف نسبى .. اذ لو تعمقت فى النظرة الى مثل هذه الامور لوجدت أن الانثى هى الاساس ، وان الذكر ياتى فى مرحلة متاخرة ، او كما يعبر عنها روبرتسون فيقول « يبدو أن كل الذكور مشتقة من الاناث » .. او بمعنى أوضح نقول : ان الذرية الناتجة كانت كلها ــ فى البداية

اناثا فى اناث ، ولابد أن تمارس أنوثتها أولا ، وتضيف الى هذه المجتمعات مزيدا من الذرية (أى ذرية الاناث) ، وعندما ترتفع درجاتها فى المجموعة ، وتحس بقوتها وسلطانها ، فلا مانع من السماح لها بالدخول الى عالم الذكور .. وقد يكون فى ذلك حتفها ، فتاتيها مصيبة تقصف عمرها اثناء الدفاع عن ارضها وحريمها !

ويبدو ان هذا الصراع الطبقى الجنسى ليس الا مظهرا من مظاهر الاختيار الطبيعى .. فالقوى هو الذى يسود ، ولابد ان يتحول الى ذكر ، ليورث قوته وعناده الى الاجيال القادمة ، فتقوى شوكتها ، ويشتد عود نوعها .. « ولكن اكثر الناس لا يفقهون »

ومع ان اسماك الراس او النظافة قد حلت مشاكلها الجنسية ، الا ان المشكلة الحقيقية ــ او ربما لا تكون مشكلة على الاطلاق ــ هى التى تجابه نوعين من الاسماك يعيشان بالقرب من سواحل المكسيك ، ولقد ظل جاك شلتز من جامعة كونيكتيكات يرقب سلوك هذه الاسماك ، ويدرس تحركاتها ، ويعيش سنوات طويلة مع مجتمعاتها ، حتى توصل الى سر غريب نشره فى العام الماضى فقط ، وفيه يذكر ان النوعين (وهما المولى وبيسيليوبسيس) لا يعرفان شيئا عن عالم الذكور ، ولا ينجبان فى ذرياتهما ذكرا واحدا ، واذا ارادا اخصابا ، فانهما يسطوان على ذكور جماعات اخرى من الاسماك قريبة الشبه بنوعهما ، ويخطفان ذكرا او اكثر ، ويحتجزانه ، ليلقح بويضاتها ، ثم يخليان سبيله بعد ان ينالا ما يحقق رغبتهما فى ذرية تاتى كلها اناثا فى اناث !

صحيح ان اتصال الذكر بالانثى يؤدى غالبا الى ذرية من ذكور واناث ، لكن هذين النوعين قد ضربا بقوانين الوراثة التى نعرفها عرض الحائط .. الا اننا لو عرفنا السبب ، لبطل العجب .. او ربما زاد عجبنا ونحن نكتشف كل عام اسرارا ما كانت لتخطر لنا على بال ، ثم انها قد تنير لنا الطريق لبحوث اكثر عمقا !

لماذا اذن حلت لعنة هذين النوعين من الاناث بالذكر ؟ .. هل هما عدوان للذكور كارهان لها ، فشطبا خلفتها من ذرياتهما ؟ .. ثم اذا كانا فى حاجة الى ذكر لاخصاب بويضاتهما ، فلماذا لا ينتجانه بدلا من السطو على ذكور الأنواع الاخرى وخطفها ؟

الواقع أن السر اعمق من ذلك بكثير . فالاخصاب هنا اخصاب كاذب .. بمعنى أن الخلايا الجنسية لهذه الذكور لا تشارك مشاركة فعالة فى عمليات التلقيح ، اذ لو شاركت ، لأنتجت ذرية من الذكور والاناث !

كانما السر يزداد غموضا ، وما هو ـ فى الواقع ـ كذلك ، فلقد سبق أن ذكرنا ان التوالد العذرى قد ينشأ فى البويضات غير الملقحة عندما تتعرض لعوامل طبيعية وكيميائية وبيولوجية لتحثها على التكاثر ، وعندئذ تبدأ فى الانقسام والتكاثر دون تدخل الذكور فى ذلك ، والشىء نفسه يحدث مع بويضات هذين النوعين من الأسماك ؛ فالحيوان المنوى للذكر المخطوف لا يقوم بالتلقيح التقليدى ، ولكنه يدخل البويضة كعامل بيولوجى ليطلق فيها القذيفة الحيوية ويستحثها على التكاثر ، وفعلا تبدأ فى الانقسام والتكاثر لتتكون منها الاجنة والمواليد التى تحمل صفات الانثى ، ولا تحمل شيئا من صفات الذكر .. اى انها بالتأكيد بنات امهاتها ، وليس للذكر فى ذلك نصيب ، ومن هنا كان لابد أن تأتى الذرية كلها اناثا فى اناث !

وهكذا يتبين لنا أن ما كان يقوم به العلماء فى معاملهم لحث البويضات على التوالد العذرى ، قد اصبح له فى الطبيعة قرين ، ولقد اعطتنا الاسماك هذا الدليل العظيم ، ولا جديد تحت الشمس ـ كما يقولون

الانثى أولا من فضلك ، وليأت الذكر بعد ذلك او فليذهب الى الجحيم !

مأساة الذكور

فليسقط الذكر .. ولتحيا الانثى !

شعار جديد من الشعارات التى رفعت الحياة لواءها ، لتقدم لنا صورا غريبة من المآسى التى تتعرض لها الذكور ، ولتجعلها سخرية أمام اناث العالمين !

ولكى نوضح معنى ذلك ، دعنا نبدأ اولا بأنفسنا .. ليس على مستوى الفتى والفتاة ، او المراة والرجل ، او الذكر والانثى عموما .. لكن على مستوى خلايانا الجنسية !

فاذا كان عالم الذكور « بريالة » .. فان عالمها الصغير بذيول !

فما ان تظهر مفاتن الانثى امامنا ، حتى يسيل لها لعابنا ، فتشتعل الغدد ، ويشتعل الجنس ، وغالبا ما نضعف ونستجيب « الا من رحم ربى » .. وهنا تبدو لنا المراة كمخلوق جميل وبديع وجذاب ، او كانما هى جنة الحب ، وفردوس السعادة ، فاذا ما دخلناها ، زهدنا فيها ، ولكن بعد أن تنساب منا خلايانا الجنسية ، فيتحول كل شىء فى لحظات .. الرغبة القوية الى جمود ، والحب الى خمود ، والايجابية الى سلبية ، وقد نلعن انفسنا على « هبالتنا » ، وقد نرثى لحالنا ، ونتعجب كيف سالت « ريالتنا » ، وجرى لعابنا .. لكن هكذا شاءت الحياة وقدرت ، ومن وراء ذلك هرمون عجيب يقلب كياننا ، ويجعل الانثى حلوة فى اعيننا ، ولهدف عظيم يتركز فى لقاء بين خلايانا وخلاياها الجنسية، وليكون فى ذلك استمرار النوع وازدهاره عن طريق انجاب مزيد من الذرية !

لكن يبدو ان فى الامر « خيارا وفقوسا » حتى لو كان ذلك على مستوى الخلايا الجنسية .. فالخيار هو بويضة الانثى ، والفقوس هى خلايانا الجنسية الذكرية ، أو حيواناتنا المنوية التى نطلقها بمئات الملايين ، فتموت دون حس أو خبر ، فى حين أن بويضة الانثى اذا ماتت دون تلقيح ، أقيم لموتها مهرجان دموى حزين ، قد يستمر لأيام أربعة أو خمسة ، أو ما فوق ذلك أو دون ذلك ، وهذا ما نعرفه بالطمث أو الدورة الشهرية عند الانثى .

كأنما خلايانا الجنسية رخيصة ، وخلايا الاناث ثمينة .. نحن نسرف ، وهن المقتصدات (ربما كان هذا هو الشىء الوحيد الذى تقتصد فيه الانثى وتقتر) .. ذلك أن الانثى تفرز – فى أغلب الاحيان – بويضة واحدة فى الشهر الواحد يقابلها عشرات البلايين من الخلايا الذكرية شهريا .. ذلك ان الذكر منا يقذف فى المرة الواحدة حوالى ٢٥٠ مليون خلية جنسية .. قدرها بعد ذلك فى شهر كامل ، تخرج بأرقام هائلة تزيد كلما زادت فحولة الذكر ، وهذا يعنى أن الاسراف قد كتب علينا ، وكان التقتير من نصيبهن .

لكن الاحداث التى تجرى فى عالمنا الكبير – عالم الافراد ، هى نفس الاحداث التى تجرى بين بويضة وحيوان منوى فى عالمها الصغير .. وان اختلفت بعض التفاصيل !

فالذكر منا هو الذى يسعى غالبا الى الانثى ، وهو الذى يبحث عنها بوسائله الخاصة ، وهو الذى يتودد اليها ، ويسيل لعابه عليها .. وكذلك يفعل الذكر الصغير – اى الحيوان المنوى الذى جاء الى الحياة برأس وذيل .. وغريب أن تكون بداياتنا نحن معشر الذكور بذيول .. فالحيوان المنوى هو ممثلنا الشخصى ، وهو الذى يحمل صفاتنا الوراثية فى رأسه ، اما الذنب او الذيل فهو الذى يحركه ، ليبحث بدوره عن انثاه

الصغيرة .. عن بويضته الكامنة فى خدرها أو عشها الصغير .. وهى لا تخرج من بيتها (أى من المبيض) هكذا اعتباطا كما هو الحال فى خلايانا الجنسية نحن معشر الذكور ، بل نراها وكأنما هى تخرج على استحياء ، ثم تحاط بعد ذلك بصويحباتها التى تتمثل لنا فى خلايا أخرى صغيرة يطلق عليها اسم خلايا التاج او التتويج ، ويعنى هذا انها قد جاءت الى الحياة معززة مكرمة ، تماما كما تخرج العروس من بيت اهلها ايضا معززة مكرمة ، ثم نراها ترفل بين صويحباتها فى ثياب زفافها !

وتبدأ رحلة عروسنا الصغيرة من مبيضها بطيئة للغاية .. فهى لا تجرى ولا تتهافت على عريسها أو عرسانها – كما يفعل ملايين المهابيل من ذوى الذيول .. فعلى هؤلاء ان يضربوا بذيولهم ، وان يجروا فى سباق مرير ، وكل حيوان منوى يمنى نفسه بلقاء الحبيبة ، ولينطلق فى رحلته ليكون اول الواصلين ، وكأنما هو الاخر « بريالة » كأى فرد فى عالم الذكور الكبار !

ويبدو ان الحياة قد وضعت قانونا أزليا للتنافس بين المخلوقات ، حتى ولو كان ذلك على مستوى الخلايا الجنسية ، وكأنما قصة ملكة النحل تتكرر مرة أخرى ، فلقد قدمت لها الحياة مئات الذكور ، ولن يصيبها منهم الا واحد ، اما البقية فالى الموت والجحيم .. وكذلك تكون بويضة انثى الانسان والحيوان ، فمن أجل خاطرها انسابت مئات الملايين من خلايانا الجنسية ، وهى تنتظر منها حيوانا منويا واحدا ، فاذا وصل وسمحت له بالدخول ، اسرعت بغلق الابواب فى وجه الملايين ، وليذهبوا ايضا الى الجحيم ، فلا شك ان الذى وصل اولا هو اقواها واشدها ، وهو الذى عرف الطريق الى قلبها ، ولهذا فهى حلال عليه ، وحرام على الآخرين وجميل جدا الا تقبل بويضاتنا الا ذكرا واحدا ففيه الكفاية ، والا كانت الفوضى ، وما اكثر الفوضى التى يعيش فيها اصحاب العقول !

لكن .. لماذا هذا الاسراف فى خلايانا نحن معشر الذكور ؟

لأن هناك متاهات كثيرة فى الداخل .. فحجم رحم الانثى بالنسبة لحجم الحيوان المنوى كحجم انسان بالنسبة لمدينة كبيرة .. وقد تكون فى هذه المدينة انثى وحيدة مختبئة فى مكان امين ، وهى لا تريد أن تظهر على الرجال ، وكلما كثر عددهم ، وانتشروا فى المدينة طولا وعرضا ، كلما كانت الفرصة متاحة فى العثور عليها فى وقت قصير .. وكذلك تكون البويضة فى داخل الانثى .. فعمرها لا يتجاوز ٤٨ ساعة ، ولابد ان تنطلق الملايين من خلايانا الجنسية لتبحث عنها فى تلك المتاهات ، حتى تهتدى اليها قبل أن تموت .. وكلما كثر العدد ، كان الاخصاب أكثر احتمالا .. ومن هنا كانت الحكمة فى افراز اعداد هائلة من خلايانا .. اذ لو اطلعت عليها وهى تسبح بذيولها ، لوجدت مهرجانا راقصا يندفع هنا وهناك ، وكأنما الدنيا قد دانت لهم ، أو كأنما قد خرجوا من ضيق الى فرج ، وانطلقوا نحو هدف محدد .. فاما موت ، واما حياة !

وحول البويضة تطوف حيواناتنا المنوية ، والكل يتنافس ليقبل « أعتابها » ، علها تسمح له بالدخول ، ولكنها لا ترق ولا تحن ، وكأنما هى وضعت على جدارها اعلانا غير مكتوب يقول « ممنوع الدخول » .. فلقد قبلت اول الواصلين ، وغلقت دون غيره الابواب !

لكن دخول عريسنا الصغير بعروسه البويضة ليس بالسهولة او السذاجة التى يدخل بها البشر على عرائسهم .. فهناك سلسلة من الاحداث البيولوجية الهامة التى يجب ان تتم بين البويضة والحيوان المنوى .. اهمها ـ بطبيعة الحال ـ ان يبرز حيواننا المنوى « بطاقته الشخصية » التى يحملها على عمامته او قلنسوته او « لبدته » او طاقيته .. تعددت الاسماء ، والشىء واحد !

لكن .. اية عمامة او طاقية تلك التى يلبسها حيواننا المنوى ؟ .. ومن اين يحصل على بطاقته التى يثبت بها شخصيته لعروسه حتى تتكرم وتسمح له بالدخول ؟

الواقع اننا لسنا وحدنا على هذا الكوكب .. فالذين يدرسون ويتعمقون فى اصول الخلق ، تتجلى لهم العظمة الحقيقية فيما خلق الله فأبدع ، وفيما سوى فأتقن ، ليجىء كل شىء الى الحياة على حسب خطط موضوعة ، واسس موزونة ، فلا نرى فيها خللا ولا فروجا .. وهكذا يتبين لنا ولكم « انا كل شىء خلقناه بقدر »

فالبطاقات الشخصية التى تمتلكها الخلايا الجنسية ليست مكتوبة بحبر ، ولا مخطوطة على ورق ، ولكنها معلومات مسجلة بمركبات كيميائية خاصة لتتداخل مع بعضها بطريقة فذة ، فتؤدى الى نسيج كيميائى بديع ودقيق تتفاوت طبيعته، ويختلف تنظيمه على حسب نوع المخلوق الذى يفرز من خلاياه الجنسية ما يشاء ، ليطلقها فى الهواء او الماء او الطين او فى رحم انثى ، كما هو الحال فى الحيوانات الثديية التى ننتمى اليها !

صحيح اننا نحن معشر البشر نعرف تماما كيف نفرق بين الذكر والأنثى فى عالمنا ، فمجرد همسة تلتقطها الاذن من بعيد توضح لنا ان كان صاحبها ذكرا او انثى .. كذلك يعرف القرد قردته ، والحمار حمارته ، والكبش نعجته ، والحصان فرسته ، والخنزير خنزيرته .. الخ ، لكن هناك عالما آخر لا يرى ولا يسمع ولا يتكلم ثم هو ايضا يطلق خلاياه الجنسية فى الماء او الطين ، لتهيم على وجهها ، باحثة عن بويضاتها .. لكن البويضة قد تستقبل حيوانا منويا شاردا لا ينتمى لنوعها (كما يحدث مثلا فى الكائنات البحرية والمائية التى تطلق خلاياها الجنسية فى الماء) فتصده وتمنعه من الدخول ، فى حين انها

تتعرف على « عريسها » من خلال بصماته الكيميائية المنسوجة على جداره ، والتى تتوافق تماما مع بصماتها ، وهنا يحدث التفاهم والانسجام والدخول دون ضجة أو غلبة أو ضوضاء .. وهكذا نظم الخالق الامور العظيمة لكل المخلوقات ـ صغيرها وكبيرها ، وجعل بينها لغة كيميائية تتفاهم بها ، وكانما هى شفرات سرية لا نعرف من مضمونها الا اقل القليل .. فالظاهر غير الباطن ، « ولكن أكثر الناس لا يعلمون » !

فلو ان الحيوان المنوى لانسان ، قد تقابل فى انبوبة اختبار مع بويضة انثى قرد او حمار ، لما سمحت له يالولوج وكانما لسان حالها يقول « لست انت من نوعى ، ولا أنا من نوعك ، وخير لك أن تنطلق لتبحث لك عن بويضة من نفس ملتك .. قضى الامر ، واوصدت الابواب فى وجهك . هذا يحدث بالرغم ان ذلك العالم الصغير من الخلايا الجنسية (الممثلة للذكور والاناث فى عالمها الكبير) لا تعرف شيئا عن معنى « نظرة .. فابتسامة .. فسلام .. فكلام .. فحب .. فمأذون * . فزواج .. فانسجام او خصام » .. الخ ، ومع ذلك فهى المسئولة اولا واخيرا عن انتاج « سبيكة » جديدة من الذرية ، بعملية خلط بين صفات وراثية مسجلة فى داخلها بشفرات كيميائية !

وعندما يحدث اللقاء بين الخلية الذكرية والانثوية فى عالم الانسان والحيوان ، تبدأ سلسلة من الأحداث الهامة .. فلقد جاءت العروس الصغير أو البويضة العذراء الى الحياة وهى تدثر نفسها برداء من فوق رداء من فوق رداء .. اردية ثلاثة تحافظ بها

(*) المأذون هنا ليس عنصراً بيولوجيا هاماً . . فن الميسور جداً أن يتحد الحيوان المنوى بالبويضة فى الرحم أو فى أنبوبة الاختبار دون أن يستأذننا المأذون أو القس أوالحبر فى ذلك . . فمهمة المأذون هنا أن يشهر النكاح على الملأ على حسب الشريعة . . وكل جماعة وشريعتها فى ذلك .

على مكوناتها الداخلية .. وكل رداء مطرز بجزيئات كيميائية مختلفة ، وكانما بويضتنا كحواء الكبيرة ، تهوى الملبس ، وتحب الاقتناء ، الا أن الاردية الثلاثة لبويضتنا تبدو للعقل البشرى بمثابة ظلمات ثلاث .. لأن حياكتها وتطريزها بجزيئات كيميائية تتخذ انماطا لا تستطيع عيوننا او عيون ميكروسكوباتنا ان تراها على حقيقتها .. صحيح اننا نعرف انواع الجزيئات بطرق التحليل الكيميائى ، لكننا لا ندرك كيف بنيت وانتظمت فنظامها يقع فيما وراء حدود الميكروسكوبات الاليكترونية .. لكن الذى يهمنا هنا ان بويضة كل نوع من انواع المخلوقات قد قامت بتطريز جدرها او ارديتها الرقيقة جدا على هواها ، لتكون بمثابة علامات مميزة لتهتدى اليها الحيوانات المنوية ومن خلالها تتفاهم !

ولقد جاءت الخلايا الذكرية هى الاخرى وهى تلبس طواقى على رؤوسها ، لكن الطواقى تختلف باختلاف انواع المخلوقات .. هى فى الحيوان المنوى للانسان مثل « لبدة » الصعيدى (طاقية مستطيلة قليلا وبيضاوية من اعلى) وفى الفئران كالمنجل ، وفى الديوك كالقرطاس او الطرطور ، وفى قنافد البحر « الرتسا » كالرمح ، وفى الصراصير كالمخروط .. الخ ، وهكذا صممت الحياة لكل عريس طاقيته ، لا ليتعاجب بها ، أو لتتغنى بها عروسه كما نسمع ذلك فى اغانينا الساذجة التى لا طعم لها ولا معنى ، ولكن لتؤدى مهمتها فى التعارف ، ولتكون بمثابة البصمات الكيميائية التى تشتغل كلغة سرية لها معناها ومغزاها !

وعندما تقترب الحيوانات المنوية من بويضاتها ، نراها وقد استبدت بها موجة من النشاط والحيوية ، وكانما هناك شىء قد لعب برؤوسها فأثارها ، واشعل فيها ثورة عارمة ، كالتى تحدث لنا نحن معشر الذكور الكبار عندما نجتمع باناثنا ، ويعتقد العلماء ان المسئول عن ذلك هى بويضتنا الصغيرة ، لانها عندما تحس

بمقدم عرسانها ، تطلق مادة أو عـدة مواد كيميائيـة بتركيـزات ضئيلة للغايـة ، وكأنما هذه المواد بمثابة العطر الحريمى الـذى يسيل له لعاب الرجـال ـ مع فارق واحـد ـ ذلك اننا نحن معشر الذكور ندفع ثمن العطور .. لكن عطر البويضة طبيعى ، وبه تشعل الثورة فى حيواناتنـا المنويـة ، لترقص حولهـا كالمهبولـة (نفس هذا المنظر قد يحدث فى صالات الرقص والدافع له انثى لعوب) .. وهكذا يكون حال عالـم الذكور على مستواه الصغـير والكبـير ، ولتسعد الانثى بما خططت ، ولتلعب بعقولنـا تـارة ، كمـا تلعب بويضتهـا بحيواناتنـا المنوية تارة أخـرى .. ومسكـين عالـم الـذكور !

ولكى يدخل العريس ذو الطاقية بعروسه أو بويضته ، كـان لابـد ان يخلع لباس راسه أو « عمامته » .. ليس ذلك ـ بطبيعة الحـال ـ نوعـا من الذوق أو « الاتيكيت » كالذى نراه مثـلا فى عالمنـا الكبير ، ولكن الحقيقة ان العروس الصغير هى التى تقـوم بتمزيق الطاقية وهلهلتهـا واذابتهـا لكى يدخـل صاحبنـا الى دنياه حاسر الراس .. وهو لا يستطيع ان يدخل براسه فى عروسه الا اذا تحطمت الطاقية لتتحرر من تحتهـا « المفاتيح » الكيميائية (أو الانزيمات أو الخمائر) التى تبـدأ فى فتح أو تمزيق أرديـة العروس فى الموضع المهيـا للدخول ، وهنـا تستجيب البويضـة لحيواننـا المنوى ببروز صغير يطلقـون عليه اسـم « مخـروط التلقيح » ، ويستجيب هو لها أيضا ببروز ، وكأنمـا البـروزان بمثابة الشفاه التى تمتد وتتقابل فى قبلة طويلة ، والى هنا تظهر على مكونات بويضتنا رعشة نشوانة تستمر حوالى ٢٠ ثانية ، وكأنما اللقاء قـد زلزل زلزالهـا !

وحيث يتقابل البروزان ويلتحمـان ، يتمزق الغشـاءان ، ليصبح لكـل غشاء طرفان متحرران ، ثم نلحظ بعد فترة لا تتعدى دقيقة واحدة ترابط اطراف الاغشية الممزقـة .. الطرفان الممزقان

لغشاء البويضة يلتحمان بالطرفين الممزقين لغشاء الحيوان المنوى ، وكأنمـا الرداءان قد حيكا فى رداء واحـد ، فيصبح هذا لباسـا لذلك ، وهنا تكون البدايـة فى التحام الكيانين فى كيـان واحـد ، واندماج الجسدين الصغيرين فى جسـد واحـد ، مصداقـا لقوله تعالـى « هن لباس لكم ، وانتم لباس لهـن » ، وكأنما ما يجـرى فى عالـم البشر له جذور اعمق واروع فى عالـم الخلايـا الجنسية، لتكون بمثابة ازواج توفق بينها خطة عمل ما اعظـم اسرارها ، وما اعمق الغازهـا !

والذكر منا نحن معشر البشر يعتبر حرا طليقا ، الى ان تحتوته الزوجـة فى بيتهـا ، فيستقر ويستكين ، ويحمد الله على ما آتاه ، ولابـد للزوجة ان تسير على حكمة مدهشة ومثيرة للمخ والاعصاب حتـى لا يفلت منهـا طيرهـا (اى زوجهـا) .. وذلك مصداقـا لقولهن « قصقصى طيرك ، ليلوف * بغيرك » .. بمعنى آخر «تنحل وبـره » ان كـان له وبر .. فبئست الافكار .. افكار البشر !

لكن .. ما الذى دعانا الى ذلك ونحن نتحدث عن مصير خلايـا جنسيـة ؟

لان بويضتنا ـ أو حواءنا الميكروسكوبية ـ تسير على المنوال نفسه .. فهى تقوم بقطع رقبـة عريسهـا ، وتفصـل ذيلـه عن راسه ، اى انهـا « تقصقصـه » بطريقتهـا الخاصة ، ثم تسحب راسه ، وتحتويـه فى داخلهـا .. اضف الى ذلك انهـا جاءت الى الحياة بحجم يفوق حيواننـا المنوى بمئات المرات ، وهى لا يهمها منه الا الراس ، وفى الراس تتكدس خطة العمل ، وفيها كل الخير .. لانهـا بمثابة مخزن كيميائى يحتوى على الشفرات الوراثية التى

(*) أى يتآلف بغيرها فيهجرها .. وهذه أمثال عامية أو بلدية .. وعليك أن تهملها أو تستطعمها .. انت حر طبعا !

تضمنت بلايين المعلومات ، وهذه تندمج مع معلوماتها ، وعندئذ يحدث الاخصاب ، وتترجم الشفرات الى مخلوق ايا كان نوعه وصنفه وحجمه .. ثم يأتى الى الحياة ليلعب نفس اللعبة من جديد !

لقد امتلكت البويضة حيواننا المنوى ، واحتوته فى عشها ، تماما كما تمتلك الاناث ذكورها فى عش الزوجية .. ولقد ذاب صاحبنا فى كيانها ، وما عاد له من اثر يذكر ، وبقيت هى لتواصل الحياة بعد ان حصلت على نصفها الآخر ، وليكون من وراء ذلك بعث لحياة جديدة قادمة !

وهكذا يسعى ذكرنا الصغير الى نهايته ، لتبدأ بها بداية العروس فى الحياة ، فاذا لم يصلها العريس فى غضون يومين ، ماتت كخلية بكر لم يمسسها ذكر ، وعندئذ تصبح ارديتها الثلاثة بمثابة كفنها ، وتقام المراسم الدموية لعدة ايام ، ثم تخرج مع دماء الحيض ، فى حين أن مئات الملايين من حيواناتنا المنوية تتبعثر هنا وهناك كشىء رخيص لا ثمن ولا تسعيرة !

واذا كان ذلك يحدث فى الانسان الذى يعتبر نفسه قمة التطور والخلق على هذا الكوكب ، فان مأساة أخرى قد حلت بذكور الميكروبات التى ظهرت على الارض قبل أن نظهر نحن عليها بمئات الملايين من السنين .

ففى بعض انواع الميكروبات (البكتيريا) تتواجد خلايا وحيدة .. الخلية بمثابة كائن حى مستقل ، فهى تتغذى وتتنفس وتنمو وتنقسم وتخلفها ذرية من خلايا .. صحيح انها ضئيلة غاية الضآلة ، ولا يمكن رؤيتها الا بواسطة الميكروسكوبات ، الا انه يجب علينا الا ننسى ان بدايتنا الحقيقية كانت ايضا من خلايا ميكروسكوبية تتمثل لنا فى حيوانات منوية وبويضات تسبح وتتحرك كالميكروبات ، وعندما تنقسم البويضة بعد التلقيح ، فان

الخلايا الناتجة من انقسامها لا تنفصل كما هو الحال فى الخلايا الميكروبية ، بل تتجمع فى كتلة صغيرة ، ثم تكبر الكتلة بمزيد من الانقسام ، وتتميز الى خلايا مختلفة ، لتؤدى الى تكوين انسجة فاعضاء فمخلوقات متكاملة .. منها الذكر ، ومنها الانثى .. وكذلك يكون الحال فى بعض الميكروبات ، فمنها الميكروب الذكر ، ومنها الميكروب الانثى ، الا اننا لا نستطيع أن نميز الخلية الميكروبية الذكرية عن الخلية الانثوية الا اذا حدث بينهما الاتصال والتزاوج .. فعندما ننظر تحت عدسات الميكروسكوب نلحظ خليتين متصلتين .. احداهما فارغة ، والاخرى مشحونة ، فأما الفارغة فلابد ان تكون ذكرا (فالذكر هو الذى يعطى ويقدم دائما ، وهو الذى يجب ان يفرغ من حياته ويموت أولا) ، وأما التى امتلأت واكتنزت فهى الانثى طبعا .. فلقد اعطاها الميكروب الذكر كل شىء فى جسده الدقيق ، واصبح خالى الوفاض ، محروما من الحياة .. اذ كيف يحيا بعد أن منحها كل ما يملك من مادة حياته ؟

والى هنا يتجلى لنا تحيز الحياة للانثى بأعظم معانيه .. فلقد شطبت حياة الذكر ، لتكون كلمة فى حياة الانثى .. وبهذا اختفى هو ، وبقيت هى !

فاذا تركنا عالم الميكروبات ، وصعدنا فى سلم المخلوقات ، قابلتنا مجموعة اخرى من الكائنات تعرف باسم الطحالب الخضراء ، وهى تعيش اساسا فى الماء ، وقد تتكاثر مجموعات دقيقة منها تكاثرا سريعا ، بحيث تكسب الماء لونا اخضر ، وقد نلحظ منها بالعين المجردة نوعا خيطيا محددا يعرف باسم طحلب « سبيروجيرا » Spirogyra .. وهذا الطحلب يظهر فى الماء كخيوط خضراء تتماوج معه كما تتماوج شعور الشقراوات عندما تداعبها النسمات .. المهم ان طحلبنا الخيطى الأخضر هذا بسيط التركيب ، فهو يتكون من خلايا متراصة كما تتراص

« كعوب » القصب او عقله فى اعوادها .. ورغم أن هذه الخيوط الطحلبية فيها ايضا الذكر ، وفيها الانثى ، الا اننا لا نستطيع ان نميز بينهما الا اذا حدث التزاوج

فأحيانا ما نرقب تحت عدسات الميكروسكوب خيطين وقد امتد احدهما بجوار الآخر ، واستكان بجانبه ، وتبدأ الخلايا المتراصة فى تكوين بروزات صغيرة كالحلمة ، ثم تمتد البروزات الى الخارج وتبرز حتى تتقابل مع البروزات التى كونتها خلايا الخيط الآخر ، وبعد أن يذوب الحد الفاصل بين هذا البروز وذاك يحدث شيء غريب ، ومنه ستعرف من هو الذكر ومن هى الانثى

فاذا فحصت ورأيت خيطا شفافا ليس به من مكونات الحياة شيئا مذكورا ، فاعلم انه ذكر ، واذا رأيت الآخر حيا ومكدسا بمادة الحياة ، فاعلم انه انثى .. فلقد انتقل السيتوبلازم بما حوى من الذكر ليصب فى الانثى ، كما ينتقل مثلا كد الرجل وخيره ليصب فى بيته .. بيت الانثى ، مع الاختلاف طبعا بين سلوك طحلب وانسان !

كانما جسم الذكر قد تحول كله الى خلايا جنسية لتنتقل الى جسم الانثى ، ويبقى هو على هيئة خاوية كجلد ثعبان فارغ بعد انسلاخه ، وقد يعترض البعض على ذلك ويقول ، ولماذا لا نفترض العكس ؟ .. بمعنى أن مكونات الخيط الانثوى هى التى تنتقل الى الخيط الذكرى ، فيحيا هو ، وتنتهى هى ؟ .. والجواب لا يحتاج الى فراسة ، ففى الطبيعة ـ كما نراها وندرسها على مستواها الصغير والكبير ـ نلحظ دائما ان الذكور هى التى تعطى ، والاناث هى التى تأخذ ، ولم يحدث أن انتقلت الخلايا الجنسية من الانثى الى الذكر ، والا لكانت الكارثة ، ولاصبحنا نحن معشر الذكور حبالى !

ثم نرتفع فى سلم المخلوقات درجة فدرجة ، فتقابلنا

كائنات اعقد فاعقد ، وفى حياتها امور يجب ان نحزن لها نحن معشر الذكور .. فعندما يبلغ الذكر ويصبح يافعا ، يبدأ فى تكوين اكياس صغيرة مكدسة بخلاياه الجنسية ، وهذا يعنى ان اجله قد دنا ، فبمجرد أن تنطلق خلاياه المنوية فى الماء بالملايين والبلايين ، نراه يضعف ويتهاوى ويموت ، وتسبح الملايين التى خرجت هنا وهناك ، حيث تبحث عن انثى من نفس نوعها لتلقحها ، وطبيعى ان يتوه من الخلايا الذكرية الكثير ويضل الطريق ، ومن ضل ، فعليه اللعنة .. وما اكثر الضالين ! تماما كما يحدث ذلك ايضا مع خلايانا الجنسية الذكرية .. لا فرق هنا بين ذكر وانثى يسكنان بركة من ماء وطين ، او غيرهما ممن ينام على فراش وثير .. المهم أن تعيش الانثى بعد موت الذكر ، لتحتضن الاجنة وترعاها ، ما لم تأتها كارثة تأخذها بما حملت !

وعلينا بعد هذا ان ندرس حالة وردة او زهرة فى عالم النبات ، فالزهرة بمثابة عش الزوجية الذى يجتمع فيه الذكر بالانثى ـ نعنى الاعضاء الذكرية والانثوية .. فلو فحصنا زهرة فحصا دقيقا لوجدناها تتركب من تخت وفوق التخت يتواجد الكأس ، ومن داخل الكأس وريقات زاهية الالوان ، بديعة التنسيق والجمال اسمها البتلات ، وهذه تحيط بالذكر والانثى وكأنهما فى « كوشة » كالتى يصنعها البشر .. صحيح أن « الكوشة » فى حياة البشر لن تقدم ولن تؤخر ، ولكنها فى حياة الزهرة قد تلعب دورا هاما .. ثم نرى من داخل البتلات او « الكوشة » محاور صغيرة كالخيوط ، وفى نهايتها العليا تتواجد اكياس ، وفى داخل الاكياس ملايين من حبوب اللقاح ، وعندما تنضج الاكياس تتفتح ، وتنطلق منها الخلايا الذكرية (حبوب اللقاح) .. فتذروها الرياح ، او تلتصق بالحشرات التى تزور الزهور ، لتنقلها من زهرة الى زهرة ، ليكون التلقيح المختلط الذى تباركه الطبيعة (وهذا يعنى ان اعضاء الزهرة الواحدة لا تلقح نفسها) ، ولقد صممت الامور بمواقيت معلومة حتى لا يحدث التلقيح الذاتى .. لكن كل هذا

لا يهمنـا بقدر ما يهمنا ان نعرف ان زواج الاقارب غير مستحب .. وسلوك الزهور خير شاهد على ما نقول !

لكن .. اين توجد الاعضاء الانثويـة ؟

انها لا تكاد تظهر او تبين ، فهى هناك فى مكان امين .. فى قاع الزهرة ، حيث تختبىء بعيدا عن الانظـار ، وحولهـا تتوزع اعضاء الذكـور ، وتحيط بها كاحاطـة السوار بالمعصم ـ تكريـم جديـد وغريب لمبيض زهـرة فهى لا شك فى الحياة غاليـة ، كمـا انهـا لا تترك مكانهـا ، بل تبقى فيـه مصونـة ، وعلى حبوب اللقـاح ان تتوزع وتنتشر وتطير بالملايين والبلايين .. رخيصـة جـدا .. كثيرهـا يخيب ، وقليلهـا يصيب ، فاذا اصابت ، كـان للمبيض مـا يهوى ، دون ان يكلف نفسه مشقة او نصبـا ، وبعدهـا يكون الاخصاب ، وتلقح البويضات بحبوب اللقـاح ، ويتحـول المبيض الى ثمرة ، والبويضات الى بذور .. البذور أجنـة نائمـة كاهـل الكهف ، وحولهـا مخزون من الغذاء الذى تعتمـد عليـه اذا مـا انطلقت البذور من ثمارها لتنبت ، فتعيد الكرة من جديد .

بقى ان نعـرف ان الـذى يـرث عش الزوجيـة هى الانثى دائما .. نعنى مبيض الزهرة بما حمل ، اما ذكورنـا فقد راحت فى خبر كان منذ فترة طويلة ، فلقد ادت مهمتها ، وانتهت رسالتها ، وضاع منها ما ضـاع ، وعلى الانثى ان تواصـل الحيـاة لتعطى البـذور .

وتلك حقيقة تفرح لهـا الاناث ، ويحزن لهـا الذكـور .. فمن المعروف ايضا فى اناث البشر ـ كمـا سبق ان ذكرنـا ـ انهن اطول من الرجال عمرا ، كما ان وارثات الرجال (الارامل) اكثـر عددا من وارثى النساء (ان كـان من ورائهن ارث) كما ان الشريعة قد اوضحت ان اثاث بيت الزوجيـة من حق الزوجة لا الذكر .. تمامـا كما كانت شريعة الحياة مع زهرة !

تسخر الحياة بذكورها اكثر ، عندما تقدم لنا امثلة اخـرى تجعلنا نتوارى منها خزيـا ، وكانمـا هى بامثلتهـا هـذه تضـع لنا النقط فوق الحروف ، لتشير الينا من طرف خفى بأن الذكـر فى حياة انثاه بمثابـة تابع او طفيلى او « دلدول » !

ففى مجموعة من الكائنات التى تعيش فى اعمـاق البحـار والمحيطات حيث البرودة شديدة . والهدوء قاتل ، والظلام حالك ، والمسافات التى تفصل كائنات الأعماق كبيرة وواسعة، نجد ان البحث عن الجنس يشكل امامهـا مسالة خطيرة وعويصـة . . ومن هـذه المخلوقات انواع من الأسماك شكلها قبيح وغريب ، ولهذا اطلقوا عليها اسماك الشيطان .. وهو اسم فى الواقع على مسمى .

طبيعى ان الذكر فى هذه الانـواع لا ينتظـر حتى يبلـغ مبلـغ الرجال ، ثم يبحث عن انثاه . بل عليـه ان يطلبهـا بمجرد ان يفقس من بويضته . ويعرف كيف يسبح ويعوم ، فربما يأخـذ وقتا طويلا حتى يهتدى الى فتاة احلامه ، او لا يهتدى على الاطلاق ، خصوصـا فى مثل هذه المتاهات الواسعـة .. المهـم ان الحظ يلعب هنـا دورا كبيرا ، فذكورنا دائما تحت رحمة الاقدار ، وهى التى قدر عليهـا ان تشقى وتبحث وتكـد حتى تلتقى بالانثى ، او يكتب عليهـا التيـه والتشرد حتى المـوت !

وقد يصادف ذكر من هذه الذكـور انثـاه . عندئـذ ينطلق اليها كالسهم المارق ، وحيث يلتقى فمه الصغير بجسدهـا نـراه يعضها عضة واحـدة .. العضـة الاولى والاخيـرة فى حياتـه ، وبعدها يصبح عبدهـا واسيرهـا الى ان يؤدى مهمتـه ، وينتقـل الى رحمـة الله غير مأسوف على شبابـه !

والى هنـا يبرز امامنـا تساؤل هام : لماذا يعض الذكر انثاه بدلا من ان يطبع قبلة على جسدها العظيم ؟ .. هـل يفعل ذلك

بدافع من الانتقام بعد طول كده وتعبه ونصبه ؟ .. ام لانها قبيحة ومنفرة ؟

ليس هناك فى الواقع قبح او جمال يمكن ان تراه العين لشدة الظلام ، كما ان هذه المخلوقات لا تعرف معنى الجمال او القبح او الانتقام .. لكننا بلا شك نقف امام مشهد مثير وحقير، لنقدم اعجب قصة بين ذكر وانثاه .. فالانثى – كما ترى – اكبر من الذكر بمئات المرات ، وهى تستطيع ان تبتلع منه فى جوفها العشرات لو ارادت ، ولكن العضة الذكرية دليل ملموس على ان « مقصوف الرقبة » قد وصل ، ولا جناح عليه ان يعضها ، ويغرز انيابه الصغيرة فى لحمها !

وبعد هذه العضة الغريبة تلتحم شفتا الذكر بجسم الانثى ، ويتصل نسيجه الحى بنسيجها ، وطبيعى انه لا يستطيع ان يأكل بعد هذه العملية ، بل نراه يعتمد على انثاه فى طعامه وشرابه وتنفسه ، وكانما هو طفيلى من الطفيليات الحقيرة .. ذلك ان دورته الدموية تتصل بدورتها ، وعن طريق هذا الاتصال ينساب دمها اليه ليجرى فى عروقه . فيتغذى ويتنفس ، ثم يلقى بنفايات عملياته الكيميائية الحيوية الى دمائها .. وبهذا يضحى الذكر بشخصيته وكيانه ، وتضمحل فكوكه واسنانه وخياشيمه وزعانفه وامعاؤه .. الخ ، وكانما هو قد اصبح بمثابة نسيج حى او مجرد جهاز تلقيح ترعاه الانثى وتغذيه حتى ينتج لها الحيوانات المنوية فى الوقت المناسب ، ثم يقذفها فى الماء عندما تطلق هى فيه بويضاتها ليحدث التلقيح .. لكن الغريب ان ذكرنا ليس له فى الامر ارادة ، بمعنى انه لا يستطيع ان يتحكم فى افراز حيواناته المنوية على هواه .. بل على هواها هى .. ذلك انها ولية نعمته ، ودماؤها هى التى تتحكم فى غدده الجنسية .. فلا تنضج الا بامرها ، ولا تفرز حيواناتها المنوية الا برغبتها .. ويا قلب لا تحزن على مصير ذكر من الذكور !

لكن ذكرنا هذا الطفيلى أحسن حظا من ذكور اخرى قدمتها الطبيعة قربانا على مسرح الجنس ، لتؤكد لنا مرة ثانية ان الحياة للانثى ، والموت للذكر ، وان التضحية به واجبة الاداء * ، ويكفى أن نذكر هنا حالة واحدة من حالات كثيرة ، ليتبين لنا القسوة ، وعظم المأساة !

عندما تطير ملكة نحل شابة عذراء الى طبقات الجو العليا فى رحلة « شهر العسل » ، تنطلق وراءها مئات الذكور فى سباق مرير ، وكل ذكر يمنى نفسه بشرف جماع الملكة ، ولهذا يبذل قصارى جهده فى اللحاق بها قبل غيره ، وهو لا يدرى ان الموت سيكون له بالمرصاد !

والواقع ان الحياة قد وضعت ذكورها تحت اختبار عويص ، وكانما فكرة الطيران وراء الملكة لا تخرج عن كونها مسابقة شريفة بين هذا المهرجان الطائر من العرسان .. اذ مما لا شك فيه ان الذى يلحق بالملكة وينالها فى عليائها لابد ان يكون هو اقوى الفتيان ، وبهذه الطريقة تقدم الطبيعة للانثى اكفأ واحسن ما انتجت من العرسان لتورث الاجيال القادمة قوته وصحته وخلوه من العاهات والامراض .. وهذا امر لا غبار عليه ، بل هو مستحسن وفعال فى امور الاختيار الطبيعى الذى تسعى اليه الحياة بين مخلوقاتها !

ويلحق اقوى الذكور بملكته ويحتضنها بعد كد وتعب ، لكن عريسنا الفائز لا يسعد بالوصال الا للحظات قصار ، فبمجرد ان يحدث الاتصال الجنسى ، تنتزع الملكة **اعضاء العريس التناسلية**

(*) انظر فى هذا الصدد كتابنا « زوجات مفترسات » .. كتاب الهلال – الناشر دار الهلال القاهرة .

وتستولى عليها ، وتدخلها الى تجويفها .. هذا ولقد كان الظن السائد الى وقت قريب أن الملكة لا تتقبل الا فتى واحدا ، ولكن بعض علماء البيولوجيا السوفييت قد أوضحوا أن الملكة تستقبل عدة عرسان أقوياء ، وتفعل بهم مثلما فعلت بأولهم .. المهم ان الملكة بعد هذه الرحلة تعود وقد أصبحت انثى فى الظاهر ، وفى الباطن تحمل أعضاء الذكر وأعضاء الانثى ، لتبقى خصيبة طيلة حياتها ، فلا تحتاج الى ذكر آخر بعد ذلك أبدا !

وتنتهى مراسم الزواج ، وتستقبل الرعية ملكتها استقبالا لائقا ، وقد تعود الذكور التى فشلت فى مهمتها ، فلا تجد من الرعية الا الاهمال والاحتقار ، كما أنها لا تطعمها ، فلا فائدة الان منها ، وبهذا يموت الذكور جوعا وكمدا ، وتحيا الاناث !

لكن المأساة الحقيقية قد حلت بعريسنا الذى حاز شرف جماع الملكة ، فمع خروج أعضائه التناسلية التى نزعتها الملكة فى داخلها نزعا ، خرجت أيضا أحشاؤه من شدة النزعة ، لتظهر معلقة فى رحلة العودة كراية صغيرة ترفرف وراءها ، رمزا للتضحية بالذكر ، وعلامة على انتصار الانثى .. أطال الله فى عمرها !

وعندما يحس العريس الشاب ان أكياسه الجنسية وأحشاءه الداخلية قد سلبت منه سلبا ، يحس أيضا أن « روحه » قد خرجت ، فتتهاوى قبضته على أنثاه ، ويتبدل كل شىء فى لحظات .. القوة الى ضعف ، والحب الى موت ، والموت الى حياة .. حياة أجيال أخرى قادمة كان الذكر فيها هو الضحية ، وبهذا يسقط البطل من عليائه بعد ان وهب حياته لغيره !

مات الذكر .. تحيا الانثى !

وهن أرقى منا وراثيا

المراة اضعف من الرجل ظاهرا .. لكنها ارقى منه واقوى باطنا !

والظاهر عادة فيه خداع ، حتى ولو أعجبتنا مفاتنه .. لكن الباطن هو الجوهر ، وهو الاهم والاعمق من الظاهر .. وباطن المراة يختلف عن ظاهرها ، اذا لو اطلعنا على بواطن الامور فيها ، لسلمنا لها بالسيادة ، وعقدنا لها لواء الامارة .. أيضا باطنا لا ظاهرا !

وقد يبدو هذا لنا — نحن معشر الذكور — افكا وبهتانا مبينا ، اذ كيف نتجرأ وننادى بالسيادة والامارة للمراة ، ونخرج بذلك على التقاليد المتوارثة من قديم الزمن ، والتى وضعت الرجل فى مركز أقوى من مركز المراة ؟

والواقع ان الحقيقة قد تكون أحيانا قاسية ومريرة .. فلقد فضحت البحوث العلمية الامور ، وكشفت المحظور ووضعت لنا النقط فوق الحروف لتقول لنا اننا جميعا أبناء آبائنا وامهاتنا .. لكننا نحن معشر الذكور منتسبون الى أمهاتنا أكثر مما نحن منتسبون لآبائنا .. بمعنى آخر نقول : نحن أبناء أمهاتنا فى المقام الاول ، ثم يأتى الآباء فى المرتبة الثانية !

كلام — لا شك — غريب ، ولابد له من برهان ودليل !

فالرجل ـ فى الظاهر ـ اقوى .. حقيقة قديمة ومعروفة ، فهو يتميز عن المراة بقوة جسدية ، وعضلات قوية ، وخشونة واضحة ، ولهذا يتغلب عادة على المراة لو دخل معها فى معركة بالايدى او فى جولة داخل حلبة المصارعة (وقد يحدث العكس فى البيت احيانا ، لكن هذه حالات ـ والحمد لله ـ شاذة ونادرة ، ولا حكم على الشواذ) ومن اجل هذه القوة الظاهرة فى الرجل ، كان لابد ان تكون الأرقام القياسية فى الالعاب الرياضية من نصيبه دون الانثى ، لكن ذلك ليس مفخرة يباهى بها الرجل ويعتز ، لان عضلات الحصان والفيل اقوى من عضلات الرجل .. ولهذا فان زينة الرجال العقل وليست العضلات !

لكن ليس معنى ذلك أن الانثى تحب فى الرجل عقله دون عضلاته ، بل تسعى لاختيار الحسنيين .. عقل يسود به على غيره ، وعضلات تنفعها ، ليكون بها حامى حماها ، والمدافع عنها ، وقد يدخل فى معارك طاحنة من اجل خاطرها .. صحيح ان ذلك لا يحدث الان فى أغلب الاحيان ، ولكن قوة العضلات كان لها شأن عظيم فى الايام الغابرة .. ايام ان كان الانسان الاول يعيش فى الكهوف او يهيم على وجهه فى البرارى والقفار والغابات، ولم تكن هناك عادات ولا تقاليد او قانون .. الا قانون العضلات ، وبتلك العضلات قضى الذكور الاقوياء على الذكور الضعفاء ، لتكون لهم السيادة على مجتمع الحريم ، وباسم هذه النعرة الكاذبة ـ نعرة السيادة ـ قتل الذكور اخوتهم او ابناءهم او آباءهم ، وعاشت الاناث !

لكن .. لكل شىء ثمنا ـ فنحن أقوى ظاهريا ، والقوة تحتاج الى طاقة تغذيها ، ولهذا فنحن « نحرق » أنفسنا اكثر من الاناث ، ونستهلك من طاقاتنا ما يفوق طاقتهن .. اذ اننا فى حياتنا كالأفران المشتعلة ، لكن اشتعالها بطىء ، وحرقها لوقودها (السكر) يسير على خطوات متتابعة ، ليسرى كل شىء فى داخلنا

بحساب ، وتنطلق الطاقات بمقدار ، لتؤجج فى داخلنا جذوة الحياة .. ومن الغريب ان الشعلة الحيوية فى الرجال اكثر توهجا منها فى النساء ، ولهذا تنطفىء فينا بمعدلات اكثر من انطفائها عندهن .. يعنى اننا نسرف فى طاقاتنا ، وهن المقتصدات ، ويعنى اننا « نحترق » اسرع منهن ، ويعنى اننا اقصر منهن عمرا !

لكن عدة ارقام قليلة سوف توضح لنا هذه الحقيقة .. فبمقارنة الطاقة التى يبذلها الرجل والمراة (المتساويان فى السن والوزن) فى بعض الانشطة اليومية المختلفة يتبين لنا مقدار ما يبذله كلاهما مقدرا بالسعر الحرارى فى الدقيقة الواحدة ـ هذا والسعر او الكالورى وحدة حرارة تنطلق من اى شىء يشع موجات حرارية ـ بما فى ذلك اجسام البشر والحيوان نتيجة للعمليات الحيوية الناشئة من التفاعلات الكيميائية التى تغذيها عمليات الاحتراق فى اجسامنا !

نوع النشاط	المراة	الرجل
١ ـ وهما مستلقيان فى راحة تامة	٩٨ر.	١٩ر١
٢ ـ عند الوقوف	١١ر١	٢٥ر١
٣ ـ مزاولة الاعمال المكتبية	٣١ر١	٦٠ر١
٤ ـ تقشير البطاطس (او البصل اذا اردت)	٢٩ر١	٧٠ر٢
٥ ـ غسيل الاطباق	٥٣ر١	٣٠ر٣
٦ ـ وهما يغتسلان ويلبسان	٣٠ر٣	٥٦ر٣
٧ ـ اثناء السير جنبا الى جنب	٩٠ر٢	١٠ر٥
٨ ـ ترتيب السرير	٤٠ر٥	٠٠ر٧

تلك هى بعض الانشطة العادية التى تؤكد لنا اختلاف الطاقات المبذولة بين الجنسين ، وتوضح اننا نحترق فى حياتنا اسرع من السيدات ، حتى ولو تساوى العمر والوزن

والمجهود .. ثم ان الرجال هم الذين حملوا فوق رؤوسهم كل الاعباء والمجهودات الهائلة التى تحتاج بدورها الى طاقات اعظم مما يبذله الاناث .. اضف الى ذلك ان للطاقات والاحتراق نفايات ، والنفايات تؤدى ــ على المدى الطويل ــ الى تقييد جزيئات الحياة وشلها عن اداء رسالتها .. فكلما زادت النفايات الحيوية كلما زادت « كلبشات » الجزيئات الحية ، وهذا ــ بلا شك ــ يؤدى الى اخماد جذوة الحياة ، فتنطفىء فى الرجال اسرع مما تنطفىء فى النساء .. والارقام التى قدمناها فى الفصل السابق خير شاهد على ما نقول .. فاين المساواة وها نحن نرى كيف تتحيز الحياة لاناثها دون ذكورها ؟

لكن الذين ينادون بالمساواة بين الرجل والمراة لا شك مخطئون او مخطئات .. فطبيعة الحياة فى التكوين الجسدى والوراثى والفكرى يؤكد ان الذكر ذكر ، وان الانثى انثى ، ومن سلك سبيل الآخر « فليس منا » .. فزوال الحواجز بين الذكر والانثى ليس فى صالح الجنس والنوع ، « ولعن الله المتشبهين من الرجال بالنساء ، والمتشبهات من النساء بالرجال » .. ولقد اختلط الحابل بالنابل ، فلا نكاد نميز الذكر عن الانثى الا بما وهبتهما الحياة من مميزات ظاهرة وباطنة ، لتقول لنا : هذا ذكر ، وتلك انثى !

نعود لنؤكد ان الذكر ــ بطبيعة تكوينه العريض ــ يختلف عن الانثى فى امور كثيرة .. نعومة البشرة لهذه وخشونة لذاك .. صوت حنون لها ، ولنا صوت اجش ، صدور ضامرة فينا ، ولهن الصدور البارزة .. كما ان الاعضاء التناسلية فى هذا تختلف عنها فى تلك .. لكن هناك اختلافات اخرى تشريحية وفسيولوجية وكيميائية تؤكد عدم المساواة .. من ذلك مثلا .. وكما جاء فى كتاب « جسم الانسان » الذى نشرته مكتبة

« لايف » العلمية ، وتحت عنوان « بعض الاختلافات بين الجنسين » نذكر الحقائق التالية :

* وزن مخ الرجل فى المتوسط اكبر من وزن مخ المراة .. فحيث يصل وزن المخ الصغير والمتوسط والكبير فى المراة الى ٣٧ر٤٠ ، ٤٤ر٩٨ ، ٥٤ر٦٨ اوقية على الترتيب ، نرى هذه الاوزان نفسها فى الرجال تصل الى ٣٨ر٨٠ ، ٤٩ر٣٨ ، ٦٠ر٥٠ اوقية .. لكن ليس معنى ذلك ان تفكير الرجل اكفأ من تفكير المراة .. بل يعنى ان جمجمة الرجل اكبر من جمجمتها ، اذ ليس بحجم المخ يقاس الذكاء !

* قلب الرجل اكبر من قلب المراة .. ليس فى الحب او العاطفة ، ولكن ذلك يرجع ــ فى المقام الاول ــ الى حاجة الرجل الى طاقة اكبر من طاقة المراة ، وعليه فلابد ان تكون « مضخة » الدم فيه اكبر ، ليحرق اسرع .. هذا ويبلغ وزن قلب المراة ثمان اوقيات ، فى حين يبلغ وزن قلب الرجل عشر اوقيات فى المتوسط .. اى بزيادة قدرها ٢٠ ٪ !

* دماء الرجال اغزر من دماء النساء .. اذ يحتوى جسم الرجل فى المتوسط ١ر٥ جالون من الدم ، فى حين ان جسم المراة فى المتوسط لا يحتوى الا على ٠ر٨٧٥ جالون ، اى بزيادة تصل الى حوالى ٧٠ ٪ !

* يبلغ متوسط المساحة الكلية لبشرة الرجل ٢ر٢١ ياردة مربعة فى مقابل ١ر٩٣ ياردة مربعة للمراة !

* كمية الماء فى اجسامنا غير كميتها فى اجسامهن .. اذ يحتوى جسم الرجل على ٦٠ ٪ من وزنه ماء فى حين أنجسم المراة يحتوى على ٥٤ ٪ من وزنه ماء !

* من المعروف طبعا ان عضلات الرجل اقوى من عضلات المرأة .. لنا من العضلات حوالى ٤٢ ٪ من وزن اجسامنا ، ولهن منها ٣٦ ٪ من وزن اجسامهن !

* نسبة الدهون فى المراة تصل الى ٢٨ ٪ من وزن جسمها ، وفى الرجل حوالى ١٨ ٪ .. لكن لجلد المراة وبشرتها نصيب محمود من تلك الدهون ، ولهذا كانت بشرتهن بضة ملساء .. كما ان اختزان الدهون فى النساء يجعلهن كالجمال .. فدهون سنام الجمل تتحول عند العطش الى ماء ، ولهذا سمى سفينة الصحراء .. لكن الدهون فى الانثى مخزونة لتتحول وقت الحاجة الى طاقة ولبن ، ثم انها قد تكون عازلا ضد تقلبات الجو اذا كانت تحت البشرة !

* المساواة الوحيدة بيننا وبينهن تتركز فى العظم .. ويالها من مفارقة غير سعيدة ، فلنا ولهن من العظام ١٨ ٪ من وزن اجسامنا واجسامهن .. ولهذا ليس صحيحا ان الرجل ينقص ضلعا عن المراة !

* ولنا نحن معشر الرجال عمود فقرى اطول فى المتوسط عن النساء ، اذ يصل طول هذا العمود الى ٢٨ بوصة ، ويصل فيهن الى ٢٤ بوصة !

* واتساع رئتى الرجل تختلف اختلافا واضحا عن رئتى المراة (عند سن ٢٥ سنة) .. ففى الشابة الصغيرة الحجم يصل اتساع رئتيها الى ٨٢ر. جالونا ، يقابلها فى الرجل الصغير ١٣ر١ جالونا !

* وفى الشابة المتوسطة الحجم ١١ر١ جالونا يقابلها ٦٩ر١ جالونا فى الشاب من الحجم نفسه !

* وفى الاحجام « المحترمة » او الكبيرة من النساء ٤٧ر١ جالونا ، وفى الرجال الضخام ٣٨ر٢ جالونا !

* لهذا تتنفس المراة اسرع من الرجل .. ففى فترات الاسترخاء والراحة تتنفس المراة بمعدل ٢٠ ــ ٢٢ مرة فى الدقيقة ، فى حين ان الرجل يتنفس بمعدل ١٤ ــ ١٨ مرة فى الوقت نفسه !

* لكن حجم الهواء الذى يستنشقه الرجل فى عملية الشهيق اكبر بمرتين من حجم الهواء الذى تستنشقه المراة ، فعند الراحة يستنشق الرجل حوالى ٨٠٠ سنتيمترا مكعبا يقابلها ٣٦٠ سنتيمترا مكعبا عند المراة !

وفى المجهودات البسيطة يستنشق الرجل حوالى ١٧٧٠ سنتيمترا مكعبا يقابلها ٩١٠ سنتيمترات مكعبة عند المراة !

وفى المجهودات العنيفة يستنشق الرجل حوالى ٢١٠٠ سنتيمترا مكعبا يقابلها ٩٣٠ سنتيمترا مكعبا عند المراة !

واعمق شهيق يستنشقه الرجل يصل الى خمسة لترات فى حين ان المراة لا تستطيع ان تستنشق اكثر من ثلاث لترات !

* دم الرجل بلا شك ــ اثقل من دم المراة ، لكن ليس معنى ذلك انه ثقيل الظل او « سم على دمه » ! كما يحلو لبعض فتياتنا وسيداتنا ان تطلق علينا مثل هذا التعبير فى حالات عدم الرضا ــ لكن المقصود بالدم الثقيل انه اكثر كثافة فى كرات الدم .. ففى كل ملليمتر مكعب من دمائنا نحن معشر الرجال ما بين ٦ر٤ ــ ٢ر٦ مليون كرة دم حمراء ، يقابلها ٢ر٤ ــ ٤ر٥ مليونا عند النساء !

لكل هذه الاسباب وغيرها جاء الحكم البيولوجى بعدم المساواة بين الرجل والمراة .. فلقد تزود الرجل بكفاءات

جسدية تؤهله لخوض غمار الحياة ومجهوداتها العنيفة ، ليحترق اولا ، ويموت أولا ـ فى اغلب الاحيان .. لكنها ـ اى الحياة ـ لم تشأ ان تعرض المراة لما لا تحب وترضى ، وكانما قد وضعت لها الحدود ، لتحافظ عليها وتصونها ، ولكنها ـ اى المراة ـ قد تمردت على طبيعتها ، وتعرضت لما لا تحب وترضى ، عندما خرجت الى معترك الحياة وويلاتها ، فبدات بعض الأمراض ـ التى نتعرض نحن لها ـ نتيجة للاجهاد والتوتر ـ تزحف عليها !

وبالرغم من ان اجسام الرجال اقوى من اجسام النساء ، الا ان جسم المراة اعقد تكوينا من جسم الرجل ، كما ان العمليات الفسيولوجية والكيميائية فى المراة ارقى واكفا من الرجل ؛ فهناك سلسلة طويلة من الاحداث الكيميائية والهرمونية التى تجرى فى جسم الانثى ، ولا يعرف جسم الذكر عنها شيئا .

فبروز النهدين صفة هامة جدا عند الفتاة او المراة ، فهى من العلامات الاساسية الدالة على انوثتها ، اذ لا نستطيع احيانا ان نفرق بين فتيان عصرنا هذا وفتياتهم ، خصوصا عندما تهدلت الشعور على القفا ، وضاقت « البنطلونات » على الارداف ـ ارداف الفتيان « المخنثين » (ظاهرا لا باطنا) ، وتقاربت الى حد كبير ملابس هؤلاء بهؤلاء ، كما تقاربت الامزجة والميول .. عندئذ لم يبق الا ان تدور دورة كاملة حول الفتى او الفتاة لتنظر الى الصدر وما حمل ، فاذا رايت عليه تضخما واضحا، فاعلم انها فتاة ، وان كان غير ذلك ، فعليه اللعنة !

لكن كل هذا قد لا يهمنا بقدر ما يهمنا ان نعرف ان من وراء بروز النهدين سلسلة من الاحداث الكيميائية والهرمونية التى تسيطر على نموهما وتشكيلهما ، ليقوما ـ فيما بعد ـ بأداء وظيفتهما التى خلقا من اجلها ، لكن بعض النساء ـ

خصوصا « المودرن » منهن ـ قد ضربن بهذا المبدا عرض الحائط ، فالمحافظة على النهدين اغلى واثمن من استخدامهما فى ادرار اللبن للرضع من الاطفال ، وكأنهما قد جاءا من اجل ادرار لعاب الرجال (وما أبرىء نفسى) ! .. وتلك نكسة فى تفكير النساء والرجال .. ذلك انمعظم الرجال ـ ان لم يكن جميعهم ـ يهوون الثدى النافر ، ويفرون من الثدى المتدلى أو الضامر ، وكانما لازالت ميول الاطفال الرضع تملك عليهم مشاعرهم واحاسيسهم ، وهذا ما يسعد النساء حقا ، ولذلك فقد يقولون عن الرجل ـ فى بعض المواقف ـ انه طفل كبير ! .. كما ان الثدى الشامخ يعتبر احدى المعالم البارزة فى الانثى ، ومن اجل هذا اعتبروه فى مسابقات الجمال احد الاسس القوية للفوز باللقب ، رغم انه قد جاء ليؤدى وظيفة فسيولوجية هامة .. ولكن الهرمون الجنسى يزين لنا الامر ، فتسخر النساء منا او به تتباهى !

كذلك تعتبر الانثى اكثر تعقيدا فى الخلق من الذكر ، خصوصا عندما نأخذ فى الاعتبار عملية ادرار اللبن عند الرضاعة ، وهى عملية معقدة تخضع لسلسلة من الأحداث الكيميائية والهرمونية التى تسيطر عليها الغدد .. اضف الى ذلك ان وظائف الغدد الصماء عند المراة اعقد من غدد الرجل .. فهى التى تسيطر على تجهيز البويضة ، وهى التى تقوم باعداد المهد او العش الذى يستقبل البويضة عند تلقيحها ، ثم استقرارها فى الرحم ، فاذا لم يحدث الاخصاب ، بدات عمليات هرمونية وكيميائية جديدة لتنظيف الرحم « وكنسه » ، ثم تجهيزه من جديد فى الشهر التالى لبويضة اخرى قادمة ، فاذا تلقحت وبدات فى تكوين الجنين ، ظهرت جيوش من الهرمونات التى تتجول ليل نهار فى دماء الحامل والجنين لتؤثر فيه وتشكله ، كما تؤثر على جسم الحامل وتجعله اكثر انوثة .. ذلك ان جسمها يقيم استعدادات

« ومهرجانات » حيوية ، وكأنما الغدد تعزف بهرموناتها سيمفونية كيميائية فيها نغمة الحياة الرائعة ، وكأنما هى ايضا ترحب بقدوم حدث سعيد ، وضيف جديد ، ولهذا يدب النشاط فى الأنسجة والأعضاء ، وتصير البشرة غضة بضة ملساء ناعمة لامعة ، وتتكور النهود وتصبح اكثر شموخا، وبالاختصار تصبح المراة فى اشهر الحمل الاولى بمثابة وردة متفتحة ، وكأنما هى تتورد بالنشاط والحيوية ، ولهذا قد يقابلك من الذكور من يقول : ما امتع جماع الحامل ، وهو قول له سند من الصّحة والواقع !

كل هذه الاحداث الرائعة التى تعرضنا لها باختصار شديد ، لا تعرف اجسامنا عنها شيئا نحن معشر الذكور .. كل ما نعرفه هو ذلك الاحساس اللذيذ الذى لا يستمر الا وقتا قصيرا ، ومن وراء ذلك انثى تثيرنا ، وهرمون يفرز فينا ، فيجعل كل شيء حلوا فى اعيننا ، ثم نقذف خلايانا الخصيبة ، ونهبط ونخمد وننام ، وبهذا ينتهى الامر عندنا باسرع مما بدا ، ليبدا عندها بسلسلة معقدة من الاحداث الفسيولوجية والهرمونية والكيميائية التى تستمر شهورا طويلة ، وليس دقائق معدودة تنتهى بانتهاء مفعول الهرمون فينا ، فمن اشهر تسعة للحمل الى سنة او تزيد للرضاعة .. وكأنما لنا نحن معشر الذكور لذة الجنس ، ولها بعد ذلك النصب والتعب ، ولكن ذلك يهون عندها لأنبل غرض ، واروع مقصد .. ولهذا كرمنا امومة الام فى عيد يقام كل عام ، ولم نفكر فى اقامة عيد للاب ، لأن الأم بيولوجيا وعاطفيا اغلى من الأب !

لكن سيادة المراة بيولوجيا على الذكر تتضح اذا ما تعمقنا فى بواطن الامور ، وتعرضنا لأساسيات الخلق ، وعندئذ سيتبين لنا اننا نحن معشر الرجال ننتسب الى أمهاتنا اكثر مما ننتسب الى آبائنا .. بمعنى اوضح : اننا ابناء امهاتنا ،

ومن هنا فان عامة الناس على حق عندما يقولون « الولد لخاله » ، وهو تعبير مهذب وبديل عن قولهم « الولد لأمه » !

لقد دلت البحوث العلمية على ان مكونات الانثى الوراثية اكفأ وارقى وانقى من مكونات الذكر ، واكثر منها فاعلية ، ولكى نوضح هذه الحقيقة المرة على قلوبنا نحن معشر الذكور ، كان لابد ان نتعرض قليلا للباطن الذى لا تراه عيوننا .. ففيه الاساس ، والاساس بالنسبة للانثى عريض ، وللذكر هزيل !

لقد سبق ان ذكرنا ان الذى يحدد صفات اى مخلوق على هذا الكوكب مكونات وراثية دقيقة غاية الدقة ، ولهذا لا يمكن ان نراها الا بمجهر ، وحتى لو رأيناها ، فانها لا تثير فينا فكرا ولا عجبا ، ومع ذلك ففيها أعظم فكرة ، وادق تخطيط ، واروع سر من اسرار الكون والحياة على الاطلاق .. المهم ان هذه الخيوط الدقيقة التى تبدو كعلق او « مقصات » صغيرة للغاية تحتوى على شفرة الحياة التى تحدد لكل كائن حى صفاته الوراثية التى سيأتى بها الى الوجود .. حمارا كان هذا الكائن او خنزيرا او حشرة او نباتا او انسانا ، فالانسان يبدا حياته بخلية ملقحة ، نصف مكوناتها جاء من الانثى فى بويضة ، والنصف الآخر جاء من الذكر فى حيوان منوى ، وعندما تختلط المكونات ، تنتج لنا سبيكة وراثية جديدة ، تؤدى الى تكوين جنين جديد ، وقد يأتى الى الحياة او لا يأتى !

البويضة الملقحة ــ اذن هى البداية ، وهى السجل الوراثى المكتوب بآلاف الملايين من الشفرات او المركبات الكيميائية التى لو ترجمناها على هيئة كتب ، وكتبناها بحروفنا وكلماتنا ، لملأت المجلدات الضخمة . هذا بالرغم من ان وزن هذه المعلومات

الوراثية لا يزيد عن ستة اجزاء من مليون مليون جزء من الجرام !..
لكن لا يجب أن تخدعك هذه الضآلة وزنا وحجما ـ كل ما فى الامر انها اكوان فيما وراء حدود الحس والبصر « ولكن اكثر الناس لا يعلمون (١) » .. وكل ما يهم الناس فى ذلك نشوة الحب وحلاوة العاطفة ولذة الجنس .. الخ

البويضة الملقحة بمثابة النسخة المخطوطة التى ستطبع منها ملايين وبلايين النسخ أو الخلايا التى تشكل الجنين الى انسجة واعضاء .. يعنى هذا أن كل خلية جسدية فى اجسامنا تحتوى فى نواتها على ٢٣ زوجا من المخطوطات او الكروموسومات التى قدمناها فيما سبق .. كل واحدة منها نسخة طبق الاصل من صاحبه ، عدا الزوج الاخير رقم ٢٣ ، فهو فى الانثى غير الذكر ، وهو الذى سيحدد ـ بمعلوماته الوراثية ـ ان كان المولود سيأتى الى الحياة ذكرا او انثى ، وسوف تترجم هذه المعلومات الوراثية فى مرحلة من مراحل نمونا الى خطة عمل .. الخطة تتحول الى صفات ذكرية او انثوية لنراها بعيوننا ، ونميز بها كلا الجنسين .. لكن الاساس موجود فى الكروموسومات المحددة لجنس المولود ، فان كان انثى ظهر فيه الزوج الثالث والعشرون على هيئة كروموسومين متشابهين تماما ، نطلق عليهما س س (او XX) ، وان كان ذكرا ، ظهر هذا الزوج على هيئة س ص (او XY) .. والى هنا تتضح لنا حقيقة مرة وساخرة ، ذلك اننا نحن معشر الذكور مخلطون ، كما اننا أيضا نتسلخ من الانثى ، ثم ننتسب اليها من خلال الكروموسوم س الحريمى الموجودة فى مكوناتنا الوراثية التى تحتويها كل خلايا اجسادنا ، ولهذا يبدو انها ظهرت اولا ، ثم جاءت الذكور بعد ذلك ، ومما يؤيد هذه الحقيقة ان المخلوقات الاخرى

---

(١) التفاصيل الكاملة لهذا الموضوع فى سلسلة للمؤلف بعنوان « سائح فى ملكوت الله » فى الجزء الثالث .. « نحن كتب مكتوبة » .. تحت الطبع .

الاقل منا شأنا ، والتى اشرنا اليها فيما مضى من صفحات تسود فيها الاناث ، وتتوالد عذريا دون حاجة الى الذكر .. فاذا تكرمت الحياة وارادت انتاج بعض الذكور ، فانها تنشأ من الانثى !

والاناث انقى منا وراثيا .. لأن خلاياها تحتوى على الزوج س س ، فى حين ان خلايانا « مخلطة » .. لاحتوائها على س ص .. كروموسوم « س » الانثوى جاء من الانثى ، والآخر « ص » الذكرى جاء من الذكر !

كما ان الاناث تسود علينا كذلك وراثيا من خلال الكروموسوم « س » الحريمى ، اذ لو اطلعت على حجم هذا وذاك تحت الميكروسكوب ، لتبين لك ان الكروموسوم المحدد للجنس فى الانثى اضخم واكبر من الكروموسوم المحدد للجنس فى الذكر .. يعنى أن الحريمى « سوبر » كروموسوم (تماما كالسجائر السوبر) ، اما الذكرى فاقل شأنا ، ولو وضع الاثنان فى كفتى الميزان الوراثى ، لرجحت كفة الانثى على كفة الذكر ، وكأنما نفس قصة انثى سمكة الشيطان الضخمة مع ذكرها « الوضيع » قد عادت لتتكرر هنا بصورة اخرى .. فكما يعتمد هذا الذكر على انثاه فى حياته ، كذلك نعتمد نحن معشر الرجال على الكروموسوم الحريمى « س » فى بعض مكوناتنا الوراثية الهامة ، وهذا يعنى ـ بلا جدال ـ أن الكروموسوم المحدد للانوثة قد عقدت له السيادة ، ورفعت له راية الوصاية على كروموسومنا المحدد لصفات الذكورة !

ويحيا س ، ويسقط ص .. وهكذا ربما هتفت الحياة من قديم الزمن !

لكن ضخامة الكروموسوم « س » ليس من قبيل تحصيل الحاصل . ولا هو اختزن فى طياته دهونا او طعاما لتجعله

سمينـا كبعض أصنـاف من البشر ، بـل ان مجيئـه فى الخلية بهذا السمو والاستعلاء يعنى الكثير ، ففيه معلومات وراثية اخرى بجوار المعلومات التى تحـدد جنس الانثى ، ولو لـم تنتقـل الينا هذه المعلومات من الانثى ، لكانت مصيبتنـا ثقيلة وفادحـة ، ذلك اننـا لا نستطيـع أن نعتمـد على كروموسومنـا ص لكى يورثنـا مـا قـد يغيب عنا من الصفات الوراثية التى تنتقـل الى تكويننا من الانثى ، فهو لا يحمـل فقط الا الخطـة الوراثيـة التى تترجم فيمـا بعد وتجعلنـا ذكورا ، لكن العلمـاء قـد اكتشفـوا عليـه ايضـا خطة عمل وراثيـة لتورثنـا الشعر الذى ينبت على آذاننا نحن معشر الذكور ــ كلما تقـدم بنـا العمر .. فبئست الخطـة ــ خطـة الكروموسوم « الذكـر » ! .. فماذا يفيدنـا نحن ان نبت الشعـر على الاذن أو لـم ينبت ؟

لكن .. ماذا يعنى كـل هذا بالنسبة للذكـر والانثى ؟

يعنى ــ فى الواقع ــ الكثير جـدا ، فلقـد اكتشف العلمـاء اكثـر من ثلاثين مرضـا وراثيـا لها ارتبـاط مباشر وغـير مباشر بكروموسوم الجنس .. بعضهـا خطير ، والبعض الآخر قد لا يكون خطيرا ، لكن الغريب هنـا ان الخطورة تتركـز وتنصب على الذكر دون الانثى !

فمن الامراض الوراثيـة التى قد تؤدى الى المـوت مـرض معروف باسم النزف الدموى (هيموفيليا (Haemophilia فعندمـا يحدث جرح ــ ولو طفيفا ــ فى الحامـل لهـذا المـرض الوراثى ، فانـه ينزف حتى يمـوت ، دون ان يلتئـم الجـرح ابـدا .. فالمسئول عن التئـام الجروح فى الاشخاص العاديـين مـواد بروتينيـة خاصـة تنطلق من معاقلهـا فى المنطقة المجروحة ، وتؤدى الى تجلط الدم عليهـا ، لتكون بمثابة سـدود تقف ضـد نـزف الـدم .. وواضح طبعـا ان المصاب بمرض نـزف الدم الوراثى ليست لجسمه القدرة على تـكوين بروتـين التجلط ..

والسبب راجع الى خطـأ وراثى على الكروموسوم المحدد لصفـات الجنس .. فعلى هـذا الكروموسوم مواقع استراتيجية حساسـة نعرفهـا باسم الجينات او المورثـات ، وكـل جينـة او مورثـة مسئولة عن خطة عمل محددة ، لانها تحمل فى طياتها شفرات وراثية تترجمهـا الى عمليات حيوية ، اى انهـا بمثابة « دوسيه » وراثى فى « ارشيف » الحيـاة ــ فى الكروموسوم الكبير .. والواقـع ان الثلاثـة والعشرين زوجـا من الكروموسومات التى نمتلكهـا فى كل خليـة من خلايـا اجسامنـا تحتـوى على ملايـين من هـذه الدوسيهات او الجينات او المورثـات ، ولهـذا فـان اى خطأ فى اى دوسيـه ، يؤدى الى خطـة عمـل خاطئـة ، وغياب بـروتين التجلط فى الدم ناشىء من خطأ فى المورثة المسئولة عن تكوينه ، وقد يتكون هذا البـروتين ، ولكنـه لا يستطيـع أن يؤدى وظيفتـه فى الحيـاة ، لانـه حمل فى تكوينه الخطـأ الوراثى ، فليس كل مفتاح صالح لان يفتح بابـا ، وكذلك تـكون عمليـات الحيـاة المعقـدة المتشابكـة ، فهى لا تحتمـل الاخطاء ، خصوصـا اذا جاءت من اصـل وراثى ، واغلب الظن انهـا قـد تقضى على من حملهـا بالموت ، حتى لا يورثهـا لغيره ، فهى ــ اى الحياة ــ فى مشوارها الطويـل تنتقى الصالح وتحافظ عليـه ، وتقضى على الفاسـد ، وتسقطـه من حسابها ، ويقـال ايضا أن سقوط حـكم القياصرة فى روسيـا كان من ضمن أسبابـه هذا المرض ــ مـرض النـزف الدمـوى !

وقـد يبدو هـذا الكـلام غريبـا .. فما دخـل بـروتين التجلط او النـزف الدموى بالاطاحـة بالنظـام القيصرى فى روسـيا او بالنظـم الدوليـة على وجـه العمـوم ؟

الواقـع أن للقصـة جذورا قديمـة ، ولها عوامل عديدة .. فرغـم ان مرض النزف الدموى نادر الحدوث بين البشر ، الا ان ذكـره مثلا قد ورد فى التلمود ، فلقـد نشأت عادة الختان عنـد

اليهود من قديم الزمن ، وكان يحدث ان ينزف الطفل عند ختانه حتى الموت ، ومن اجل هذا وضعت فى التلمود احكام تشير الى أن الام التى تفقد ولدين فى عملية الختان من خلال النزف الدموى مسموح لها بعدم ختان الاولاد الذين ستلدهم بعد ذلك ، حتى ولو تزوجت من رجل آخر ، ثم انجبت اطفالا ذكورا .. فى حين ان الرجل الذى يفقد طفلين بالنزف الدموى من زوجته الاولى ثم تزوج باخرى وانجب منها اولادا ، فلابد من ختانهم .. وهذا يعنى بوضوح ان المراة هى التى تورث هذا المرض لأولادها .. حقيقة عرفها اليهود من قديم الزمن ، ولم يعرفوا مسبباتها ، ومن اجل هذا وضعوا لها الاحكام فى تلمودهم !

الغريب فى الموضوع هنا ان المراة قد تحمل فى مكوناتها الوراثية بذور مرض النزف الدموى ، لكنها لا تصاب به اذا ما تعرضت فى حياتها للجروح ، فاذا تزوجت وانجبت صبيانا وبناتا ، فان المرض يورث للاولاد دون البنات .. والواقع ان البنت بدورها تحمل من امها هذا المرض ، لكنه لا يظهر فيها !

وقد تتساءلون بدهشة اصدقائى الذكور وتقولون : لماذا هذا التحيز الغريب من الحياة لاناثها دون ذكورها ؟

لان الانثى اقوى وراثيا من الذكر .. بمعنى آخر نقول : ان الحياة قد منحتها فى تكوينها الوراثى « اكسسوار » ــ اى قطعة غيار او بديل ، ولم تمنحها للذكر ! ..

فماذا يعنى هذا بحق السماء ؟ !

يعنى أن الجينة او المورثة الموجودة على الكروموسوم السينى المحدد للجنس اذا اصابها الخلل او الخطا او الضمور ،

فلن تحدث الكارثة بالنسبة للانثى .. فهناك كروموسوم سينى آخر يحمل نفس الجينة المسئولة عن انتاج بروتين تجلط الدم .. وهكذا ــ وببساطة ــ اذا توقفت هذه ، اشتغلت تلك بدلا منها ، وليس محتملا ان تفسد المورثتان فى وقت واحد ، ولهذا فمن النادر جدا ان يظهر النزف الدموى فى النساء ، ويقال انه لم تسجل غير حالة واحدة فى التاريخ ، وهذه لا يعتد بها على اية حال !

يختلف الوضع بالنسبة للذكر ، لانه يحمل فى تكوينه س ص .. الكروموسوم السينى بالتأكيد حمله من امه فى تكوينه ، والكروموسوم الصادى بالتأكيد من ابيه .. لكن س الانثوى له السيادة على ص الذكرى وبكل ما حمل فى تكوينه من جينات او مورثات اخرى بجوار المورثات المحددة للجنس طبعا .. وقد تكون المورثات الخاصة ببروتين التجلط ــ على الكروموسوم س ــ ضامرة او بها عطب ، وبالتاكيد لن تشتغل ، ولا يستطيع الكروموسوم الصادى الذى ورثه عن ابيه فى عملية التلقيح والاخصاب ان يفعل شيئا فى مثل هذه الازمة الوراثية الخطيرة ، فليس عليه المورثات الخاصة بتكوين بروتين تجلط الدم .. وهنا يظهر النزف الدموى على الذكور دون الاناث فللانثى اثنان محترمان .. اى كروموسومين كبيرين ، وللذكر منهما واحد ، والآخر به ضمور ، .. ويالضيعة البخت عند عالم الذكور !

لكن ليس من المحتم ان تنجب الام الحاملة لهذا المرض الخطير كل اولادها مصابين بهذا الداء ، بل تأتى منهم نسبة سليمة ، ونسبة اخرى تحتضن الخطا فى تكوينها ، ذلك ان البويضة التى تفرزها الانثى قد تحمل فى تكوينها الكروموسوم السينى الخاطىء أو السليم ــ لأن لديها كما ذكرنا ــ س س (واحد السينين يظهر بالتأكيد فى البويضة) فان

كانت المورثات الخاصة بالتجلط على الكروموسوم السينى فيها عيب ، ظهر العيب فى الولد ، وأن كان سليما ، جاء الولد سليما !

لكن النزف الدموى لا يظهر فقط عند حامليه بواسطة الجروح التى قد يتعرضون لها ، بل قد تسببه كدمة أو ضربة قوية تؤدى الى تهتك فى الشعيرات الدموية ، فيؤدى ذلك الى نزيف داخلى .. كذلك يحدث النزيف ايضا فى المفاصل والعضلات والاغشية المبطنة للفم والامعاء والاعضاء التناسلية ، او قد يأتى من اصابة ميكروبية .. لكن حمدا لله ان العلم قد توصل الى تصحيح أخطاء الطبيعة مؤقتا ، وذلك بنقل فصيلة من دم انسان سليم الى المصاب بالنزف الدموى ، فتقوم بروتينات تجلط الدم المنقول بعمل الترميم اللازم فيما تهتك من خلايا وانسجة ، هذا ومما يذكر أن العلماء قد توصلوا الى تحضير مسحوق ابيض مجهز من دم الخنازير ، ويحتوى على البروتينات التى تساعد على التجلط ، وهو هنا اقوى فى مفعوله من مفعول نقل الدم بحوالى عشرين مرة ، لكن المسحوق لا ينفع الا مرة واحدة ، وقد يتوصل العلم الى استنباط دواء ينفع فى كل الازمات !

ومن أمثلة مرض نزف الدم الوراثى الواضحة فى التاريخ حالة الملكة فيكتوريا (١٨١٩ – ١٩٠١) ملكة انجلترا ، فلقد كانت تحمله فى تكوينها ، وطبعا لم يشكل خطرا على حياتها ، وانجبت خمس بنات ، واربعة صبيان .. بنتين منهن – آليس وبياتريس – حملتا هذا العيب الوراثى دون أن تحملا له هما ، وحمله احد الاولاد المدعو ليوبولد ، وتزوج ، ولكنه مات وعمره لم يتجاوز ٣٣ عاما ، وترك بنتا تحمل بذور المرض ، وولدا سليما ، ثم تزوجت البنت واسمها الاميرة آليس من ايرل اوف آثلون ، وانجبا ثلاثة : بنتا سليمة ،

وولدين احدهما مات بالنزف الدموى بعد الولادة ، والثانى مات وعمره ٢١ عاما !

اما الاميرتان آليس وبياتريس فقد تزوجتا ، ونقلتا بذور المرض الى بعض احفادهما عن طريق البنات الى العائلتين المالكتين فى كل من روسيا واسبانيا .. والغريب أن وريثى العرش فى الدولتين كانا يحملان أعراض النزف الدموى عن طريق امهما فيكتوريا يوجينى واليكساندرا .. ويقول آشلى مونتاجو فى كتابه « الوراثة البشرية » أن هذا المرض كان من الأسباب التى أطاحت بالعروش فى روسيا واسبانيا .. ذلك ان اليكساندرا – قيصرة روسيا وزوجة القيصر نيقولاس الثانى قيصر روسيا كانت تحمل أعراض المرض من أمها الاميرة آليس ، ونقلته الى ابنها الوحيد وريث العرش اليكس ، رغم انها قد انجبت اربع بنات لم تحمل واحدة منهن مورثات المرض ، وعندما علمت القيصرة، بأن وريث العرش ، وفلذة كبدها مصاب بهذا الداء، اصيبت بصدمة نفسية عنيفة ، ولجأت الى طلب المعونة من العرافين والمتنبئين والمشعوذين والدجالين ، حتى وقعت فى حبائل راسبوتين ، الذى ادعى انه سيصنع المعجزات لانقاذ وريث العرش ، ثم اصبح لهذا الدجال الحظوة والمكان المرموق عند القيصرة ، فأثار القيل والقال شعور الملايين من أفراد الشعب ، واحسوا بضعف القيصر وتبذل القيصرة ، وعفونة البلاط القيصرى ، وما يجرى فيه من فسق وفجور – خصوصا على يدى راسبوتين الذى سيطر على الجميع بحيله البارعة من أجل شفاء وريث العرش من مرضه الخطير ، وكان هذا من ضمن الاسباب القوية التى اطاحت بحكم القياصرة الى الابد بعد أن قامت الثورة الروسية بقيادة لينين !

ومن المؤكد والحال كذلك ان الولد ابن امه ، أو « الولد لخاله » كما يقولون ، لانه يحمل من صفات امه اكثر مما

يحمل من صفات ابيه ـ صحة كان ذلك أو مرضا . . ويكفى ما قدمناه من معلومات عن مرض النزف الدموى الذى قد تحمله البنات والاولاد من أم مصابة به ، فلا يظهر فيها ولا فى بناتها ، لكنه قد يظهر فى الذكور ، وبه قد يموتون . . ذلك ان البنت اقوى وراثيا من الولد !

ومن الامراض الخطيرة ايضا ـ والتى لها علاقة بكروموسوم الجنس « س » الانثوى نذكر مرض ضمور العضلات الذى يؤدى الى الشلل ـ وهو غير شلل الاطفال الناتج من فيروس ، والذى يصيب الاولاد والبنات على السواء ـ لكن هذا المرض الوراثى لا يصيب الا الذكور ، فعندما ما يبداون المشى فى سنى الحياة الاولى يظهر ضمور عضلات الساقين بالتدريج ، حتى اذا بلغ الصبى العاشرة من عمره ، يصبح كسيحا ، ولا يقوى على الوقوف ، ولهذا يقضى المرحلة الاولى من عمره وهو يزحف او ينتقل على كرسى متحرك ، ثم يسرى ضمور العضلات فى البقية الباقية من جسمه الى ان يموت بعد سنوات قليلة ، ويعنى هذا انه لا يعمر حتى يبلغ مبلغ الرجال او يتزوج ليخلف ذرية !

ولماذا لم يختف المرض ـ اذن ـ مادام فيه القضاء على الذكور المصابين به قبل ان يبلغوا مبلغ الرجال ؟

ذلك ان المرض ينتقل خلال الاناث ، ولا يظهر فيهن على الاطلاق ، فاذا تزوجن وجاءت لهن ذرية من صبيان وبنات ، ظهرت فى نسبة من الاولاد ، وقضت عليهم بالموت ، فى حين ان البنت قد تحمله ، وتعيش به ، ثم تورثه للاجيال القادمة عن طريق كروموسومها السينى الذى قد يحمل فى طياته الخير ، وقد يحمل الخراب والدمار للذكور !

ويأتى بعد ذلك مرض آخر من امراض الحساسية ، ليصيب الاولاد « بالقرف » دون البنات . . يعنى ان لديهم حساسية

خاصة لانواع من الغذاء والدواء . . من ذلك مثلا المرض المعروف باسم « الفولية » ، ويظهر اساسا بين سكان حوض البحر الابيض المتوسط الذين يعيشون على وجبات من الفول . . ففى الفول بروتين خاص يسبب حساسية رهيبة للذين يحملون هذا الداء الوراثى الناتج عن مورثة « متنحية » او ضامرة او غير ذات مفعول على الكروموسوم السينى الخاص بتحديد الجنس عند الاناث ، فاذا انتقل هذا الكروموسوم بما حمل الى المولود الذكر ، ظهر فيه المرض ، واذا انتقل الى المولودة الانثى كان لها ما يعوضها على الكروموسوم السينى الآخر فلها كما ذكرنا منهما اثنان ـ س س . . فيحمل هذا ما غاب عن ذلك !

والواقع ان مرض الحساسية هذا neonatal juandice يظهر على الاطفال بعد الولادة ، ثم يستمر معهم فى مراحل العمر المختلفة ، وهو نتيجة حتمية لغياب او ضمور مورثة تقوم بالتخطيط الوراثى لتكوين خميرة او انزيم نطلق عليه اسم « ج ٦ ف د » ـ اختصار لاسم علمى طويل ـ جلوكوز ـ ٦ ـ فوسفات دى هيدروجينيز ، وهو انزيم هام فى العمليات الحيوية التى تتم فى اجسامنا ـ المهم ان ينتقل من الام الى نسبة من اولادها . . لكنه لا يظهر فى الاناث ، رغم انهن له حاملات ـ دليل آخر يؤكد تفوقهن الوراثى علينا نحن معشر الذكور !

حتى عمى الالوان له جذور وراثية على كروموسوم الجنس السينى او الحريمى ، وله انواع كثيرة ومتباينة ، فهناك حالات نادرة من عمى الالوان لا يستطيع المصابون بها ان يميزوا الالوان على الاطلاق ، الا ان الغالبية العظمى من حاملى هذا الخطأ لا يستطيعون التمييز بين اللون الاخضر والاحمر ـ والغريب ان هذين اللونين بالذات يوجدان فى اشارات المرور ، وقد تحدث

الكوارث او الحوادث اذا كان السائق مصابا بهذا النوع من العمى اللونى !

لكن كل هذا لا يهمنا بقدر ما يهمنا ان نعرف ان نصيب الذكور من هذا النقص اضعاف نصيب الاناث ، فبين كل الف من الذكور يظهر عمى الالوان فى ثمانين فردا ، فى حين ان النسبة فى الاناث لا تتجاوز ثلاثا او اربعا بين كل الف منهن !

والواقع ان عمى الالوان لا يظهر فى البنت الا اذا كان والداها مصابين بهذا الداء .. وهذا امر نادر الحدوث .. لكن لابد ان نعرف ان اباها قد ورث عمى الالوان من امه ، لانه ينتسب اليها فى هذا الامر اكثر مما ينتسب الى ابيه ، فلقد انتقل اليه الكروموسوم السينى بالتأكيد من امه وعليه ـ أى على س ـ تقع مسئولية هذا الخطأ ، اما الام فلابد ان تكون حاملة لكروموسومين عليهما الخطأ الوراثى نفسه .. وهنا يظهر عندها العمى اللونى ، وهذا ايضا أمر نادر ـ لكن يكفى أن تكون الام حاملة لبذور هذا المرض (دون أن تظهر عليها اعراضه) ، وفى تلك الحالة ينتقل الى نسبة من أولادها ، ولا تورثه لبناتها ، لان البنت هنا تنتسب فى هذا المجال الى أبيها ، وما دام الاب سليما ، فان ذلك يعنى ان امه سليمة ، ذلك انها اعطته الكروموسوم السينى السليم ثم نقل الاب هذا الكروموسوم بعد ذلك الى ابنته !

لكن مما لا شك فيه ان موضوع الوراثة مثير ومتشعب وعويص ، وهو ـ يحتاج من القارىء العادى الى المام بالمبادىء العلمية والوراثية ، لكن فيما قدمنا الكفاية ، لنضع النقط فوق الحروف ونقول : ان الانثى تسود على الذكر وراثيا !

وحقيقة خامسة اكتشفت حديثا تؤكد لنا ان الاصول الوراثية فى الانثى اكفأ منها فى الذكر .. فهناك فصيلة من

الدم يطلقون عليها س ج (أو Xg) ، ويعنى هذا ان تلك الفصيلة لها مورثات على الكروموسوم س الانثوى ، لكنها ليست موجودة على الكروموسوم ص الذكرى .. وبهذه الفصيلة تسود الاناث علينا ، ذلك انها تنتقل من الام الى أولادها وبناتها على السواء ، بغض النظر عن الفصيلة الدموية للاب ـ يعنى اننا منتسبون الى امهاتنا بتلك الفصيلة ، ولا فضل للاب فيها ، حتى ولو كان حاملا لها ، فاذا حملها ، فانها لا تنتقل منه الى الاولاد على الاطلاق بل يعطيها لبناته ، بعد أن يكون قد اخذها من امه !

ويبدو ان الحياة قد اتخذتنا نحن معشر الذكور « قنطرة » او « بردعة » وراثية لتعبر عليها الطريق ، وتحمل معها من خلال تكويننا الجسدى بعض صفات الانثى الوراثية الكامنة على كروموسوميها المحددين للجنس عندها .. انها تعطينا منهما واحدا ، لتسترده بعد ذلك فى بناتها او اناثها .. ففى كل خلية من خلايا اجسام الذكور يوجد الكروموسوم السينى ، ولقد جاء بالتأكيد من الام خاصة ، والانثى عامة ، فاذا انتقل منا الى بويضتها عن طريق الحيوان المنوى ، ظهرت الانثى من جديد ، وهذا يعنى بالتأكيد ان احد مكوناتنا الهامة قد جاء اساسا من الانثى ، ولا بد أن تستردها مرة أخرى فى بنات جنسها .. وكأنما الانثى هى الاصل ، ونحن ـ معشر الذكور ـ بمثابة الفرع ، او كأنما هى التى ظهرت أولا ، وجئنا نحن بعد ذلك ، وهذا ـ بلا شك ـ يتنافى مع فكرتنا عن نشأة الخلق !

وأيا كانت الامور ، فعلينا ان نعترف ان الانثى اقوى باطنا ، واضعف ظاهرا ، لكن الباطن اكثر واقعية من الظاهر ، فقد تورثنا الانثى بعض صفاتها الوراثية المحمودة ، وقد تورثنا عكس ذلك .. فنحن تحت رحمتها .. فان كانت خيرا جاء الخير ، وان كانت شرا اصابنا الشر ، لكن هذا الشر لا ينتقل فى

البنات الا نادرا). ومن هنا تتبين لنا الحكمة العظيمة فى قول الرسول الكريم « تخيروا لنطفكم ، فان العرق دساس » .. وهذا مبدأ وراثى حكيم تتضح لنا احكامه فيما سبق ان قدمناه !

يضاف الى ذلك وجود بعض امراض وراثية ليست مرتبطة بكروموسوم الجنس ، بل تأتى من الكروموسومات الاخرى التى تحدد صفاتنا الوراثية .. من ذلك مثلا داء الملوك او النقرس ، الذى يؤدى الى احداث التهابات رهيبة فى المفاصل نتيجة لترسب بلورات حامض اليوريك (uric acid) بينها ، لكن النقرس يظهر عادة بين الذكور ، ولا تجد له عند الاناث مثيلا !

ومن النادر جدا أن تجد انثى قد اصابها الصلع الوراثى ، واذا حدث – لا قدر الله – فان تساقط شعرها او صلعها الخفيف يتأتى من عوامل اخرى غير وراثية .. لكن الصلع كان من نصيبنا نحن معشر الذكور ، وهو ينتقل الينا عن طريق الام او الاب او كليهما .. فاذا حملناه نحن ، اصابنا الصلع ، واذا حملته الانثى ، لا يظهر عليها ، ويقال ان صلع الذكور – كما تشير دلائل كثيرة – يتأتى من تأثير الهرمون الجنسى الذكرى (التستستيرون) على بويصلات الشعر فيصيبها بالبوار ، وكلما زاد تركيز الهرمون ، زاد الصلع ، وهذا يعنى بطريقة أخرى ان الاصلع مخلوق يمتاز بقوة او رغبة جنسية يحسد عليها ، او لا يحسد – لسنا ندرى !

ويبدو ان الامراض التى تصيب الذكور اكثر من الامراض التى تصيب الاناث ، فمن احصائية بيولوجية – ضمن تقارير خاصة تنشرها تباعا هيئة الصحة والتعليم بالولايات المتحدة ، وتشير فيها الى معدل الامراض المختلفة التى تصيب الجنسين – يتبين – بما لا يدع مجالا للشك – أن نصيبنا منها اعلى من نصيبهن .. فمن بين ٣٨ مرضا مذكورا فى احد هذه

التقارير يتضح ان لنا من هذه الامراض نصيب الاسد ، ولهن منها نصيب النعجة .. اى ان الرجال والاناث قد يصابون بالمرض نفسه ، الا ان معدل الوفيات من هذا المرض بين الرجال يفوق معدله بين النساء .. بمعنى آخر تذكر الاحصائية أن من بين الثمانية والثلاثين مرضا ، يموت الرجال بمعدلات اكبر فى ٣٣ – ٣٤ مرضا ، فى حين ان النساء يمتن بمعدلات اكبر فى ٤ – ٥ امراض !

كذلك يذكر تقرير آخر نشره مونتاجو فى كتابه « مقدمة الى علم الانثروبولوجيا الطبيعية » (وهو علم يبحث فى اصل الانسان) . وفيه يذكر سيادتنا على النساء فى نواح ليست فى صالحنا نحن معشر الذكور .. المهم انها سيادة والسلام ، لعل ذلك يرفع من معنوياتنا بعد ان رأينا كيف تسود علينا الاناث وراثيا .. نحن نسود على النساء مثلا فى الذبحة الصدرية بخمسة اضعاف ، فبين كل خمسة من الرجال يصابون بالذبحة ، نجد انثى واحدة تصاب بها ، ومن بين كل ثمانية ذكور يصابون بقروح فى الجهاز الهضمى ، تصاب واحدة ، وكذلك النسبة نفسها فى سرطان الجهاز التنفسى (نتيجة للتدخين) ، وبين كل ١٦ يصابون بالدوزنطاريا الاميبية نجد انثى واحدة تصاب بها ، ونحن نسود عليهن فى قصور الدورة التاجية للقلب وتليف الكبد ومرض الاسقربوط وتصلب الشرايين ونزيف المخ والشلل الرعاش والتخنث الكاذب ، والتهاب البنكرياس الحاد وداء الملوك وضمور العضلات والنزف الدموى وعمى الالوان .. نسود فى هذا كله عليهن باضعاف مضاعفة قد تصل الى عشرة أو عشرين أو خمسين أو حتى مائة ضعف ، هذا بالاضافة الى ثلاثين مرضا اخرى نسود فيها عليهن بحوالى مرتين أو ثلاث – فى حين أنهن يسدن علينا فى ٢٥ مرضا .. من اهمها فقر الدم الذى يصيب الفتيات المراهقات (نوع من الانيميا chlorosis) والصداع

النصفى للرأس والخرب (مرض جلدى ناشىء عن قصور الغـدة الدرقيـة) ويتميز بجفـاف الجلـد وبفقـدان النشـاط العقلى والجسدى والسمنـة ولين العظـام (نتيجـة للحمـل) والحمى الروماتيزميـة ـ أما البقية الباقيـة من امراضهن فالفـرق بيننا وبينهن قد لا يعتمـد عليـه ، أو لا يزيد عن ضعفين أو ثلاثة !

ملخص القـول : أن الانثى تختلف اختلافـا جوهريـا عن الذكـر ، فى الصحة والمرض ، وتسود عليـه وراثيـا ، وتحـرق نفسها فى حياتها أبطأ من الذكر ، وتصاب بأمراض اقـل من الذكر ، ولهـذا تعمـر اطـول من الذكر !

وهكذا شاءت الحياة وقدرت .. من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان !

صراع الذكور .. والسبب أنثى !

الجنس يشتعل ، والمعارك تدور ، والضحايا من الذكور !

قانون أزلى وضعته الطبيعة لذكورهـا دون اناثهـا ، وكأنما هى تقدمهـم أمام « قومسيون » طبى عـام ، ولكن بدون اطباء ، ومع ذلك فان احكـام هذا القوميسون تؤدى ببساطة الى اختيـار الذكـر المنـاسب لتقدمـه الى الانثى بعـد ان يتخطى بجـدارة عوائق الامتحـان !

لكن .. كيف يتـم الاختبار ثم الاختيار ؟

عن طريق فكرة بسيطـة للغايـة .. الا ان الفكـرة تنطـوى على تحيز واضح للانثى دون الذكـر .. وهـذا امر محزن لنـا نحن معشر الـذكور !

فالذين درسوا الطبيعة الحية ، وشاهدوا أحكامها ومبادئها ، يقدمـون لنا معلومات مثيرة ، وحقـائق غريبة ، عن معارك رهيبة تقـوم بين الذكـور من أجل الاناث ، وكأنمـا هى قد جعلت بأسهم بينهم شديـدا ، فسلطت بعضهـم على بعض ، وارست بينهـم قواعـد التنافس والصراع ، ليقوموا بعمل تصفيـة نهائيـة كالتى نسمع عنها فى مباريات الدورى العـام .. الا ان هذه من اجل بطولة او كأس ، ولكن التصفيـة الحقيقيـة بين الذكور تـكون أساسـا من اجـل الفـوز بـانثى .. فمن انتصر فى المعركـة ، كانت لـه «حلالا» ، ومن خسرها ، فلا بد ان ينسحب ويتوارى عن الانظار ،

او فليبحث له عن معركة أخرى ، وانثى اخرى ، او فليدفن نفسه فى الطين !

قانون قاس ذلك الذى يقدم الذكور قربانا على محراب الجنس والحياة ، وكانما الطبيعة هنا تضحى بذكورها وتحافظ على اناثها .. فالانثى بالنسبة للحياة مرغوبة ، والذكر « مفقود » ، ولهذا فمن العار ان تعرضها لما لا تحب وترضى .. فهى اثمن وارفع من أن تدخل فى صراع مع انثى اخرى من اجل خاطر ذكر (١) ، وكانما هو لا يستحق هذه التضحية ، وعليه ـ لكى يفوز بالحب ـ ان يضحى ويتصارع حتى يتبين الغث من الثمين .. او الضعيف من القوى ، فالحياة تريد ان تقدم خير ما انتجت لاناثها ، ولن يحدث ذلك الا بتنافس وتضحية واجبة الاداء ، يكون للذكور فيها الاصابات والعاهات والموت ، اما الاناث فلها الصون والاعزاز !

ولهذا اذا صادفت ذكرين يتطاحنان ، فابحث عن الانثى ، فربما تكون واقفة غير بعيد من ميدان الصراع لتشهد هذا القتال الدائر من اجل خاطرها .. فالحياة تريد ان تنتقى الصالح ، وتقضى على الطالح « ولكن اكثر الناس لا يعلمون » !

فمن الصدف العجيبة حقا ان تحدث امامنا فى شارع واحد معركتان ، والابطال فيهما بشر وكلاب .. ولكننا لا نعنى ان المعركتين تدوران بين هؤلاء وهؤلاء ، بل كانت احدى المعركتين بين ذكور بنى الانسان ، والاخرى بين ذكور الكلاب ، والدافع لهما انثى .. نعنى فتاة وكلبة !

---

(١) يستثنى من ذلك أنثى الإنسان ، فهى أحيانا تتصارع مع أنثى غيرها من أجل خاطر ذكر .. ولاحكم على الشواذ .

ومعارك البشر غالبا ما تتسم بالتهور الذى يؤدى الى مالا يحمد عقباه ، ولقد كانت معركة الفتيان من بنى الانسان رهيبة ، اذ استخدمت فيها الحجارة والطوب والزجاجات والعصى والسكاكين ، وسالت فيها دماء غزيرة ورخيصة .. دماء الذكور طبعا ، وكان الدافع لها فتاة لعبت بعقول ذكور البشر ، لكن لاتهمنا هنا تفاصيل المعركة ولا أسبابها بقدر ما يهمنا ان نعرف ان الفتاة بقيت فى بيتها مصونة ، وراح الاغبياء ضحايا .. وما اكثر المعارك التى تقوم بين ذكور البشر من أجل الاناث بحيث اصبحت مادة دسمة للصحافة ، وعبئا ثقيلا على اقسام الشرطة والنيابة والمحاكم !

يكفى فقط ان تتعرض الانثى لكلمة جارحة ، او معاكسة عابرة ، فتفور دماءالذكور ، وتنطلق فيها هرمونات اخرى غير هرمون الجنس .. اذ ان لكل هرمون وظيفة محددة ، ووقت معلوم ، ولسنا هنا فى مجال الحب والغرام ، ولكننا داخلون الى ساحة المعركة والنزال ، ولهذا تقوم الغدة الكظرية (او الغدة فوق الكلية) بافراز بعض هرموناتها وصبها فى تيارات الدماء ، « لتفور » اكثر وتدفعنا لخوض معركة بمجهود اكبر ، وقد يقع فيها الجرحى والقتلى وتفتح لنا فى « دوسيهات » المحاكم والسجون صحيفة سوابق .. كل هذا لأن الانثى قد اهينت ، ولم نتحمل نحن الاهانة ، واهانتها تساوى الدم .. دم الذكور لا دم الاناث ، وتبقى هى فى مكانها لتذرف الدموع ، او تطلق الضحكات على هبالة الذكور .. ولهذا يقولون فى ساحات الشرطة واروقة النيابة والقضاء « ابحث عن الانثى » .. فربما كانت هى الدافع الحقيقى لكل ما حدث ويحدث وسيحدث الى ان يرث الله الارض ومن عليها ، والى هنا نستطيع ان نقول ان النساء هن اللاتى يفعلنها ، ويقع فيها المهابيل ذوو التهور والجسارة .. فالرجال للمعارك ، فان لم يتعاركوا كالديوك فعليهم اللعنة !

تلك اذن لمحـة سريعة من صراع عابر فى مجتمعات البشر ، وانت او غيرك يستطيـع ان يكتب مجلدات كثيرة عن حوادث غريبة ، لنخرج منهـا بنتيجـة وحيدة ، او استنتـاج مختصر مـؤداه ان نسبة لا بأس بهـا منا نحن معشر الذكور مغفلون (وهـذه النسبـة متروكـة لتقديرك وبقـدر ما صادفت وجربت وادركت مما يجرى فى الخفـاء والعلن) ، حتى ولـو كـره الكارهـون ، او احتج ذوو الشوارب المجدولـة ، والعضـلات المفتولـة ، لكن دعنـا من كـل هذا ، فالكلام فيـه غـم وهم ونكد ، ولنعـد الى المعركة الاخرى .. معركـة الكلاب من اجـل الكلبـة !

لقد كانت كلاب « الحتة » او المنطقـة الواحـدة تعيش مـع بعضهـا فى سلام ووئـام ، لكن صداقتهـا قد انقلبت الى عداوة وخصـام .. والدافع لذلك انثى لعبت لعبتهـا على الذكور بطريقة اخـرى .. صحيح أن الكلبة تريد حبا ، وتطلب جنسا ، لكنهـا ليست سهلة او « هبلة » .. بل تريد ان تختار من كلاب « الحتة » اعظمهـا اخصابـا ، واكثرها شبابا ، واشدهـا قـوة ، واكبرها فتـوة .. وللكلبة كل الحق فيما رسمت وخططت ، ولا غبار عليها فيما تفعل ، فمـا أكثر الذكور ، لكن ليس كل ذكر ذكـرا بالمعنى المفهـوم ، وعليهـا أن تختار ، ولقد عرفت حكمة الاختيار قبل ان تعرفه معظـم نساء البشر بزمن طويل ، او حتى قبـل ان نظهـر نحن على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين !

لقـد راينا ثـم راينا فى الشارع نفسه الـذى وقعت فيـه معركة الذكور من البشر ، حشدا آخـر من ذكور الكلاب يتصارع على انثى واحـدة ، وتساءلنا : كيف جمعت الكلبة كل هؤلاء ؟ .. وكيف عرفـوا « العنوان » ووصلوا الى حيث تنتظر على ناصيـة او بجوار صندوق زبالة او فى ركن من خرابة ؟ !

الواقـع انهـا ارسلت « بطاقـة » دعوة بطريقة سرية ومثيرة وسريعة .. اسرع بكثـير من برقياتنـا التى نرسلهـا من مكـاتب

التلغراف ، ثم ندفع فيها ثمنـا ، وقد تصل او لا تصل ؛ وان وصلت ، فربما بعد فوات الاوان .. ثـم ان البطاقة « الكلابيـة » ذات مضمون محـدد وواضح ، ولا يفهمهـا ـ بطبيعـة الحـال ـ الا الكلاب .. صحيح انهـا لا تقرا ، ولكنهـا تستنشق الدعـوة بانوفهـا ، وتفك رموزهـا ، وتعرف أن هناك كلبة تطلب جنسا !

بقى ان نعرف ان الكلاب الذكـور (وكـذلك معظـم ذكـور الحيوانـات الثديـيـة) لا تفكـر فى الجنس ، ولا تسعى اليـه الا اذا بدات الانثى فى طلبه ، وعندئذ تتضخم فيها غدة خاصـة ، وتنبعث منها رائحة انثوية تنطلق فى الهـواء ، وتنتشر فى الأزقة والحوارى والشوارع ، وعندمـا تستنشق الكلاب هـذا العطر الانثوى ، تثور ثائرتهـا الجنسيـة ، وتشتعـل فيهـا الرغبـة بعد أن كانت نائمـة ، وتبدا فى البحث عن المصدر ، وتوجه نفسها الى الانثى اينمـا كانت ، فهى هناك بمثابـة الهـدف ، والكلاب كالقذائف الموجهـة ، وجزيئـات العطـر الجنسى كالرادار الـذى يحدد ويوجـه ويرشد الضالين الى الهدف او جنتهم الموعودة .. ويمر الوقت ، ويأتى كلب من وراء كلب ، ويتجمـع الحشـد ، وكـل ذكر يمنى نفسه بوصلة جنسية تطفىء لهيبه ، لكن الكلبـة لن تعطى نفسها الا « للعظيـم » من الكلاب !

اذن .. فلابد من معركة وصراع لعمل تصفية نهائية ، وتقف الكلبة وهى تشهـد ما يجرى من اجل خاطرهـا ، ولا تـدرى ان كانت بها سعيـدة او شقية ، لكن اغلب الظن انهـا فخـورة بمـا خططت لهـا الطبيعـة ورسمت .. المهـم أن النتيجـة ستكون فى صالحهـا ، وبعد قليل سيتقـدم لها أقوي الكلاب لينالها ، وتقـف البقية الباقية غـير بعيدة لتشهـد ما يجرى من احـداث يسيل لهـا لعابهـا ، ولكنهـا لا تستطيـع أن تتقـدم لتقضى وطرها ، فلقد شبكت الانثى فى الذكر ، بحيث لا يستطيـع منهـا فكاكـا حتى ولو ضربا علقـة ساخنة ، وبعدهـا يفض المهرجـان دون دمـاء .. او محاضر .. او محـاكم !

وما اعجب ـ والحال كذلك ـ الصور التى تتكرر بين بشر وكلاب ، وان اختلفت التفاصيل بين عاطفة هؤلاء وهؤلاء ، وبين سلوكهم ومداركهم ، ومع ذلك فالنتيجة واحدة .. تعنى مزيدا من اجيال الكلاب والانسان وسائر انواع الحيوان !

لكن قصة الذكور من البشر والكلاب قد تتكرر بطريقة اخرى ، صحيح أن الكلب لا يعرف معنى الجمال ولا التغزل فى قوام الكلبة ولا اناقتها ، ان كان بها اناقة وجمال ، ولكنه يعرف شيئا واحدا ، وبه قد يفقد اهم صفاته .. فتتحول امانته الى خيانة ، وحرصه الى اهمال ، وعداوته للصوص الى صداقة ، وبهذا لا يستطيع ان يفرق بين العدو والصديق !

القصة التالية قراناها مصادفة فى احدى المجلات العلمية كدليل حى على الاثر العميق الذى تتركه الانثى على الذكر .. وتتلخص تلك القصة فى أن عددا من اللصوص الاذكياء حاولوا السطو على مجوهرات ثمينة فى احد قصور اوربا ، لكن محاولاتهم قد باءت بفشل ذريع بفضل عدد من كلاب الحراسة المنتشرة فى اماكن استراتيجية من حديقة القصر ، فما ان يظهر اللصوص بالقرب من السور ، حتى ينطلق نباح الكلاب عاليا مدويا لينبه أصحاب القصر بما يجرى فى الخارج !

فماذا يفعل اللصوص لتخطى هذه الازمة العويصة ؟ .. هل يقتلون الكلاب ؟ .. وسيلة غير عملية ولا حكيمة .. هل يقدمون لها طعاما كرشوة ؟ .. غير ممكن ، لان الكلاب تكمن فى اماكن لا يصل اليها الطعام ، كما انها شبعانة بخيرات اصحابها ، ثم هى لا تخون من اجل وليمة !

لم يبق امام اللصوص ـ اذن ـ الا ان يستخدموا سلاحا نتيجته مضمونة .. وليس هناك من وسيلة تلهى الكلاب وتكسر

شوكتها الا الانثى .. نعنى الكلبة ، لكن من السذاجة ان يأخذوا معهم كلبة ، ويقدمونها الى الكلاب لتجمعهم حولها ، وبهذا تنسى الذكور مهمتها وتيسر للصوص مهمتهم ؛ صحيح ان مثل هذه الامور قد تنفع مع ذكور البشر ، ولكنها قد لا تنفع فى حالتنا .. فلقد توصل اللصوص الى فكرة خبيثة وعلمية ، واستطاع احدهم ان يعطر نفسه بالرائحة الانثوية الجنسية التى تفرزها غدة كلبة تطلب جنسا ، وتقدم اللص ووقف فى مكان مناسب من سور الحديقة ، بحيث اذا هبت النسمات ، فانها تأخذ معها الرائحة وتنشرها بين الكلاب .. ولقد حدث بالفعل ما توقعوا ، اذ بدات الكلاب تتحرك نحو مصدر الرائحة ، ووقفت تهز ذيولها وهى فرحة نشوانة بهذا الزائر المثير ، واخذت تطوف حوله ، وتتمسح بملابسه ، وكانما هى تطلب القرب والوصال ، وربما كانت الكلاب وقتها تحدث نفسها وتقول « لا يمكن ان يكون هذا الواقف امامنا كلبة تطلب جنسا ، لكنه يحمل اثرا من المحبوبة ، ولهذا فمرحبا به والف مرحب ، فلقد اسكرنا بعطره السحرى ، وملأ دنيانا بهجة وحبورا » .. المهم ان الكلاب ظلت تتبرك به ، وضربت بواجباتها عرض الحائط ، وكانما العطر الجنسى قد ملك عليها نفسها وحياتها ، مما يسر لبقية اللصوص مهمتهم ، ونهبوا الجواهر وانطلقوا ، ثم لحق بهم صاحبهم ، والذكور تودعه بما يستحق من حب وتودد وحفاوة ، وهكذا لعبت هذه « التكنولوجيا » لعبتها مع الذكور ، فحولت نباحها الى صمت ، وامانتها الى خيانة .. وهى فى كل ما حدث لا شك معذورة !

لكن هناك « تكنولوجيا » اخرى بشرية تسير على الفكرة ذاتها ، وان اختلفت التفاصيل بين ما يجرى فى عالم الكلاب والبشر .. فمن الممكن ان يقضى بعض ذوى النفوس الضعيفة حاجتهم عند ذوى المراكز الكبرى بانثى جذابة ، وعلى قدر كبير من التدلل والجمال والاثارة ، وذكور البشر هنا يختلفون عن ذكور

الكلاب ، فحيث تثير رائحة الكلبة ذكورها ، يثار ذكور البشر بمؤهلات أنثوية خاصة ، مثل النظرة الناعسة ، والكلمة الناعمة ، والابتسامة النائمة ، وتعبيرات الوجه ، وحركات الجسد .. الخ ، اى ان الانثى هنا تستخدم تكتيكا آخر ينتقل عن طريق الاذن والعين واللمس .. لا عن طريق الانف كما هو الحال عند الكلاب ، لكن لا مانع ان تعطر انثى البشر نفسها بعطور لا دخل لغددها فيها .. ومع ذلك فهى تجذب احيانا انوفنا ، وتدور رقابنا ، « وتبحلق » عيوننا بحثا عن صاحبة هذا العطر الجذاب ، لكن تأثيره علينا لا يرقى الى مستوى الكلاب ، ولو كان ، لدفع ذكور البشر فى ذلك الجزء الاكبر من ميزانياتهم ! ولكن حمدا لله انه ما كان !

والواقع ان الانثى الجميلة لها عند معظم الذكور حظوة كبرى ، لدرجة انهم قد يعبرون احيانا عن ذلك ويقولون : ان جمالها يفتن العابد .. اى انه قد يتخلى عن عبادة ربه ، ويضعف امام الجمال الفتان .. لكن دعنا من العابد وما يعبد ،ولنرجع الى من يسيل لعابهم ، ويستجيبون للجميلة بما تحب وترضى .. فاحيانا ما يتنازلون عن عروشهم من اجل المراة ، او قد يفشون اسرار بلادهم فى ساعة ضعف امام الانثى ، او تنشر الاخبار العالمية فضائحهم (مثل بعض وزراء بريطانيا) ، او قد لا تتعدى الامور لاكثر من طلبات محددة ، كأن تأمر الانثى ذكرها : انقل فلان الى وظيفة كذا ـ حاضر .. علان يطلب ترقية .. تحت امرك ياست هانم .. اخرب بيت س ـ طلبك مجاب يا سيدتى الجميلة .. ص دمه ثقيل ـ سأنقله من اجل خاطرك الى جبال واق الواق ياست الحسن والجمال .. وبالضيعةالذكور وبالخيبةالرجال ، او ان شئت الدقة فلنقل : هذا الصنف من الرجال ، ومع ذلك فلنترك نسبة من يقاوم منا الاغراء لتقديرك ، فلا شك انك ادرى منا بذلك !

والى هنا يظهر لنا كيف تتحول قوة الرجال الى ضعف ، وضعف النساء الى قوة .. والانثى ـ بالعقل والذكاء والتخطيط والانوثة والمؤهلات الاخرى ـ تستطيع ان تفعل ما تريد او تتحكم فيمن تشاء .. وقد لا تظهر على مسرح الاحداث فتمسك فى يدها فأسا او ساطورا او خنجرا او نبوتا كما يفعل المتهورون من الذكور ، بل هى فى الواقع ترسم ، وغيرها ينفذ .. « اللهم ارضهن علينا ، واجعل كلامنا عليهن خفيفا » !

لكن .. علينا الان ان نترك ما يدور فى عالم البشر ، لانه عالم معقد فى سلوكه وحياته وانماط تفكيره ، نتيجة لتطور مراكز الادراك فى مخه ، حيث اصبح لكل واحد وواحدة منا تاريخ يختلف عن الاخرين .. كما تختلف بصمات اصابعنا وشخصياتنا ، فلا تتكرر ابدا ، ولنتعرض لصور ابسط من السلوك الحيوانى الذى يجرى فى الطبيعة بين الذكور !

• • •

تنتشر المعارك بين الذكور انتشارا واسعا فى الغابات وبين الاعشاب وفى الجحور والانهار والبحار وقمم الاشجار والاحراش وما شابه ذلك ، لكن هذا الصراع الدائر بينها قد لا يكون من اجل الانثى فحسب ، بل يتعداه الى امور الملكيات الخاصة .. بمعنى ان الكثير من انواع الحيوان تحدد لنفسها مناطق معينة من الماء او الارض او الغابة لتصبح وطنها المقدس الذى تصول فيه وتجول ، حتى اذا احست بدخيل يريد الاعتداء على ملكيتها ، كانت المعركة .. لكن ابطالها وصرعاها غالبا من الذكور .. تماما كما هو الحال عندنا نحن معشر ذكور البشر ، الا ان ذلك موضوع طويل نرانا فى حل من التعرض له هنا ، وعلينا ان نعود فنقدم صراع الجنس بين الذكور فى عالم الحيوان .

بين الاعشاب تسير الانثى وتتهادى باستحياء ، او بغير استحياء ، فليس ذلك مهما الان ، لكن المهم ان يعترض طريقها

ذكـر ، ويحاول مغازلتهـا والتودد اليهـا ، هذا بالرغـم انه على اغتصابها بقادر ، ولكنه لا يفعل الا اذا حدث القبول والرضا ، وقد يكون حظه تكـدا اذا تقابـل ــ وهو يسـير بفتاتـه ــ مع ذكـر آخـر يطلب بدوره القرب والوصال ، وهنا يتوقفان وكأنمـا كـل ذكر يدرس الآخر ، استعدادا للنزال ، وتنزوى الانثى جانبا ، وتنتظـر نتيجـة المعركة التى لو اطلعنـا عليهـا ، لعرفنـا كـم الانثى غالية ، او كـم هو عنيف ذلك الدافع الغريزى الذى يكوى الذكور ، فيستهينون بكـل شىء فى سبيله .. حتى الممات !

ويقترب الذكر من صاحبه ، وكأنما الذى كان بصحبته الانثى يوحى لغريمه بالاشارة ،وكأنما يقول « لقد وجدتها بعد كد وتعب، فلمـاذا تعاكسنى ، وتعترض طريقى » ؟ . . وكأنمـا الآخر يجاوبه قائلا « عليك اللعنة .. الا تعرف شيئا عن ناموس الحياة ؟ .. ان هذه الغاليـة(يقصد الانثى) ثمنهـا كبير ، ولا استحقهـا او تستحقهـا الا بالتضحيـة والدم .. ولتكن بيننا ــ اذا ــ معركة، فمن انتصر فيهـا نالهـا .. هـل قبلت التحـدى ؟ .. فاذا لـم يعجبك قولى ، فعليك أن تنزوى وتختفى ، أو لنحسـم الامـر ، ولا تضيع وقتى ، فغريزة الجنس تكوينى ، ولا شىء غـير المعـركة يكفينى » !

ويحسم الامر بمعركة ، ويستخـدم فيهـا سلاح من نـوع غريب .. امتلكتـه الذكور دون الانـاث ، وهنا يلعب « التكتيك » الحشرى ، والقوة والشجاعة دورا فعالا فى تلك الحرب النفسية !

لكن مـاذا نعنى بهـذا التكتيك الـذى وصفنـاه بصفـة (الحشرى) ؟ !

نعنى ان الـذى تقـوم بـه حشرة .. فالحشرة تحب كمـا نحب ، وتعـامل ذكورها اناثهـا ربما افضل من معاملتنا لاناثنا ،

وتعرف قيمتهـا على قدر ما ادركت .. فالذى يتصارع الآن على مسرح الاحـداث خنفس وخنفس .. ليس خنفسا بشريا ، بـل حشريـا .. فالخنافس البشريـة لا تتحلى ــ فى معظـم الاحيـان وعلى قدر علمنـا ــ بروح الكفاح والشجاعة والبطولـة التى تتحلى بها ذكور الخنافس الحشرية ، او غيرها من ذكـور الحيـوانات الاخـرى ، فالخنفس الحشرى قد جاء الى الحياة وبـه خشونـة واضحة ، وتلك صفة من صفات الذكـور المميـزة ، لكن الخنفس البشرى قد ظهـر لنا « على آخـر الزمن » وبـه نعومـة تختلف درجاتهـا من خنفس الى خنفس ، وبحيث لا نستطيع أن نميـز ــ احيانا الخنفس البشرى من الفتاة ، خصوصا اذا نظرنا اليـه من قفـاه .. ومـا دامت النعومـة قـد زحفت على شبابنـا ، ومـا دامت تراودهـم فكرة محاكـاة الفتيات فى التأنق وتسريحة الشعور ، وتضييق « البنطلونات » على الارداف الى آخـر هـذه المميزات التى تسعى اليهـا الفتيات بحكم تكوينهن ، وما دام كـل هذا او غيره يحدث ، فلا تنتظـر من هؤلاء خشونـة كخشونـة الرجـال أو الذكـور عموما .. أو حتى الخنافس الحشرية !

لقـد جرنا الخنفس الحشرى ــ عليه اللعنة ــ رغمـا عنـا الى الحديث عن اخواننا الخنافس البشرية عليهم النقمة ، ولنترك هؤلاء فى فلسفتهم وميولهـم وازيائهـم ، ولنقـدم خنفسنا الذى يعـرف باسم خنفس الوعـل أو الايل او الغزال ذى القرون .. ذلك ان الخنفس (١) قـد امتلك فكين طويلين قويين اشبـه مـا يكونان بقرنى الوعـل ، ومن هنـا جاءت التسميـة .. والواقـع ان ذكور الوعول والخنافس تستخدم قرونهـا وفكوكهـا فى معارك الجنس والحياة ، ولكـل منهـا صراعهـا وعاداتهـا ومكانتهـا فى سلم التطـور !

---

(١) تبسيطا للأمور فسوف نطلق على الذكر اسم خنفس وعلى الأنثى اسم خنفسة .

وتبدأ المعركـة ، وتتحـرك الفكوك الاربعة .. وكأنما كـل خنفس يسخن فكيه كما يفعـل لاعب الـكرة بقدميـه ، لكننـا لا نشهـد هنا لعبة للتسليـة وضيـاع الوقت ، بـل نقف امـام لعبة خطرة من ألعاب الموت والحيـاة على مستواهـا الخنفسى .. وبدون اطلاق صفارة من الحـكم ، يحدث الهجـوم ، وتتقابـل الفكوك بالفكوك ، وكأنمـا هى بمثابة مقابض او « كماشات » حية ، وبها يقبض الخنفس على الخنفس ، ويحاول أن يلقيه ارضا ليمرغه فى ترابهـا ، ويخمد بذلك قوتـه ، ويوهن من عزيمته ، وكأنمـا نحن امـام حلبـة من حلبـات المصارعة الحرة ، ولكن بدون حكم ولا جمهـور .. فالجمهور الوحيـد هنا هى فتاتنا الخنفسـة التى تقف سعيدة لتشهد صراع الجنس ، وهبالة الذكور !

وعندمـا يحس احـد الذكرين ان نتيجة المعـركة ليست فى صالحـه ، نراه ينطلق هاربـا من الميدان ، وهنا يتركـه المنتصر ليذهب الى حـال سبيله ، ويتقدم الى فتاتـه ، وهو يلـوح لهـا بفكيـه ، وكأنمـا لسـان حاله يقـول : ما استحق القرب منك ، ولا الفوز بحبك ، الا كـل من عـرف الكفـاح .. وها انذا قـد اخذتك منـه بالظفر والنـاب .. لأكـون لك ولتكـونى لى حلالا طيبـا !

وبجـواره تسـير العروس ، وقـد يتقابـل مع من هو اشد واقوى ، فيضيع الحب ، وتختفى النشوة ، او قـد يكون سعيدا ، فيقضى مع فتاتـه ساعات عسـل حلوة ، ثـم تنتهى فترة الوصال ويفترقان دون تحديـد موعـد آخـر للقـاء ، ويسـير الخنفس مترنحـا ، وبفكيـه ملوحـا ، وكأنمـا يودعهـا قـائلا ، بـاى باى .. عليك اللعنـة ، فلقد انهكت قوتى واضعت صحتى ، ومـع ذلك فالحياة تهون فى حبك .. « او كلـه فى حبك يهـون » (مـع الاعتذار للاغنيـة) ثم يموت هو ، وتحيا هى ، ليكون هناك مزيد من الخنافس !

وما دمنا قد تحدثنا عن خنفس الوعل أو الايـل ، فلا بـد ان نقـدم الوعـل نفسـه كنموذج جديد من نماذج ذكـور هـذا الكـوكب .. وعلينـا ـ لكى نصعـد سلم التطور من الخنفس الى الايـل ـ أن نقفز قفزة هائلـة لنعيش مع احـد افراد الحيوانات الثدييـة التى وضعها العلمـاء معنا فى المجموعة ذاتها !

فذكور الوعول قد تعيش فرادى ، او تجمعهـا مجموعـات صغيرة ليس بينهـا انثى واحدة ، ولهذا فان للذكور مجتمعاتهـا ، وللاناث مجتمعات اخـرى منفصلـة ، لكنهـا اكثـر عـددا من مجتمعـات الذكور ، ومن هنا كـان لابد ان تظهر فى تلك المجموعات الانثويـة زعيمة او قائدة لتقودهـا فى متاهات الغابات واحراشها ، والقائـدة ـ بطبيعـة الحال ـ لابد أن تكون اعظم من الاناث حنكـة ودرايـة واكبر عمـرا .. وعندما تضع الاناث مواليدها ، فانهـا تقوم بارضاعهـا ورعايتها حتى تكبر وتعتمد على نفسهـا ، وهنـا يحدث شىء غريب ، اذ تتحيز الاناث لبنات جنسها ، فتطرد الذكور اليافعة ، وتحتفظ ببناتهـا لتزيـد مجتمعات « الحريـم » قـوة وازدهـارا !

وتمتاز ذكور الوعول بامتلاكهـا لقـرون متشعبـة وقـوية لتـكون لهـا بمثابـة سـلاح « ابيض »، وبـه تدخـل معركـة الجنس أو صراع الحيـاة .. وليست ذكور الوعول هى الوحيـدة التى امتلكت القرنين ، بـل هناك ذكور كثـيرة بقـرون واضحة .. فللخروف (أو الكبش) قرنان ملتويان ، وللذكورالبقـر المستأنس والوحشى قرون حادة مستقيمة وكذلك التيس (ذكـر الماعـز) او غيره من تيوس .. لهذا اذا رأيت حيوانـا بقـرون ، فاعلـم انـه من الذكور ، أما اذا ضمر القرنـان فتلك علامـة من علامات الانوثـة ، مع بعض استثناءات بسيطـة ، ولا حـكم على الاستثناءات !

ويشترك خنفس الوعل مع الوعل فى الطريقة التى يستخدمانها فى صراعها مع الذكور الاخرى للفوز بالانثى ، ولكنهمـا يختلفـان

فى أمر هام .. فللخنفس فتاة واحدة ، وللوعل فتيات كثيرات ، ولكنه لا يعرفهن ولا يصاحبهن الا اذا ظهر الدافع الجنسى الذى يدعوه الى تجميع اكبر عدد منهن لتكون دليلا على فتوته .. وطبيعى أن ذكرنا هذا ليس الوحيد فى الغابة ، بل يشارك فيها عددا آخر من الذكور ، لكن الذكر اذا تقابل مع ذكر آخر ، فلابد من معركة كبيرة ، رغم أن كل ذكر منهما قد يكون فى حوزته عدد كبير من الاناث ، ولكنها « فراغة » عين من الذكور .. نقصد ذكور الوعول طبعا ، ولا شأن لنا هنا بذكور البشر ، ويبدو أن ما يمتلكه الاخرون يحلو دائما فى عيون الغير !

وكما يحسم الخنفس الامر مع خنفس آخر بمعركة فاصلة ، كذلك يفعل الوعل مع ذكر آخر ، لكن معركة الوعول لا شك قاسية ودموية ، فسلاح القرن حاد بتار ، فاذا لم ياخذ الوعل المتصارع حذره ، فربما يبقر القرن بطنه ، ولهذا فقد يموت احد الذكرين فى المعركة ، واحيانا ما تتشابك القرون المتشعبة ، ولا يستطيع الذكران منهما خلاصا ، ولا يزالان هكذا بقرونهما متشابكين ومقيدين ، حتى تنهك قواهما ، فيموتان فى مكانهما ، وتبقى الهياكل العظمية لتحكى لنا قصة مثيرة من قصص الصراع التى تدور بين الذكور من أجل الاناث ، وهكذا تضحى بها الحياة ، وتحافظ على الاناث !

الا ان أيسر حالات هذا الصراع تتركز فى ان يطرد الذكر المنتصر عدوه المهزوم بعد معركة قد تدوم طويلا او قليلا ، وليذهب المغلوب فى حال سبيله ، بعد ان يتنازل للذى غلب عن حريمه .. وربما تواتى المغلوب فرصة جديدة ليدخل فى معركة اخرى قد تكون فى صالحه .. المهم أن هناك صراعا قاسيا وطويلا ومريرا تمر به الذكور ، ليتوج ذكر منها نفسه على عدد كبير من الاناث ، وليصبح بحق « ملك » الحريم فى الغابة،

ومن أجل هذا تغنى به الشعراء فى أشعارهم ، واعتبروه سلطانا له من الجوارى ما يشاء ، ومن الفحولة الجنسية ما يريد ، بحيث يكون فى مقدوره اخصاب كل « الحريم » .. فليست العبرة بعدد الذكور ، انما العبرة فى نوع الذكور .. « ولكن اكثر الناس لا يفقهون » ، فالذى يهم هو النوع لا الكم يا سادة !

لكن « سلطنة » الذكور لا تدوم الا قليلا ، فبعد أن تحصل الاناث على الاخصاب ، تفقد اهتمامها بالبطل ، كما يفقد البطل اهتمامه بها ، وعندئذ يتخلص من قرنيه العظميين ، فيسقطان وبهذا يكون قد القى السلاح ، ويصبح كالانثى ، رغم انه اضخم منها حجما ، وبعدها يهيم على وجهه فى الغابات دون ان يحمل مسئولية او هما .. وكأنما كل رسالته فى الحياة ان ياكل ويتسكع ويعاكس ويتصارع ويغلب وينكح (مؤكد حيوان) او ان يكون من المهزومين .. حتى اذا جاء فصل الحب القادم ، ظهرت القرون ونمت وتشعبت ، ليدخل بها معارك اخرى !

• • •

ولننتقل الان من ساحة الغابات والاحراش حيث تعيش الخنافس والغزلان ، ولنتوجه الى شواطىء البحار لنشهد فصلا آخر من فصول صراع الذكور على الاناث ، ولنتخير منها نوعا واحدا ، وليكن ذلك المخلوق « أبا جلمبو » او سرطان البحر او الكابوريا .. تعددت الاسماء والمخلوق واحد (١) .

ففى فصل الزواج تنتشر الآلاف على مساحة من الشاطىء ، وتقف الذكور على اهبة الاستعداد لاستقبال الانثى « أم جلمبو »

---

(١) ننقل هذه الفقرات بتصرف من كتابنا « زوجات مفترسات » .. كتاب الهلال أغسطس ١٩٧٠ .

وهى تسير وتتبختر ، وكأنها مانيكان او عارضة ازياء .. او ربما عارضة جنس .. لسنا ندرى ، لكن الذى ندريه ان كل سرطان قد حفر فى الرمل حفرة صغيرة ، ليختبىء فيها اذا ما تعرضت حياته للخطر ، ثم قد يتخذها بمثابة عش للزوجية فى فصل التزاوج ، ولهذا نستطيع ان نرى الالاف من هذه الحفر التى تنتشر على الشاطىء ، وتختار الذكور الليالى القمرية ، ومن جحورها تخرج ، وامام « دورها » تتجول وتحجل كالاحدب، لكن الشىء المميز فى هذه المخلوقات هى مشيتها الجانبية ، وسلاحها البارز الذى يرفعه كل فتى فى الهواء ، وبه يلوح ويتباهى ، وكانما هو السيف المسلول الذى يدافع به عن داره او فتاته ، وكانما هو يتمثل بقول شاعر البشر :

ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه
يهدم ، ومن لا يظلم الناس يظلم

والواقع ان سلاح « ابى جلمبو » ليس الا مخلبا ضخما متينا ، قد يكون اطول من جسمه ، وبه يدخل معركة الجنس ليحظى بانثى !

نحن الآن نعيش فى فصل الحب ، وفيه نرى هذا المهرجان الراقص من الذكور ، وكانما الدنيا قد دانت لها ، واصبحت طوع مخالبها ، ولا شك ان كل ذكر يمنى نفسه بعروس .. اية عروس والسلام ، فليس فى الامر اختيار !

وتأتى الاناث لتتجول هنا وهناك بين الذكور ، ويقف الفتيان امام الدور ، وقد تمر ام جلمبو امام فتى من الفتيان ، فلا تطاوعه نفسه ان يتبعها ويسير وراءها اينما سارت .. ذلك ان التقاليد التى ورثها ابو جلمبو عن اجداده منذ عشرات الالاف من السنين تحتم عليه ان يلزم حدود الادب ، ان كان هناك ادب .. صحيح ان الفتى اقوى من الانثى واشد ، وصحيح

انه يستطيع ان يختطفها ثم يغتصبها دون حس او خبر ، الا انه ـ والحق يقال ـ لايفعل كما يفعل المتهورون من ذكور بنى البشر .. ليس ذلك خوفا من عقاب ، او لانه يعرف الأصول فى معاملة فتيات نوعه ، ولكنه يريد ان يترك لها حرية الاختيار ، حقيقة عرفها ابو جلمبو ، ولم يعرفها « ابو شنب » !

ما على ابو جلمبو ـ اذن ـ الا ان يقف امام ام جلمبو وقفة معينة ليستعرض فيها نفسه ، ومسموح له ايضا ان يلوح لها بمخلبه الضخم الذى اكتسب لونا كلون الحنة (او الحناء) التى يضعها عرسان الريف وعرائسهم فى ايديهم وارجلهم ، وربما كانت هذه العادة الريفية مقتبسة من ابى جلمبو هذا ، اذ ان مخلبه لا يتخضب باللون الاحمر الا فى فصل الحب والتزاوج ، والواقع ان هذه الحمرة القانية تتاثر بافرازات الهرمونات الجنسية ، وكلما زاد لون المخلب توردا ، فان ذلك دليل على فحولته او « ذكورته » الزائدة ، او ان الدافع الجنسى لديه شديد ، ولا ندرى ان كانت الحناء وتوردها فى ايدى العرسان والعرائس تعنى شيئا بالنسبة لهم ولهن او لا تعنى ، لكن مما لا شك فيه ان تخضب مخلب ابى جلمبو باللون الاحمر القانى لمن العلامات المميزة فى الاختيار الطبيعى ، ولو اختارته ام جلمبو عريسا ، فسيكون عريسا « لقطة » تتمناه كل فتاة فى هذا العالم البسيط فى سلوكه وعاداته !

« وتتبختر » ام جلمبو وهى تمر امام دور الفتيان ، ويأتى عريس وهو يلوح لها بمخلبه او « ذراعه » .. وكانما هو يقول « انا هنا .. انا هنا » .. ثم يهتز امامها ويتشنج ويلوح ، وكانما هو يرقص لها ليسترضيها ، ثم ينسحب الهوينى الى داره ، وينتظر قليلا ، فلعل الفتاة تستلطفه وترق لحاله ، وعندما يطول انتظاره ، يخرج ويبحث عنها حول

الدار ، فربما تكون واقفة غير بعيد « لتسوق » الدلال ، لكنه يراها وقد ابتعدت قليلا لتدخل فى مجال فتى آخر من الجيران ، ويحييها بمخلبه مثلما فعل الفتى المهجور ، وقد تميل اليه ام جلمبو وتقترب ، فربما كان هذا اكثر جاذبية ، واخف حركة ، واشد حرارة فى استقبالها ، لكننا لا نعرف السبب الكامن وراء هذا الاستلطاف ، ولهذا يهجم الذكر المنكود .. ليس على الفتاة ليأخذها غصبا ،او ليضربها علقة ساخنة . . ذلك ان القانون « الجلمباوى » لايبيح التعرض للاناث ، ولا ضرب الفتيات ، ولكنه يبيح ان يضرب الذكر ذكرا مثله حتى ولو ادى ذلك الى انتقال احدهما الى الدار الآخرة !

ام جلمبو – اذن – فتاة مصونة ، ولها بين الفتيان مقام كبير ، واذا اراد الذكر ان يظهر فتوته وقوته ، فلا يجب أن يظهرها على انثى ، بل على ذكر مثله ، وتلك هى الاصول التى عرفتها مجتمعات ابى جلمبو قبل ان يظهر البشر بمئات الملايين من السنين !

ليس هناك من طريق آخر لحل الأزمة الا الحرب ، ولهذا يتقدم أحدهما نحو الآخر ، وهما يرفعان مخلبيهما ويلوحان بهما بشدة فى الهواء ، وكانما هما يلعبان لعبة « التحطيب » التى يجيدها اهل الصعيد ، وهى التى يمسك كل فرد فيها نبوتا غليظا ليظهر به براعته أمام « السامر » عامة ، والفتيات خاصة ، ولكن ابا جلمبو لا يلعب ولا يتسلى ، بل سيدخل مع غريمه فى صراع حقيقى ، وكانما كل واحد يقول لصاحبه « بينى وبينك معركة ، فمن تغلب فيها استحقها ، ولتكن أم جلمبو حلالا عليه ، وحراما على غيره » .. وهنا تحدث بالفعل معركة طاحنة بالسلاح الأحمر .. نعنى بذلك المخلب المخضب « بالحناء » الطبيعية ذات اللون الأحمر القانى !

وتقف أم جلمبو غير بعيد لتشهد هذا الصراع المرير بين الذكرين ، وكأنما هى به فخورة ، اذ ليس هناك أسعد من فتاة وهى ترى الذكور يتطاحنون ويتنافسون على زواجها .. لا تختلف فى هذا ام جلمبو عن ام الخير !

يقول الذين شاهدوا سلوك هذه المجتمعات السرطانية انه بوسع الانسان أن يسمع صليل السيوف الحية – نعنى المخالب – وهى تتقابل فى ضربات متتابعة قوية من مسافة أمتار عديدة ، وقد تنكسر فيها المخالب وتبتر الارجل وتتهشم الصدور ، ولكن غريزة الجنس عندها قد تكون أقوى من غريزة الحياة ، وكأنما كل ابى جلمبو يريد أن يخوض المعركة حتى نهايتها ، ولهذا فقد تستمر وقتا طويلا ، الى ان يجد احدهما ان سير المعركة ليس فى صالحه، فينسحب من الميدان ، ويترك العروس لعذوله ، وهنا قد تتبع ام جلمبو المنتصر الى داره ، فلقد استحوذ عليها بعرقه وذراعه او قد تتركهما فى صراعهما وتسير ، فما اكثر الذكور ، وما اعظم المآسى التى تحل بها من جراء الفوز بالانثى .. وهكذا شاءت الحياة وقدرت من قديم الزمان ، وسالف العصر والاوان !

لهذا اذا رايت اثنين من ذكور ابى جلمبو يتصارعان ويتطاحنان فابحث عن الانثى .. عن أم جلمبو .. لا فرق هنا بين بشر وسرطانات .. فالكل فى الغريزة سواء !

ضوضاء الذكور - وهبالة الذكور

يبدو اننا معشر ذكور البشر قد ورثنا الكثير من عادات ذكور الحيوان .. فمن الظواهر الغريبة مثلا تلك « الاوركسترا » التى نصبتها الطبيعة من حولنا على هيئة أصوات تنطلق من حناجر الذكور ، لتعلن بها عن وجودها لعالم الاناث .. فالحمار ينهق ، والضفدع ينقنق ، والعصفور يزقزق ، والاسد يزار ، والديك يصيح ، والحمام يهدل ، والحشرات تصرصر وتغنى وتدق الطبول .. الى آخر الضجة التى قد يفصح بها الذكر عن وجوده ، وقد يكون ذلك خطرا على حياته ، لأن هذه الموجات الصوتية - التى نسمعها نحن ايضا او لا نسمعها - قد يلتقطها مخلوق جائع ، فيعرف مكان الذكر من ضوضائه ، ولا يزال يبحث عنه ، حتى يهتدى اليه ، ويصبح صاحبنا « الولهان » لقمة سائغة من طعام ، قبل أن يسعد بلقاء أنثاه . . وهكذا يدفع الذكر الثمن ، ولا تدفعه الانثى ، فلقد جنبتها الطبيعة مثل هذه الاعمال « الصبيانية » التى كانت من نصيب الذكور .

وعلى الوتيرة ذاتها يسير ذكور البشر .. اكن بطريقة أخرى!

فالشباب المراهق (وقد تمتد المراهقة ايضا الى الرجال والشيوخ والكهول) ينطلق مثلا فى الطريق ، فلا نسمع منهم الا اصواتا كالنهيق ، فلا القانون يعاقبهم ، ولا حرمات الليل تمنعهم ، ولا الذوق العام يشفع لهم ، وكانما هم يريدون تبديد طاقاتهم

الكامنة عن طريق ضجة وصياح .. ربما ليلفتوا نظر الجنس الآخر الى وجودهم ، أو ربما كانت عادة من العادات التى ورثوها عن « اجدادهم » من عالم الحيوان الذين سبقوهم فى الظهور على هذا الكوكب بعشرات ومئات الملايين من السنين .. فبئست العادات .. عادات الحيوان .. عادات البشر !

كما أن المعاكسات المكشوفة فى الطريق - بالكلمة أو الهمس أو اللمس وغير ذلك مما لا ندرى - يقوم بها ذكور البشر أساسا .. فقد يتغزلون فى هذه الفتاة بألفاظ نابية ، او مع تلك بالفاظ مؤدبة - كل هذا يتوقف على النشأة والتربية .. لكن هذه المعاكسات المكشوفة لا تصدر من فتاة او سيدة .. فالاناث أكثر حياء من الذكور ، ليس فقط فى مجتمعات البشر بل نرى ذلك ايضا فى معظم المجتمعات الحيوانية ، فذكورها تتودد دائما الى اناثها ، وتبحث عنها وتسترضيها ، والطبيعة الحية - كما يراها العلماء ويدرسونها - مليئة بآلاف الصور من الغزل ، ولكل نوع من الذكور فى ذلك طريقة ، كما ان لكل انسان او شيخ سلوكا وطريقة !

وكما يدفع ذكور الحيوان الثمن من حياتهم نتيجة لضوضائهم ، فقد يدفع البشر الثمن بطريقة أخرى .. قد تكون خفيفة ، وقد تكون شديدة .. فأما الخفيفة منها فتتجلى لنا فى تلك الحملات الفجائية التى يقوم بها رجال شرطة حماية الآداب العامة فى الطريق العام ، وبها يحصلون على نصيب محمود من ذكور تنطلق وراء الاناث كالكلاب الضالة ، وفى مركز الشرطة يقومون بتحرير المحاضر المناسبة .. اما الشديد منها فيتركز فى عمليات الاغتصاب بالقوة .. ومن حق اية انثى ان تلصق بالذكر منا اية مصيبة او تهمة ، اذ يكفى ان تقول هى كذا وكذا ، فيضيع مستقبل الذكر . . ذلك ان المساس بأى

جزء من اجزاء الانثى جريمة رهيبة .. ولكل جزء منها درجة ، وبها يأتي الحكم .. كذا شهر او كذا سنة ، ودعك من ضياع السمعة ، وهذا ينبئك بالخبر اليقين ، خبر ان المراة ثمينة والرجل رخيص .. المراة صادقة ، والرجل كاذب ، حتى ولو ادعت عليه ، والصقت به جنينا او نسبته اليه !

لكن دعنا من كل ذلك فالكلام فيه يطول ولنعد الى نسائنا اللاتي يصفهن البعض بأنهن ثرثارات ، لكن ثرثرة اللسان قد لا يأتي منها الضرر بقدر ما تأتي من « ثرثرة » مفاتن الاعضاء الانثوية ، فكلما برزت وتكشفت لعيون الذكور الحادة ، كلما كان ذلك ادعى الى ثورة اخرى تجتاح كيانهم الضعيف .. فعندما تلتقط العين المنظر الانثوى المثير ، فان الصورة بمفاتنها تنتقل الى مراكز الابصار فى المخ العظيم ، ومنها الى المراكز العليا حيث تترجم الرسالات الواصلة اولا بأول ، وتتحول الى خطة عمل ، وبها تشتغل الغدد ، ومن الغدد تنطلق الهرمونات وتشتعل فى داخلنا ثورة الجنس ، لكننا نكتمها كتمانا ، رغم ان التفاعلات الكيميائية الحيوية تشعلها فينا نيرانا (ولهذا كثيرا ما نسمعهم يرددون فى اغانيهم كلمة نار .. مثل حبك نار ، ونار يا حبيبى نار .. الى آخر هذه العبارات التى نسمعها كالاسطوانات وقد يكون لها طعم او لا يكون .. وكله تعبير عن لوعة الجنس او الحرمان) ولابد ان يأتى صمام الامان ليلعب هنا دورا عظيما ، ويكبح بهذا جماح الانسان حتى لا يوصم بوصمة الحيوان ، او يزج به فى غياهب السجن .. لكن احيانا قليلة قد ينفلت العيار ، ويختل صمام الامان ، فتكون ظواهر الاغتصاب ، وما يتبع ذلك من محاكمات واحكام او قد تتحول الامور الى عمليات قتال وصراع بين الذكور ، وتخرج الانثى المثيرة (واحيانا ما تكون غير مثيرة) من كل هذا بريئة ، رغم انها كانت المحرك البيولوجى الاول لكل ما حدث

وسيحدث .. فنحن — فى الواقع — بشر ، لكن ما يزال فى داخلنا حيوان مفترس !

• • •

نذكر هنا حادثتين رأيناهما رؤية العين .. الاولى كان بطلها فتى ، والثانية كان حمارا .. ومسرح الاحداث قد نصب فى ترام وحقل .. ولنبدأ بالفتى والترام ، ثم ننتهى بالحقل والحمار ، وبعده نستنتج من تلك المشاهدات ما يتعرض له عالم الذكور ، وكيف انه ينهار أمام الانثى ، ويظهر انه المخلوق الاضعف !

على كرسى فى ترام رمل الاسكندرية جلست فتاة شبه عارية بحيث ظهرت لنا جميعا كتحفة غاية فى الجاذبية والابداع والاثارة ، فمنا من حوقل ، ومنا من استعاذ ، ومنا من نظر واستملح وقال « جميل .. والله جميلٌ يحب الجمال » .. ولكل منا — بطبيعة الحال — فلسفته فى الحياة !

وامام الفتاة جلس — لسوء الحظ — فتى مراهق ، وظل يرمق ويتأمل ، والعين تنقل ، والهرمونات تفرز ، والخلايا تثرثر ، والنبض يزيد ، والتنفس يسرع ، والدم يندفع ، وعلى وجهه ظهرت علامات تؤكد حدوث تغير فسيولوجى فى جسمه .. ومن المؤكد ان هناك صراعا رهيبا يجرى بين الفتى من تأثير هذا الجمال الصارخ على تفاعلاته البيوكيميائية ، وبين تقاليد المجتمع واحكامه وقوانينه .. لكن يبدو ان الغريزة كانت اقوى من القانون ، فلقد انفلت العيار ، وتهاوى صمام الامان ، وهجم على الفتاة كالحيوان ، وانكب عليها تقبيلا « وحضنا » ، وبسرعة ايضا هجم البشر على « الانسان .. ذلك الحيوان » .. وخلصوها منه بصعوبة ، ومن الترام انزلوهما ، ولا ندرى كيف سارت الاحداث بعد ذلك .. لكن

الذى ندريه أن الترام قد سار ببعض من فيه وانقسم مجتمعه الى قسمين : السواد الاعظم فى جانب الفتى المسكين ، وقليلون كانوا فى جانب الفتاة ، ووسط الضوضاء ، والتعليقات والمرافعات ، التقطت الاذن صوتا ناعما من فتاة تبرز مفاتنها الا قليلا ، وعلقت على ذلك بقولها « سوفاج .. آنيمال » .. اى متوحش .. حيوان ، هذا بالرغم انها كانت عربية فى تقاطيعها ولغتها ، وثار فى الوقت ذاته ذكر من الذكور لبنى جلدته وقال صارخا « نحن بشر » .. ولاشك انه يقصد اننا ضعاف امام مفاتن الانثى !

الا لعنة الله على ذلك الهرمون العجيب ، الذى قد يمحو الارادة ، ويقلب الكيان ، ويحول سلوك الانسان الى سلوك الحيوان .. ومع ذلك فهو لذيذ وفعال ، بدليل هذا الطوفان الحى من البشر والحيوان !

وفى الحقل حدثت الحادثة الثانية .. فلقد كان احد المزارعين يمتطى حمارا وبه على بركة الله يسير ، واذا بالحمار يتوقف فجأة عن السير .. فتنفرج شفتاه ، ويتسع منخراه ، ويحرك راسه ذات اليمين وذات اليسار ، وكانما هو يستنشق عبيرا فيه حلاوة ، وعليه طلاوة ، ثم اخذ ينهق نهيقا عاليا ، وفجأة جرى كالمجنون ، دون ان يستطيع صاحبه كبح جماحه ، واخيرا اختل توازنه ، وسقط من فوق ظهر الحمار الثائر الذى انطلق كالصاروخ الموجه نحو الهدف، ولقد كان هدفه حمارة تقف على مسافة مائة متر أو تزيد وهجم عليها كما هجم الفتى من قبل على فتاته ، لكن الحمارة تمنعت ، واخذت ترفسه برجليها رفسا شديدا ، الا ان حمارنا لم يبال بصفعات الحوافر ، وظلت هى تضرب ، وظل هو يحاول ، حتى وصل اليه صاحبه ، وبعصاه الغليظة هوى عليه فى ضربات قاسية متلاحقة ثأرا لكرامته التى اهدرها حمارنا عندما

القاه ارضا ، واضحك عليه الخلق .. المهم ان الحمار المسكين قد عاد بخفى حنين ، بعد ان نال علقتين ساخنتين : علقة من الحمارة ، وعلقة من الانسان !

والواقع ان مثل هذه الاحداث كثيرا ما تتكرر فى عالم الانسان والحيوان ، ومنها يظهر الفرق بين انثى البشر وانثى الحيوانات الثديية بوجه عام .. فالحمار مثلا لا يثور جنسيا ما لم تاته اشارة خاصة من حمارة راغبة فى الجنس ، وعندئذ ينطلق نهيقه عاليا ، وكانما هو يرد على تلك الاشارة الصامتة بانكر الاصوات ، أو كانما هو يجاوبها الشعور ، وكانما لسان حاله يقول « لقد وصلتنى الدعوة ، واثارنى المضمون ، وسانطلق اليك كالفتى الجسور » !

غريب هذا الامر .. فاية اشارة تلك التى يستقبلها الحمار ؟ .. وما هو مضمونها الذى يثيره ويجعله كالمجنون ؟ .. واذا كانت الحمارة تطلب جنسيا ، فلماذا ـ اذن ـ لم تتقبل حمارها قبولا حسنا ؟ .. هل يرجع ذلك الى عدم معرفته بأصول « الايتيكيت » الحميرى ؟ .. أم ان فى الامر سرا عرفته الحمير قبل ان يعرفه الانسان ؟

الواقع ان ذكور الحيوان ـ ومنها ذلك الحمار ـ لا تفكر فى الجنس ، ولا تحس بالرغبة فيه كما هو الحال عندنا نحن معشر ذكور البشر ، لكن الذى يحدث انه فى فصل من فصول السنة ـ التى تختلف باختلاف نوع الحيوان ـ تجتاح الاناث رغبة جنسية ، وبطريقة فعالة وذكية تثير ذكورها برائحة خاصة تبعثها فى الهواء ، وكانما هذه الرائحة بمثابة عطر جنسى ، فبمجرد استنشاقه ، ينقلب حال الذكور من هدوء الى هياج .. ومن تعقل الى جنون ، وحسنا فعلت اناث الحيوان ، فبدون نهيق او نقيق او ضجيج او صياح ، تفوح رائحتها الجنسية اذا ما

احست بالرغبـة فى الذكـر ، ومن غدد خاصة تنطلق بلايين فـوق بلايـين من جزيئـات كيميائيـة معينـة ، فتنتشر فى الهـواء لمسافات بعيدة ، حتى اذا وصلت الى منخارى ذكر يقف فى حاله،او يسير فى طريقـه ، فانهـا تؤثـر فى اعصاب الشم وتثـيره ، حتى ولـو كانت بتركيزات جـد ضئيلة .. وعندئذ يعرف الذكـر ان هنـاك انثى تطلب جنسـا ، وبهـذا اصبحت الـرائحة الانثويـة بمثابة الزناد السحرى الذى يفجر القذيفـة الجنسية فى الذكـور ، ويجعلهـا تنطلق كالمجانين باحثة عن المصدر الميمون !

ولقـد التقط حمارنـا المذكـور بمنخريه الرائحة ، فاثارت فيـه كوامن الرغبـة ، لكنـه كان فى الواقـع غبيـا « طبعـا لانـه ذكـر .. ولانـه حمار » ، فانطلق الى اقرب حمارة ، وظنها انهـا باعثـة الرائحة الذكية .. لكنهـا ـ والحق يقال ـ لـم تفعـل ، واعتبرت هجـوم الحمـار عليها افكـا وعـارا كبـيرا ، فلقنتـه برفساتهـا درسا عظيما ، وكانما لسـان حالهـا يقول « اغرب عن وجهى ايها الاحمق ، فلست فى الجنس راغبة ، ولا لـه طالبة ، حتى ولـو وهبتنى كـل هـذه الحقول من البرسيم » !

واسدلت الستـارة ، وعظمت فى عينى تلك الحمارة .. فقـد دافعت عن « شرفها » (ان كان لها شرف) .. فـكل الامـور قـد تـؤخذ قسرا ـ الا الحب .. والجنس هو الشرارة التى تـوقظ جذوة الحب ، فاذا انطفـأ ، انطلق الذكر الى حال سبيله .. وما اعظـم الخدع والشراك التى نصبتهـا الطبيعة للذكور ، لتـؤجج فيها النيران ، ثـم تـأتى الانثى لتطفئهـا ، او قـد تشعلهـا من جديـد .. وهى بوسائلهـا الكثيرة على ذلك لقادرة !

نعـود الى حمارنـا الذى اكتوى بنار الجنس تارة ، وبحوافر الحمـارة ثم بعصا صاحبه تارة اخرى ، فنقول : انه لغبائـه قد اخطـأ الهدف .. اذ كانت الراغبة فى الجنس تقف غـير بعيـد من صاحبتهـا الحمارة الاخرى .. ولقد كانت النسمات تأتى من نفس

الاتجاه الذى تقف فيه الحمارتان ، ويبـدو ان الرغبة الجنسية قـد اعمت حمارنـا ، فلـم يفـرق بين هذه وتلك ، ومن اجـل هـذا فقد اخطأ الهـدف ، ودفـع الثمن ، واستحق علقتين .. وهمـا ـ اى العلقتـين ـ اهون من نيابـة ومحاكـم وفضـائح يكتـوى بنارها ذكـر الانسان دون الحيوان !

وهكذا تأتى الريـاح بما لا تشتهى السفن .. وكذلك تـأتى ايضـا بما لا تشتهى الحمير او غيرهـا من ذكور شتى !

والواقع ان الرائحة الجنسية تلعب دورا هـائلا فى توجيـه الذكر الى الانثى او اثارتـه جنسيـا ، ويكفى ان نذكـر ان عالـم البيولوجيا مارتن لينداور قـد قـدر عدد انـواع الـروائح التى تطلقها الانواع المختلفـة من الحشرات بمـا يزيـد على ٥٠٠ الف رائحـة .. ولكل رائحة منها تركيب كيميائى خـاص ، لتصبـح الرائحة بمثابة لغـة الحب والتزاوج ، او كانما هى رسالة معطرة، ذات شفرة محددة ، ولن يلتقطهـا او يتعرف عليهـا الا الذكـر الذى ينتمى الى نوع الانثى التى اطلقتهـا !

يعنى هـذا ان الاناث هى التى تطلق الـروائح الجنسيـة ، وعلى الذكور ان تلتقطهـا ، وتبحث عنهـا ، وتسعى اليها ، وهى ـ اى الانثى ـ جالسـة فى مكانها معززة مكرمة .. ولقـد استفاد العلمـاء من هـذه الحقيقـة ، واستطاعـوا ان يقوموا بتحضـير بعض انـواع الـروائح الجنسيـة التى تطلقهـا الانـاث فى عالـم الحشرات ، وبها يجذبون الذكور ، ويقومون بحرقها ، حتى لا تتاح لهـا فرصة تلقيح اناثها ، وبهذا يحدون من تناسلها ، ويسيطرون على اعدادهـا ، فيتضاءل ضررها .. وتلك صفعة جديـدة لعالـم الذكـور الذى كتب عليه ـ فى آخـر الزمن ـ أن يمـوت حرقـا بالنـار ، فى حين ان الانثى تحيا حياتها العاديـة ، وتموت موتتها الطبيعيـة !

لكن الغريب حقا أن بعض اناث الحشرات تطلق روائحها فى ساعات محددة ، من الليل ومن النهار .. فنوع منها يفضل اطلاقها بين الحادية عشرة مساء حتى الرابعة صباحا ، ونوع آخر يبعث بها ما بين الساعة الثانية الى السادسة صباحا ، وهكذا قدرت الحشرات لرجلها قبل الخطو موضعها ، فمن المستحسن ان يبحث الذكر عن انثاه فى ظلام الليل ، وهو لا يستعين بعينيه فى البحث عن فتاته ، بل يتوجه اليها – حيث كانت – بقرنى استشعاره اللذين يشبهان الرادار .. صحيح ان شبكات راداراتنا تشتغل بالموجات الكهرومغناطيسية ، لكن « رادارات » الحشرة توجه نفسها عن طريق جزيئات « عطر الحب » الذى اطلقته الانثى فى الهواء .. ولكل رادار منها « موجة » خاصة .. نعنى مادة كيميائية ذات تركيب محدد ، وبقرنى الاستشعار تفك رموز الشفرة وتعرف معناها ، وتستمر فى البحث والطيران نحو الانثى فى النصف الاول من الليل ، ثم ليبدأ الحب والوصال فى النصف الثانى او قبيل بزوغ الشمس ، وبهذا تضمن الاناث وصول ذكورها ليلا قبل أن تقع فريسة سهلة لحيوانات اكبر قد تصطادها فى الطريق نهارا ، وتصبح لها طعاما ، وهكذا وضعت الانثى خطتها ، وعلى الذكر ان يكد ويسعى ، وقد يصل اليها ، او قد تأتيه مصيبة فى الطريق ، فيصبح قربانا على محراب الحب أو الجنس .. لست أدرى !

لكن الحديث عن الجنس لا ينضب ، والكلام فيه لا ينتهى ، اذ يكفى أن نذكر بهذه المناسبة حديثنا مع مجموعة من الاصدقاء عن امور تتعلق بالعلم والحياة ، وتشعب الحديث حتى وصلنا الى أسرار الجنس عندنا وعند الكائنات الاخرى ، وذكرنا – ضمن ما ذكرنا – قصة الحمار مع الحمارة ، والكلب مع الكلبة ، واناث الانواع الاخرى مع ذكورها ، وكيف ان الانثى تستخدم عطرها الطبيعى لتجذب الذكر او تستثيره ، ولقد علق على ذلك احد

الظرفاء وقال : ليت لنسائنا ما لهذه الحشرات ، عندئذ كنا لنريح ونستريح ، والمعنى طبعا فى بطن الشاعر او العالم ، فهو يقصد ان تكون لانثى البشر غدة تفرز عطرا جنسيا طبيعيا ، بدلا من تلك العطور الخارجية التى تستهلك جزءا من الميزانية المنزلية ، ثم أننا – على حد قوله – فى حاجة ماسة الى هذا العطر المثير ، بعد ان نضب المعين ، وحل الفتور محل الحبور ، او الزهد محل الرغبة !

ويعلق ظريف آخر على ذلك فيقول : ربما كانت هناك رائحة جنسية تطلقها اناثنا ، لكن انوفنا لم تتطور بما فيه الكفاية ، حتى تلتقط ما يثير فينا الرغبة التى بدات تذبل وتذوى ، ولما لم تجد نساؤنا فى انوفنا خيرا ، استعانت عليها بعطور علها تبعث فينا النشوة .. وهكذا يتبين لكم ولنا ان لكل مادة من عاداتنا جذورا حشرية ، وحميرية قديمة .. والله اعلم !

وأيا كانت الامور .. فلقد منحنا الله العيون ، لتغنينا عن الانوف ، كما منحنا العقول ، لندرك بها معانى الجمال ، ثم زودنا بالارادة ، لكى لا ننهار امام مواكب الاثارة ، وهى – فى الواقع – مواكب متجددة متغيرة تهتز بمفاتنها امام أعيننا ، فلا نستطيع لها صدا ، ولا لجاذبيتها بعدا !

لكن دعنا من هذه الجلسة « الرجالى » التى تتميز بالبرود والمناقشات والتعليقات التى تقرف النفس ، وتصدع الراس ، ولنذهب الى ركن بديع للغرام بناه احد الذكور ليستضيف فيه ما يشاء من الفتيات .. فهل تريد أن تحضر معنا ، لتشهد امورا مثيرة لم تطرا لك على بال ؟ .. اغلب الظن انكم سترحبون بذلك ، لنمتع النفس ونبتعد عن كل ما نلقاه فى حياتنا من هم وغم ونكد ومسئوليات .. لا هى ممنوعة ، ولا هى مرغوبة .. اذن ، فليكن ذلك ، وعلى بركة الله نسافر !

• • •

علينـا الآن أن ننطلـق الى استـراليا أو كوينزلانـد .. بالخيال لا بالجسـد ، والخيـال ينبت من العقـل المدرك فى الانسـان لا الحيـوان ، لكن ذلك لا يعنى اننا سنقـدم ركن غرام خياليـا ، بل سنعيش بضع لحظـات من واقع الطبيعة الحية ، ولنتقابل هناك بذكـر من الطيور القريبة الشبه بالببغاوات ، ولقد اختـرناه هنا لانه ــ والحق يقـال ــ من أغرب الطيور التى درسها العلمـاء ورمقوها بدهشة واعجاب ، فذكرنـا هذا له مزاج فنان ، او طبيعـة عاشق ولهـان ، لانه يشيـد لنفسه عريشة او خميلة او استراحة او ركن غرام .. لسنـا فى الواقع ندرى اى الاسماء نختـار ، فقد تقولون انتـم مثلا : لماذا لا نسميه عشا ، خصوصا وان الطيور تشيد لنفسهـا اعشاشا ، لتضع فيها بيضا ، وليس هناك داع لذكـر كل هذه الاسماء الحلوة التى عرفهـا الانسان دون الطـير ؟

لكن ذلك ليس صحيحـا فى حالة طائرنـا هذا ، فهو لا يبنى عشـا بالمعنى المفهـوم ، ولكنـه يقيم على الارض قطعة فنيـة من عريشة أو خميلـة خاصـة ، لا لتكون بيتـا للزوجيـة ، او لتضع فيهـا الانثى بيضهـا ، ولكنه ــ فى الواقع ــ يبنيهـا « لمزاجـه » الخـاص .. فعش الزوجيـة شيء ، وعش الغـرام شيء آخـر ، فللطيـور امزجـة ، كمـا للبشر امزجـة .. والانثى فى ذلك هى القاسم المشترك الاعظـم ، ولها النصيب الاوفى !

والواقع ان طائرنا هذا يعرف باسـم طائـر العريشـة او الخميلة او « الخص » (Bower Bird) تعـددت الاسمـاء ، والمعنى واحد .. لكن قد تغيرون رايـكم فيما بعـد ، وتختـارون لركن الغـرام هـذا اسماء اخـرى تساير الغرض الذى انشىء من اجله ، ولكن بعد ان نقـدم لكـم شيئا عن « هبالته » مع فتياته ، ثـم ولعـه باستقبالهن فى ركنـه ، فمزاج هذا الطائـر ، او سعيه لتشييد هذا الركن العجيب ليس فنـا مجردا ، او مزاجـا غريبا

بدون هدف ، بل له ارتباط وثيق بهرمونات الجنس .. فالتجارب التى اجراهـا العلماء على ذكور هـذه الانواع من الطيـور تؤكـد هذا المعنى ، فلو جئنا بذكر صغير ، وأزلنا له خصيتيه ، ثم تركناه حتى يبلـغ مبلـغ الفتيان من الطيور ، فلن يفكر اطلاقا فى بناء مثل هذا الركن او العريشة .. فما فائدته ، وقد غاب عنه المحرك الاول .. لمعنى غريـزة الجنس ؟

ان الطيور لا تفكر فى تلك الغريزة الا فى فصول خاصة ، ولذا فهى عندها موسمية ، وعندمـا يحل موسمهـا ، نجد ذكور طائر العريشة ــ التى كـانت تعيش فى جماعـات يـؤلف بينها الـوئام والانسجـام ــ قد بدأت تتفـرق وتنفصـل ليستقـل كـل ذكـر منهـا بنفسـه على قطعة من الارض التى يعتبرها بمثابـة ملكيـة خاصـة ، فلا يصح لذكـر آخر أن ينافسـه فيها ، أو يشـاركه فى حدودهـا ، وكأنمـا الذكور هنـا تسير على مبـدأ « ابتعد عما يجرح شعور جارك ، ليكون كل واحد فى حاله ، دون ان ترقبـه عيـون الفضوليين من الذكـور » .. ذكور الطير .

ويبدو ان للانثى عند الذكـر هنا مقاما كبيرا ، ومن اجل هـذا نراه يشتغل بالليـل والنهـار ، ويكد ويجتهـد الاسابيع تلـو الاسابيع ، ويبدأ فى جمـع الخامات المحلية التى سيبنى بهـا ركن الغـرام ، فتراه يطير هنا وهنـاك ، ليجمع سيقان النباتات، وفروع الاشجار الصغيرة ، وبها يعود واحدة فواحدة الى الموقع الذى اختاره ، ويبدأ فى غرسها فى الرمال الواحدة بجوار الاخرى ثـم يثبتهـا فى اماكنهـا بقطع صغيرة من الحصى والاحجار ، وهـذا مجهود لاشك جبـار ، اذ يكفى ان نذكـر ان احـد العلمـاء قـد احصى لواحد من هـذه الطيور اكثر من ثلاثة آلاف قطعة من نبات والف قطعة من الحصى والاحجار ، ويعنى هذا انـه قـام بأربعـة آلاف رحلـة او مشوار .. وشيئـا فشيئـا تقوم الاركـان من الخميلـة او التعريشـة ، ولتنتهى فى النهايـة بصفين متقـابلين

ومتلاصقين من اعشاب تمتد على ارضية ذات ظل ظليل ، وعلى الارضية تنتشر بقع ضوئية لتبدو عليها كالدنانير .. ولكل خميلة بابان متقابلان ، قد يتجه احدهما جهة المشرق ، والآخر جهة المغرب ، او قد يتجهان ناحية الشمال وناحية الجنوب .. كل هذا يتوقف على المناخ السائد فى المنطقة ، وعلى نوع الطائر الذى يشيد العريشة .. فمن المعروف ان لهذه الطيور انواعا كثيرة ، ولكل نوع منها فنه وتكتيكه ومزاجه « واتيكيته » فى استقبال الفتيات !

لكن ما شيده الطائر حتى الان ليس فى الواقع شيئا مذكورا فى اصول العمارة او فى فنون الديكورات .. فكما نميل نحن معشر البشر الى الوان خاصة ، وكما تجذبنا اذواق معينة ، كذلك كان الحال عند ذكور هذه الطيور التى ظهرت قبلنا بعشرات الملايين من السنين .. فالذى بناه الطائر ليس الا هيكل العريشة ، وعلى هذا الهيكل يبدأ فى عمل ديكورات غريبة او لوحات عجيبة ، مستخدما فى ذلك بعض الخامات المحلية التى قد تصادفه وهو يتجول باحثا عنها فى كل مكان .. وهو هنا كالانسان الفنان الذى يحب جمع التحف بعناية تامة ، ثم يضع كل قطعة فى مكانها المناسب ، ليبدو كل شىء متناسقا وجذابا .. وكذلك تفعل هذه الطيور على قدر امكانياتها بطبيعة الحال !

ولو قدر لك واطلعت على سلوك هذه الانواع ، وصبرها ومثابرتها فى تجهيز ركن غرامها الذى ستستقبل فيه فتياتها، لعرفت قيمة الانثى عند الذكر ولادركت كيف سخرت الحياة من ذكورها بأساليب مختلفة ، لتهيىء للاناث ما تقر به اعينهن ، وترضى به نفوسهن .. فذكر طائر العريشة قد يقضى الاسابيع الطويلة وهو يعتنى بالخميلة .. اذ تراه يذهب كل يوم لاحضار زهور وثمار وأوراق ذات الوان خاصة ، ويلصقها على جدران خميلته، ثم قد تلاحظه وهو يبتعد قليلا ، وكأنما هو يرمق من بعيد

هذا الديكور الجديد ، فاذا لم يعجبه ، قفز على الارض قفزات سريعة ، ليقترب من العريشة فيغير نظام الديكورات .. لكن الغريب ايضا انه كلما ذبلت زهرة او ورقة او ثمرة ، واصبح منظرها غير مناسب او ملائم ، انتزعها من مكانها ، ووضع بدلا منها شيئا طازجا !

اغرب من ذلك ان ذكور طيورنا هذه لا تهتم فقط بزينة الخميلة ، بل عليها ان تجهز ارضيتها بديكورات ليبدو كل شىء رائعا جميلا .. فامام مدخلى الخميلة ، او فى داخلها تنشر اشياء غريبة ذات الوان متقاربة .. فهناك طيور تميل الى الالوان الحمراء ، ولهذا تجد ارضية ركن الغرام مزينة بورود وشرائط وورق وعلب واصداف وثمار وزراير وقطع قماش وريش .. الخ ، وكل الوان هذه التشكيلة العجيبة احمر فى احمر .. اما اذا كان النوع يميل الى اللون الابيض ، فسوف تجد على الأرضية كل ما هو أبيض لامع ، وربما تجد بينها شوكا وملاعق وسكاكين صغيرة وفوطا بيضاء وساعات واصدافا وقطنا وعظاما وقطعا من المرايا .. الخ ، المهم انه .. « كله ابيض فى ابيض » وقد تتعجبون وتتساءلون : ولماذا الشوك والملاعق والسكاكين والفوط ؟ .. ولماذا وكيف احضرها ؟ .. وهل سيقيم للفتيات وليمة ؟ .. او هل سيهدى احداهن ساعة من الساعات الموجودة على ارضية الخميلة ، او سوارا معلقا على جدرانها ؟ .. الى آخر هذه الاسئلة .

الواقع ان الذكر هنا لا يعرف معنى هذه الاشياء ، ولا يدرك ماذا يمكن ان تستخدم فيه ، ولكنه يريد ان يجمع اكبر واعظم تشكيلة من الادوات التى يميل اليها مزاجه ، ويبدو ان احضار هذه المجموعة اللامعة قد يساعد على اجتذاب الفتيات عندما تنعكس عليها اشعة الشمس ، وترتد الى اعينهن ، وتوجههن الى مكان الخميلة ، وطبيعى أن وجود هذه

الديكورات الحديثة لم تظهر فى خمائل هذه الطيور الا بظهور المدنية الحديثة للانسان ، ولهذا قد يحدث احيانا ان تغيب بعض ادواته المنزلية دون سبب ظاهر ، ولو حدث ذلك عندنا لقلنا ان هناك عفريتا من الجن يسطو على اشيائنا ويسرقها ، ولكن العفاريت لا توجد الا فى خيالاتنا ، وايا كانت الامور ، فان اهالى المناطق التى يسكنها طائر العريشة او الخميلة يقولون : اذا فقدت شيئا ، ولم تعرف لاختفائه سببا ، فعليك أن تذهب الى المناطق التى تعيش فيها تلك الذكور ، فربما وجدتها بين ممتلكاتها ، لتزين بها اركان غرامها !

والوصف ـ طبعا ـ غير الرؤية .. لاننا مهما وصفنا هذه الذكور ودابها على العمل ، فاننا لا نستطيع ان نوفيها حقها ، لكنك لو رايتها ، وراقبت افعالها ، وهى تنظم وترتب وتعيد وتغير أوضاع ديكوراتها ، لهتفت وقلت على الفور « وتلك امم أمثالنا » !

لكن .. لماذا تفعل الذكور كل هذا ؟

نوع آخر من انواع الاختيار الطبيعى .. فجمال الخميلة هنا ، وحسن ترتيبها ، وفخامة بنائها ، وتنوع ديكوراتها ، تعكس ـ بلا شك ـ ذوق صاحبها ويسار حاله ، الا اننا لا نستطيع ان نقول ذلك بالنسبة للطيور .. لان طائر العريشة مثلا ليس لديه رصيد فى البنوك أو انه يملك اطيانا وعمارات ، ولكن رصيده الحقيقى يتمثل هنا فى قوة احتماله وصبره على المكاره .. فركن الغرام الفخم جدا الذى يشيده بعض البشر دليل ملموس على ذوق صاحبه ، وستحكم على الفور ان كان مليونيرا او بليونيرا او حتى « ملليميرا » .. وسيدلك هذا على طبقته الاجتماعية التى ينتمى اليها ، وطبيعى ان الامير غير الصعلوك ، والذى يملك خير ممن لا يملك ، والاناث بطبيعة الحال

تميل دائما الى الاحسن والارقى .. لا تختلف فى هذا انثى طائر العريشة عن انثى البشر ، فالذى يهتم اكثر ، ويؤثث احسن ، ويكد اعظم ، يرتفع فى عين الانثى ، فهى التى ستحدد الذكر الصالح من الطالح ، أو الامير من الصعلوك .. وهى التى ستضع درجة الامتحان بعد ان تفحص ورقة الاجابة .. وهى هنا تتمثل فى ضخامة العريشة وحسن تنسيقها ، وتنوع ديكوراتها ، ولهذا تتبارى الذكور فيما بينها لتقديم مشروع العمارة ليس فقط على الورق ـ ولكن على الطبيعة لتفحصه الاستاذة ـ نعنى انثى الطير ، وقد يسقط فى نظرها ، او قد يصبح من الناجحين !

صحيح أن فتيات الطيور اذا مرت بالديار ـ ديار هذه الذكور ـ فلن تشهق وتقول « يا أختى عليه وعلى ذوقه ـ دا باين عليه واد لارج » .. ولارج كلمة بديلة تتردد هذه الايام على السنة من يتنكرون للغتهم ، وينتسبون الى كل ما هو اجنبى .. المهم أن « لارج » تعنى الكرم ويسار الحال والبذخ عندنا نحن معشر البشر ، والاناث عندنا تحب هذا النوع من الرجال « اللارج » .. وكلما ترددت هذه الكلمة على السنتهن ليمتدحن بها ذكرا « لارجا » ، كلما زاد غروره ، واتسابت نقوده ؛ وسالت ريالته ، واخيرا قد يخلو الجيب ، « ويتخرب » البيت ، وقد تمتد يده الى الاختلاس ، وقد يذهب الى السجن بتهمة النصب او السرقة او الاحتيال أو السطو على الاموال العامة ، وغالبا ما يكون وراء كل هذا انثى تضحك على الذقون بكلمات تثير الغرور ، ومن بينها كلمة « واد لارج » .. وتلك فى الواقع هبالة كبرى من الذكور ، ومن النادر ان تجدها فى الاناث ـ فعلى الذكور الدفع والمصاريف ، وعلى الاناث « الفرفشة والدندشة » !

لكن طائر العريشة لا يمكن ان يتهم بالسرقة او الاختلاس لو انه سطا على الاموال العامة والخاصة التى تتمثل فى شوك او

سكاكين او ملاعق قد يراها بالصدفة من خلال نافذة ، فيخطفها ويطير ليزين بها عريشته ، ولا يمكن ان يذهب احدهم الى الشرطة طالبا القبض على طائر العريشة لانه استباح ما ليس له فيه حق ، ولو فعل الانسان لاتهموه بالجنون ، او بانه اقل ادراكا من طائر الخميلة .. ذلك ان كل مخلوقات هذا الكوكب لا تدرك معنى الحلال او الحرام ، او الفضيلة او الرذيلة كما يدرك ذلك الانسان ، كما انها ليس لها دين تدين به (وماذا فعل أصحاب الدين بدينهم ؟) ، ولهذا فعليها ان تفعل ما تريد دون طمع فى جنة او خوف من نار ، وما اكثر ما يشقى اهل العقول بعقولهم !

اذن .. فلقد جهز كل ذكر عريشته ، وزينها بما تيسر لتكون بمثابة ركن خاص ، او « رست هاوس » يستضيف فيه الفتى من الطيور فتيات بنى جنسه .. يعنى جلسة حلوة كجلسات اصناف خاصة من ذكور بنى آدم .. وكلما كانت الخميلة جميلة ، كانت اكثر جاذبية للفتيات ، وكانما كل ذكر هنا يتيه ويتباهى على اترابه بما يستقبل كل يوم من موكب العذارى .. ولا يمكن بطبيعة الحال ان يستقبل او يستضيف ذكرا مثله ، والا كانت المعركة .. ويالهبالة الذكور !

لكن لا يجب علينا ان نوصم ذلك الطائر بانه « زير فتيات » ، او انه ماجن داعر ، فهو ـ والحق يقال ـ برىء من هذا الوصف ، فجلسته مع الفتاة فى الخميلة ليست الا نوعا من الانس او الاستلطاف ليس الا .. فعندما تقبل عليه الفتاة ، نراه يستقبلها بصيحة عالية ، قد يكون لها معنى ، والمعنى فى بطن الطائر لا الشاعر هذه المرة ، فهى لا شك تعنى البهجة والترحاب ، او ربما تكون بلغتنا نحن « يا أهلا .. يا اهلا .. والف مرحب » !

ولكى يؤكد الذكر « لرزقه » الذى هبط عليه من السماء عظيم سروره وحسن حفاوته واستقباله يبدأ فى اجراء بعض

الطقوس والاستعراضات ، فيدخل من باب ، وبسرعة يخرج من الباب الآخر ، ويدور حول الخميلة ، ثم يصيح ، وكانما يقول « يا حلاوتك يا جميل » .. ثم يدخل ويخرج ويصيح ، ويقف ليلتقط بعض ديكوراته بمنقاره ، ويقذف بها فى الهواء وكانما لسان حاله يقول « كل هذا من اجلك يا حلوة » ! .. ويبدو ان بعض هذه الحركات قد ورثناها عن ذلك الطير الذى سبقنا فى الظهور على هذا الكوكب بعشرات الملايين من السنين ، فعندما يثار بعضنا بأمور تفقدنا بعض صوابنا ، نرانا نقذف فى الهواء ما بأيدينا من اشياء .. تماما كما يحدث مثلا فى مباريات الكرة عندما يحرز احد الفريقين هدفا فى الآخر .. وفى كلا الأمرين « هبالة » !

ويستمر طائرنا هذا فى حركاته واستعراضاته ، ويتكرر المشهد امام الانثى التى تجلس فى هدوء وهى ترمقه باعجاب او احتقار ، لسنا ندرى ، ولكن الذى ندريه ان الفتاة قد تتركه احيانا وتطير ، وكانما هى «لاتستخف» دمه ، او انه ليس ذكرا «لارج»،لا فى حسن الاستقبال ، او جمال الاداء ، او احيانا اخرى قد يأتيها المزاج ، فتقوم وتدور وراءه ، ويدور هو وراءها ، فيدخل هو من باب ، وتدخل هى من باب آخر ، ويستمر هذا اللف والدوران والصياح من الذكر ، وكانما هو قد أصبح محطم قلوب العذارى ، ومالك زمامهن ، وبعد فترة تجلس انثى الطير لتستريح ، وقد يقدم لها الفتى شيئا من الثمار المعلقة على جدران العريشة ، فتاكل وتبقى معه يوما او بعض يوم ، ثم تتركه وتطير دون كلمة او صيحة فراق ، فينظر اليها الذكر وهى تبتعد ، وقد تنطلق منه صيحة خافتة فيها حسرة ، وكانما هو يقول : عليك اللعنة ، او كانما هذا الذى تفعله اناث الطير نوع من « الاستقطاع » او الاستغلال او الاستغفال لعالم الذكور .. فالخميلة بالنسبة للانثى مكان فيه أكل وتسلية وأمان وجلسة

مريحة ومزاح على خفيف مع ذكر مخبول خير من حياتها فوق أغصان الاشجار .. فظل طائر ، ولا ظل غصن ، او كما يقولون عندنا « ضل راجل ولا ضل حيطة » !

وتستمر هذه المضيفة العجيبة اسابيع طويلة ، وفيها قد يستقبل الذكر الواحد عشرات او مئات الفتيات فى الموسم ، وقد يرزق فى اليوم الواحد بمثنى وثلاث ورباع ، وفى أيام أخرى لا تأتى الرياح بما تشتهى السفن — وطبعا كل ذكر وشطارته او هبالته — كما يتراءى لك ، ولكنه لا يكل ولا يمل من استضافة الاناث ، فمجالستها ومغازلتها واللعب معها لا شك أمور حلوة ومثيرة ولذيذة .. وهكذا فقد أصبح للطيور امزجة كأمزجة البشر !

لكن .. ماذا يستفيد الذكر من كل هذا ؟

سؤال لا شك خبيث .. انه على اية حال لا يستفيد شيئا مذكورا ، فهو لا يستطيع أن يقرب اية فتاة او ان يعاشرها معاشرة زوجية ، ولا يحظى منها حتى بمجرد قبلة .. ان كانت بين الطيور قبل واحضان !

ولماذا كل هذه الحركات الغريبة والمثيرة اذن ؟

الواقع أن العلماء لم يستطيعوا ان يقدموا تفسيرا مقبولا .. ويبدو — والله اعلم — أن ذلك قد يكون بمثابة مقدمة طويلة لابراز مؤهلاته الجنسية ونموها شيئا فشيئا ، وربما ينعكس هذا السلوك الذى يتميز بالحركة والنشاط « والانبساط » والانفعالات الى ظواهر فسيولوجية تؤدى الى نضج غدده الجنسية حتى يحين حصادها ، وفى النهاية تأتى من تحصدها ، والذكر « اللادرج » هو الذى يستقبل اكبر عدد من الفتيات ، وتبدأ فترة ممارسة الجنس والتلقيح ، ومن تلقحت تترك « رست هاوس » الغرام ، وتنطلق الى قمم الاشجار ، حيث تضع بيضها فى

عشها الذى أقامته من أجل اولادها ، وبعد ان يفقس البيض ، ويشتد عود الصغار ، تنزل بهم أمهم من فوق الاشجار ، وتذهب معهم الى استراحة الغرام .. اية استراحة تشاء ، فلا احد يعرف فى هذا العالم أن كان الذى يوجد فيها هو ابوه او عمه او خاله أو جده او اى طائر آخر لا يمت للعائلة بصلة ، ولكن الشىء المؤكد ان التى معهم هى أمهم ، وبهذا تستولى على عريشة الذكر ، وتصبح استراحة لها وللاولاد ، ويبقون فيها اسبوعا أو اسبوعين حتى يصيروا طيورا يافعة ، تستطيع الاعتماد على نفسها .

اما ذكرنا الذى كان قبل ذلك دائم المغازلة والتودد والصياح بما يستقبله من مواكب العذارى كل مساء وصباح ، فقد حل به القرف ، وفقد الاهتمام ، وانطفأت فيه حرارة الحفاوة ، ومظاهر الشقاوة ، وماله الان فى الغرام من مزاج ، فيطير ليتسلى مع سرب من اسرابه ويترك الام مع عيالها ، ويودع خميلته بصيحة عالية ، وكأنما هو يقول « باى .. باى .. والى اللقاء فى عام قادم » .. وبعدها ايضا تترك الام والاولاد عريشة الغرام ، وينفض المهرجان ، ويخلو المكان ، بعد ان كان بمثابة ساحة عظيمة لأعظم واغرب واقدم « تكية » تقيمها الذكور للعذارى ، لتوضح لنا قصة من قصص « هبالة الذكور » على اليابسة !

ولننتقل الآن من تلك اليابسة لنقدم صورة اخرى غريبة من عالم الماء ، وفى الماء ايضا يحدث كل ما هو مثير وعجيب ، ولكننا لا نراه لاختفائه عن عيوننا !

• • •

ضيفنا الجديد يمثل لنا نوعا من الاسماك التى تعيش فى أسراب أو جماعات ، وتختلط فيها الذكور بالاناث .. لكن بدون

معاكسات أو مغازلة ..وهذا النوع يسمى « ابو شوكة » .. وله فى الواقع ثلاث أشواك ، ولقد اختاره هواة أسماك الزينة لتربيته فى الاحواض .. والمعروف ان هذا النوع من الاسماك يعيش مع بعضه فى سلام ووئام ، لكن ما ان يحل فصل الحب والتزاوج ، وتظهر شرارته ، فانها تظهر دائما بين الذكور ، وعندئذ يتحول تجمع شملها الى فراق ، وصداقتها الى عداوة ، ووداعتها الى افتراس ، ولابد ان يهجر كل ذكر سربه الذى كان يعيش فيه ليهيىء لنفسه « كوشة » او عش زوجية ليستقبل فيه عروسه ، فنراه يحفر بفمه فى الرمال ، وكأنما يشق فيها خندقا ، ثم يحضر الاعشاب المائية ، ويضع العشب بجوار العشب ، ويفرز عليه مادة لاصقة ، حتى تتماسك الاعشاب ، ولا تتبعثر بالامواج ، وفى النهاية ـ وبعد ايام من العمل المتواصل ـ نراه وقد اقام مخدعا مناسبا كالنفق الصغير ، لكنه يفى بالغرض الذى انشىء من أجله .. فذكرنا هنا عملى ، وهو لا يميل الى تلك الامور التى يقوم بها طائر العريشة او الخميلة .. المهم ان الذكور دائما هى التى تقوم بالتأثيث ، اما الاناث فليس لها فى « وجع » القلب نصيب ، فمن يريدها ، فليهيىء لها مكانا وليؤثث لها بيتا ، والا فلن ينال منها الا الاحتقار الشديد ، وكأنما لسان حالها يقول « حب ايه اللى انت جاى تقول عليه » (مع الاعتذار لأصحاب الأغنية) !

لو قدر لك واطلعت على ديار هذه الذكور من الاسماك ، لوجدتها متباعدة عن بعضها بمسافات مناسبة ، حتى لا تتداخل الملكيات ، ويحدث ما لا يحمد عقباه .. ذلك ان الذكر العريس لا يحب ان يرى عريسا آخر يدخل فى مجال كوشته ، والا كانت المعركة ، وقد يكون الذكران صديقين حميمين ، لكن الصداقة شيء ، والجنس شيء آخر .. غريبة

امور هذا الجنس الذى يكوى ذكور ذلك الكوكب بناره ، ويفعل بها كل هذا العجب !

بعد أن ينتهى العريس من تجهيز كوشة العروس او مخدعها ، يبدأ فى تزيين نفسه ، ليكون مهيأ للمهمة القادمة ، وليبدو أمام العروس فى اكمل زينة ، وأروع مظهر ، رغم أن العروس هنا ليست مثله جميلة ، كما انها لا تهتم بنفسها مثل ما يهتم بنفسه ، ولكن الجنس قد يقلب فى عينيه معايير الجمال ، وقد يجعل القبيح جميلا ، فاذا انطفأت شرارته ، ظهرت الامور على حقيقتها .. وتلك مصيبة كبرى تشقى الذكور طويلا ، وتسعدها قليلا ، وكأنما الانثى تخرج لسانها لها ، وكأنما حال لسانها يقول « تمام بريالة » !

طبيعى أن عريسنا هذا « ابو شوكة » لا يعرف شيئا عن المساحيق المتعددة الالوان ، ولا الكوافير ، ولا العطور او الملابس الجديدة ، ولا حتى « بدلة الفرح » .. لكن الطبيعة كانت معه كريمة غاية الكرم ، فلقد منحته أكثر مما منحتنا او حتى اكثر مما منحت نساءنا ، وياليتهن جئن مثله ـ مثل أبى شوكة ـ بماكياج طبيعى ، عندئذ لتبدل حالنا الى احسن ، ولوفرنا جزءا من ميزانياتنا وميزانيات العالم التى تضيع كل يوم على أشياء تظهر ثم تزول بالغسيل .. بلايين الجنيهات تصرفها نساؤنا سنويا على زينتهن ، لكن والحق يقال فهن يتزين من اجل خاطرنا ، « ورزق الهبل على المجانين » .. « ومن دقنه وافتل له » !

لكن « ابا شوكة » لا يمتلك شيئا مذكورا ، ومع ذلك فلا تحسدوه معشر الرجال والنساء على ما حباه الله من ماكياج طبيعى يسر الناظرين .. وما اعظم الجمال ـ جمال جاء طبيعيا ، لا صناعة فيه ولا تبرج !

عريسنا « أبو شوكة » كان قبل الزواج فتى لا يسر الناظرين ، فعلى ظهره سمرة وسواد ، وهذا ـ بلا شك ـ من الوان الحزن والحداد ، ولابد من تغيير هذا اللون واستبداله بلون آخر اكثر بهجة وحبورا .. وقد كان !

فاللون الاسود الذى ينتشر فى خلايا ظهره يتجمع على هيئة بقع جد ضئيلة ، فلا تكاد تظهر وتبين ، وتنتشر بدلا منها مادة كيميائية اسمها جوانين ، ويتحول لون الظهر بعد ذلك الى زرقة سماوية بديعة بها شيء من لمعان كلمعان الفضة .. وبجوار ذلك تنتشر على جسمه حمرة باهتة « كالماكياج الباهت » .. فتزداد توردا واحمرارا ، ثم ينتقل الماكياج الطبيعى الى العيون ، فاذا بها تتحول من سواد الى بريق ازرق يسحر العيون ، وهنا يتبختر عريسنا فى الماء امام كوشته ، وكانما الطبيعة قد البسته حلة بديعة الالوان ، وزينته وقدمته لانثاه كتحفة فنية بارعة ، وكانما هو يتبختر امام كوشته ويقول « يا ماء .. ما فيك الا انا » .

لكن الذى فعل فيه كل هذا مجموعة من الهرمونات ،من اهمها طبعا هرمون الجنس .. وهذا الهرمون العجيب يشتغل فينا ايضا بطريقة اخرى فيحولنا من نعومة الصبا الى خشونة الرجال .. وزينة الذكر منا هى رجولته وعقله .. وجيبه وما حوى ، ورصيده وما طوى !

نعود الان الى صاحبنا ذى الاشواك الثلاث ، وقد وقف كل ذكر امام كوشته ، وهو يتجول حولها فى انتظار وصول موكب العذارى ، ولكن قد يكون حظه نكدا او « دكرا » ، وما نكده الا ذكر آخر من نفس نوعه ، وكانما جاء ليسطو على كد غيره ، وعندئذ يقف صاحب الكوشة امام داره ، ويهدد هذا الطفيلى اولا بفتح فمه عن آخره ، ثم تتصلب

اشواكه ، لتبدو كالسيوف المسلولة ، وكانما هو بهذا الوضع يوحى الى القادم بان عضته قد تبعث به الى الآخرة ، او ان فى كل شوكة من اشواكه عزرائيل مقيما ، ولكن الذكر المهاجم قد لا يهتم بهذا التهديد ، عندئذ يقوم العريس بالاتيان بحركة غريبة ، فنراه يتجه براسه الى اسفل ، ويقف عموديا على الرمل وكأنه « خازوق » ، ثم يعبث بفمه فى الرمال ، والواقع اننا لا نعرف السر فى هذه العادة القبيحة التى قد تستمر فترة من الوقت ، ولكن الذى نعرفه انه يستمر فى ملاحظة الدخيل وهو بهذا الوضع المقلوب ، فان رآه لا يريد أن ينسحب من مجاله ، او ان يبتعد عن كوشته ، انطلق اليه وكانه صاروخ ارض جو ، ولابد ان ينتصر ، مادامت الملكية ملكيته ، والحق حقه .. ذلك ان الذكر الغريب جبان طالما هو بعيد عن داره او كوشته ، ولقد اجرى العلماء بعض تجارب لتؤكد هذه الحقيقة ، وظهر ان من له بيتا او وطنا ، يصبح اكثر جراة ، واعظم شجاعة امام الدار ، فاذا ابتعد عنها ، اصبح جبانا .. ذلك ايضا صحيح فى طبائع البشر والكلاب .. فالغريب غريب الدار او الوطن ـ كما يقولون !

المهم ان هناك بعض المعارك التى تحدث بين الذكور ، ثم تستتب الامور ، وتظهر فترات الحب والانتعاش ، وتبداها الفتيات اللاتى يأتين سابحات متهاديات ، ثم تتجول هنا وهناك بين دور الفتيان ، وقد تقضى النهار فى التسكع والفرجة « والبصبصة » على موكب الذكور ، ومهرجان الذكور ، وهبالة الذكور التى يسعدها حضور هذا الحشد العظيم من العرائس التى جاءت الى عرسانها حوامل ، رغم انه لم يطمسها قبلهم انس ولا سمك ولا جان ، ولكن الاسماك حوامل « بالبطارخ » التى تمتلىء بيضا ، والبيض يحتاج الى تلقيح ، والتلقيح لا يتم

هكذا فى الخلاء ، بل لابد من تجهيز فراش للزوجية ، ومن لا فراش له ، فلا حق له فى اجتماع جنسى بالانثى ، ولا حب ولا ذرية .. لكن اجتماع الذكور بالاناث ليس جماعا بالمعنى المفهوم فى عالمنا او عالم الحيوانات الاخرى ، ذلك ان الذكور هنا تضع اناثها فى الكوشة (او فراش الزوجية) فى وضع مناسب ، ثم تدغدغها وتلاطفها حتى تقذف بويضاتها فى الماء .. وبالتحديد فى الكوشة التى تصبح فى الحال مهدا للانجال ، ثم يقذف الذكر بخلاياه الجنسية بالملايين ، ويتوه منها ما يتوه ، والقليل يهتدى الى بويضاته فيلقحها .. وكل هذا يعنى ان « ابا شوكة » ليس له مؤهلات ذكورة ، ولا للاناث مؤهلات أنوثة ، ومع ذلك فكل مخلوق قد يجد سعادته فى اشياء قد لا تعجبنا ، وسواء اعجبتنا او لم تعجبنا ، فان موكب الجنس والحياة لا يزال يسير على هذا الكوكب منذ مئات الملايين من السنين بتخطيط عظيم ، لا خلل فيه ولا فوضى ، وما اكثر الخلل والفوضى التى يعيش فيها اصحاب العقول !

نحن الان فى الماء أمام ذلك المهرجان الممتع .. للفتيات الحوامل الدلال والتمنع ، وللذكور الرقص والتودد ، الا ان رقصة الذكر هنا لها اصول ، وتسير على تقاليد شرحها قد يطول ، ولكنها تعنى بالنسبة للانثى اشياء قد لا نفهمها نحن فى لغة هذا العالم الذى يسكن الماء .. فهى نوع من السلوك الذى قد تحكم به الانثى على الذكر ، وفى عالمنا نحن توجد ايضا القصة نفسها ، فكثيرا ما نسمع من سيداتنا وفتياتنا نفس الحكم علينا ، فيقلن « يا أختى سيبك .. دا بلدى قوى » او قد يقال « دا جنتل ولطيف خالص » .. ورغم ان « البلدى » ـ نسبة الى بلدنا وتقاليدها ـ لا يعجبهن ، ومنه يسخرن ، الا ان ذلك قد يعجب الذكور فيقولون عنهن « البلدى يوكل » .. وهى لا شك أصالة من الذكور !

المهم أن الفتى الواقف أمام الكوشة ، اذا ما راى موكب العرائس يخطر ويتهادى ، فانه ينطلق نحوه وهو يثب فى الماء وثبة من وراء وثبة ، كوثبتنا نحن على الارض من فرط السرور ، ولكنه يكر الى كوشته عائدا ، وكأنما هو يفر منها هاربا ، أو ربما ليرشدها الى طريق كوشته ، لسنا فى الواقع ندرى ، ثم سرعان ما يدور متجها اليها كسهم مارق ، وفمه على آخره مفتوح ، وكأنما هو يريد ان يقضم العرائس قضما ، وتتكرر هذه الحركات التى قد تنفر منه بعض الفتيات ، وربما لو تحدثن كفتياتنا لقلن « ياسم على شكلك وعلى بقك المفتوح » .. المهم ان مجرد وجود موكب الاناث ، يطلق فى الذكور شرارة الهبالة ، وكأنما هى قد فقدت عقولها ان كان لها عقول ، وتبقى الفتيات فى حركاتهن « ثقيلات » وكأنما « يتمنعن وهن الراغبات » .. لكن مما لاشك فيه أن بعضهن قد يكون لديها الاستعداد ، فمن ارادته منها ، واعجبتها حركات ذكر من ذكورها ، فانها تسعى اليه ، وتتخذ وضعا متعامدا عليه ، وهذا يعنى الرضا والقبول ، وبسرعة يتجه الذكر الى كوشته ، ومن ورائه الراغبة ، وهناك يريها طريق الفراش ، فيضع راسه على عتبة الدار ، وكأنما يشير اليها أن تدخل فيها ، فتدخل برأسها حتى تبرز من الناحية الاخرى ، ويقف الذكر خلفها ، ليدغدغ ذيلها ، فترتعد الانثى رعدة خفيفة ، وكأنما هى به نشوى ، فتضع بويضاتها فى الفراش ، وبعد ان تنتهى يدفعها الذكر لتخرج الى غير رجعة ، ثم يدخل الى داره ، ليلقح البويضات ، ويثبتها فى مكانها ، ثم يصلح ما قد تهدم نتيجة لرعونة فتاته !

ويعود الذكر لينتظر موكب الاناث من جديد ، ويكرر الطقوس نفسها ، فتتبعه الى الدار أنثى ثانية ، وربما ثالثة ورابعة ، حتى تتكدس كوشته بعدد كبير من البويضات ،

وحسنا ان تكون له ذرية كثيرة .. فلا مدارس هناك ولا مواصلات ولا ملبس ولا مصاريف ولا مسئوليات جسام كالتى تقابلنا نحن من جراء تكدس السكان .. فزيادة الثروة السمكية والحيوانية نتيجة لكثرة الذرية يعنى خيرا لنا ، ورخصا فى الاسعار ، لكن يبدو اننا نتناسل بأسرع مما يتناسل السمك والطير والمواشى ، ولهذا زاد العرض فى البشر ، وانخفض فى اللحم ، فرخص البشر ، وارتفع سعر اللحم والسمك .. لكن دعنا من كل هذا ، فالكلام فيه يطول ، ولنعد الان الى ذكرنا ذى الاشواك الثلاث ، فهو الذى يقوم برعاية الاطفال ، اما الامهات فقد تركن له الحبل على الغارب ، وذهبن للتجمع من جديد فى أسراب ، ويبقى كل ذكر امام كوشته ، وقد فقد كل اهتمام بفتياته ، وبهذا تختفى دوافع الجنس تدريجيا ، وتحل محلها دوافع الابوة الرحيمة ، والرعاية المستديمة ، فيقف كل اب امام داره ، ليدفع الماء بزعانفه ، فيمر من خلال مهاد الانجال على هيئة تيارات حاملة معها امدادا مستمرا من الاوكسيجين المتجدد ، ويستمر الاب على هذا الحال اسبوعا كاملا ، حتى تفقس البويضات فى اليوم الثامن ، ومنها ينطلق الصغار ، لكنها لا تبرح مكانها الا بعد يوم كامل ، ثم تخرج من مهادها لتجد اباها واقفا فى انتظارها ، وهنا تبدأ متاعبه الحقيقية مع شقاوة الصغار ، فقد يبتعد احدها عن اخوته ، فينطلق أبوه وراءه ، ويلتقطه بفمه ، ثم يعود به « ليبخه » بين اخوته .. كما أن رحمة الابوة قد تنقلب الى قسوة وشراسة ، اذا ما حل بمجاله ذكر آخر أو ام الاولاد ، ذلك ان الام هنا قد تأكل أولادها لولا يقظة عين الاب التى لا تغمض ولا تنام ، وهكذا تستمر التنشئة والحراسة لأكثر من خمسة عشر يوما ، وبعدها يكبر الاولاد قليلا ، ثم يبدأون فى التجول هنا وهناك ، لكن عين أبيهم لازالت عليهم حارسة ، وتمر الايام ، ويكبر الصغار ، وتتلاشى عاطفة الابوة شيئا فشيئا ، كما يبدأ فى

التخلى عن زينته وماكياجه الطبيعى يوما بعد يوم .. وكما بدأ عاد !

وفى النهاية يعرف ان الاولاد ليسوا فى حاجة الى الرعاية ، فها هو يراهم وقد لجأوا الى التجمع مع أسراب الاولاد والبنات الأخريات ، وهذا يعنى انهم قد بداوا فى الاعتماد على انفسهم ، وقد يقف كل اب ليلقى نظرة اخيرة على اولاده ، وكأنما هو يتمنى لهم ما يتمناه كل اب لابنائه ، وبعدها ينطلق الاباء ليلحقوا بالاسراب التى تناسب سنهم ، وينطلق الاولاد فى اسراب اخرى ، وهكذا ينفض المهرجان ، وتبقى الكوشات مهجورة ، ويحل بها البلى شيئا فشيئا ، ولكن لابد أن تعود يوما ، لتحكى لنا قصة رائعة من قصص حياة لا نراها ، وما أكثر ما لا نرى ، وما اعظم ما نجهل !

واخيرا .. فلتصفقوا معنا لهذا الذكر ، فلقد اثبت لنا عظم المسئولية ، وجلال الرسالة ، ولو كان الامر بأيدينا ، لأقمنا له عيدا !

• • •

ولنترك الآن عالم الخنافس والاسماك والطيور والكلاب والحمير ، ولنقفز فى سلم التطور قفزة كبيرة ، لنعيش بضع دقائق مع اقرب انواع الحيوانات الحية الى الانسان .. ممثلة فى القردة العليا (الشمبانزى والغوريلا والاورانج أوتان اوانسان الغاب) .. وفى القرود الدنيا ذات الأنواع التى يباعد بيننا وبينها مراحل تطورية عمرها عشرات الملايين من السنين .. بعضها ليس له ذيول مثلنا ، وبعضها بذيول !

ولناخذ واحدا من هذه الانواع كمثال ، وليكن القرد اليابانى ، وسبب اختيارنا لهذا النوع أن له تركيبا اجتماعيا معقدا ، كما أن مجتمعاته قد درست بشىء من التفصيل ..

ولننقل الان فقرة من مقال بعنوان « سلوك الذكر عند الحيوانات العليا ونظيره عند الانسان » (١) « حيث يذكر مؤلفاها »ان التركيب الاجتماعى للقردة اليابانية قد ينعكس فى انتشارها المتسع عندما تهدأ المجموعة وتستقر فى مكان الغذاء حيث تتكون فعلا حلقات اجتماعية فتحوى الحلقة الداخلية الصغار من كلا الجنسين مع جميع الاناث التى تتمتع خلال حياتها بالمزايا الخاصة فى هذه الدائرة الداخلية ، فتكون اول من يتناول الغذاء ، وتأخذ مكانا امينا وسطا كلما تجولت المجموعة ، ويرجع الفضل لهذا الوضع المركزى الاستراتيجى عندما تتمكن الاناث من ممارسة نفوذها الهام فى التنظيم الاجتماعى .. ويكون اساس التنظيم دائرة داخلية واخرى خارجية مع بعض الذكور المنعزلة وطريدة الجماعة ، وهذه تبقى خارج الحدود ، وعند التحرك تأخذ الذكور التى تعد فى المرتبة القيادية الثانية أماكنها فى مراكز أمام الجماعة وخلفها ، وتبقى نسبة ضئيلة من الذكور اليافعة فى الحلقة الداخلية ، وذلك بعد ان تكون قد قضت سنوات خارج حدود منطقة الجماعة ، فبعد بلوغها العام الثانى من العمر تخصص الذكور اليافعة لحراسة الحدود الخارجية لمنطقة الجماعة ، وتخدم فى عمليات الاستكشاف اثناء السير ، واخيرا قد يرقى الذكر الى رتبة مساعد قائد ، وعندئذ يعيش على حافة الدائرة الداخلية ، ويقوم برعاية الاناث الاقل مرتبة عند حدود المنطقة مراعيا عدم ابتعادهن او تخلفهن بعيدا اثناء سير الجماعة ، وفى النهاية قد يدخل الذكر وسط الدائرة ، ويعيش هناك كقائد لها

(١) مقال ترجمه الدكتور عماد الدين أبو النصر – الأستاذ بكلية العلوم – جامعة القاهرة فى الطبعة العربية من مجلة العلم والمجتمع .. تأليف كلير راسيل الإخصائية فى التحليل النفسى ، م . س . راسيل أستاذ البيولوجيا الاجتماعية (مطبوعات اليونسكو) .

يتحكم حتى فى تحركات الانثى البارزة فى الجماعة ، ولا يخرج الا فى حالات الخطر عندما يسترد الاشراف من مساعديه ، وتتقبل الاناث عادة رعاية الزعماء من الذكور ، ولو انه نظرا لان لها السلطة والتحكم فيمن يدخل منطقة الوسط .. فكثيرا ما تحدد اى الذكور تكون له الزعامة ، وكثيرا ما ترفض دخول الذكور الشرسة المتهجمة ، وفى احدى هذه الجماعات ثارت القردة ضد الزعيم الذكر وعزلته ونصبت بدلا منه ابرز الاناث زعيمة للجماعة كلها ، ويبدو انها قامت بوظائف الزعامة الطبيعية .. وهكذا تكون « دولة الحريم » فى مجتمعات القرود .

ويبدو لنا هنا سؤال وجيه : ما هى مؤهلات الذكور المحظوظة جدا حتى تختارها الاناث ذوات المكانة المرموقة فى وسط الجماعة ؟

والجواب كما يجىء فى مقالة راسيل وراسيل « لقد عرف عن هذه الذكور انها تحسن القيام برعاية الصغار ، وانه نتيجة لهذا تحصل على مراكز افضل بين الجماعة ، وتدعها الاناث لتأخذ لها مكانا فى الدائرة المركزية ، وعندما تكون الاناث على وشك الوضع تترك احيانا الصغار من نتاج العام السابق فى حضانة الذكور لتحضنها وتحملها وتنظفها وتحميها » !

ولنجعل التعليق على هذا الموضوع من عندنا هذه المرة .. فالاناث ذات المراكز المرموقة فى عالم القرود تختار الذكور القوية فى آن ، والمطيعة فى آن آخر ، وكأنما قد ضربت عصفورين بحجر واحد ، فاذا اظهر القرد التمرد ضربته وطردته من الجماعة .. اى ان الذكر لابد ان يكون ذا فائدة ومزايا كثيرة حتى يكون مرضيا عليه .. فالضعيف فى عالم القرود ليس مرغوبا فيه ، والقوى مرغوب فيه لقوته ،

لانـه سيورث هذه القـوة للاجيال القادمة ، كما انـه يستطيع ان يحمى الجماعة ، وفوق كل هذا فلابد أن يساعد الاناث فى تربية الصغـار .. اى انـه يشتغـل عنـدهن « دادة » .. ليكـون مرغوبـا فيـه !

هذا الفعل نفسه يظهر فى بعض مجتمعات البشر ـ خصوصا المجتمعات التى يصبح فيهـا للمـراة العاملة مكان مرمـوق .. فالزوج المطيـع افضل عندها من الزوج الذى يظهر عليـه التمرد والانفة من المشاركـة فى اعمال البيت ، بحجـة انه رجـل .. عندئذ قد تلعنـه سرا او علنـا ـ على حسب قدرتهـا فى كبـح جماحه .. ونحن شخصيـا نعرف عددا لا بأس بـه من الازواج الذين قـد يشاركون فى اعمال البيت عموما ـ بما فى ذلك المطبخ .. وقـد تفخر الزوجات بذلك ، وكانما الزوج الذى يعرف شيئـا عن التدبير المنزلى افضل ممن لا يعرف شيئـا ، وقـد تسمـع منهن هذا التعليق او شيئا قريبـا منه فيقلن « دا جوزى امـير ومتعاون وبيموت فى حبى خالص » ! .. ولو علمت حقيقـة مـا يجـرى فى نفسـه لضربتـه علقة ساخنة كل صباح ومساء !

ما اشبه بعض اناث البشر ببعض اناث القرود !

ولنـا مع القـرود عودة !

ذكور تسود .. وأناث تدلل!

لـو انك لاحظت طوفـان البشر ومجتمعاتـه ، ثـم تأملت سلوكه ، ودرست تصرفاته ، لاستطعت ان تحكـم من منـه قد تزوج ، ومن منه لا يزال فى مرحلة الخطوبة والعسـل والحب .. او مـا فوق ذلك ، او ما دون ذلك .

والذين ليست لديهـم حنكة أو فراسـة ، فسـوف نيسر لهـم سبل الملاحظـة والدراسة ، ولنأخذهم معنـا الى مـكان ؛ وليكن ذا جـو شاعرى يوحى بالبهجة والبشر والسرور والحب ؛ ولنـراقب ـ بوعى ـ سـلوك البشر من الجنسين (اى الذكـر والانثى) ، وهـم يتوزعون على موائـد تنتشر بين الزهور ، وفى ظـل الخمائل والاشجار ، ولنتخـير من يجلسـون مثنى مثنى ، وليكونوا من الشباب او متوسطى السن ، ولا شأن لنا بمن هـم فى سنى الشيخوخة والكهولة ، فلهؤلاء احكام لا تدخل ضمن تلك الدراسة .. فمـاذا سنـرى ؟

قد نرى فتـورا .. او قـد نلحظ حبـورا ، او مـا بـين ذلك تـكون الامـور !

فاذا رايت الذكـر يتكلم كثيرا ، والانثى قليلا !

واذا لاحظت انه يميل ويقترب منها باعا ، وهى تتمنع بدلال وتبتعـد عنـه ذراعـا !

واذا شاهدته وكأنما هو فيها قد ذاب ، وعن الوجود قد غاب ، أو كأنما ليس فى الدنيا غيرها ، ولا يرى فيها احدا سواها !

ثم اذا رايتها وهى تنطلع اليه ، مركزة عينيها عليه ، ثم تهز راسها بخفة ورشاقة ، وكأنما هى توحى له بأنها بوجوده نشوانة (او ربما غير نشوانة .. ويكون كله تمثيل فى تمثيل .. فالانسان مخلوق غريب ، يتساوى فى هذا الذكر والانثى ، وان كان الذكر فى هذا المجال اضعف) !

اذا رايت هذه العلامات البسيطة ، فاعلم ـ يا صاح ـ ان هذا الذكر لا يزال فى مرحلة التودد على الطريقة البشرية ، ولا تزال الانثى فى طور الدلال والتدلل على الطريقة الحوائية .. والتودد والتدلل يحملان صاحبيهما غالبا الى القس او المأذون ، فهذه الجلسة الحلوة تؤكد انهما لا يزالان فى اول الطريق ، وانهما فى دور الحب والهيام ، حيث يقضيان اسعد الايام ، وبعدها ستحل المسئوليات الجسام .. يروح العسل ، ويأتى البصل ، وكذلك يعبرون ويصفون !

ولنتجول بعد ذلك بعيوننا الفضولية (وليغفر الله لنا هذا التأمل البرىء والدراسة العابرة) ، ولنلتقط مشهدا آخر غير بعيد .. ذكر يجلس ساهما ، او يقرأ جريدة او كتابا ، وانثى معه تشتغل « تريكو » او تحيك فستانا .. الكلام قليل « وبالقطارة » ، وان كان كلام الانثى هذه المرة أكثر ـ نسبيا ـ من كلام الذكر ، ومع ذلك فالجلسة راكدة باردة ، يتخللها التثاؤب وعدم مبالاة احد الطرفين بالآخر !

اذا رايت هذه الحالة التى تشبه تليفونا مقطوع الحرارة ، فاعلم انهما متزوجان .. ربما حديثا أو لبضع سنين او اكثر من ذلك قليلا !

ولا تعليق لدينا عما يجرى على هذه المنضدة او تلك ، فنحن فقط ننقل صورة .. ربما تراها فى شارع او فى ترام او فى كازينو على شاطىء البحر الواسع ، او على شط النيل العظيم !

لكن .. ما اعجب المفارقات بين جلسة وجلسة ، وحياة وحياة !

وما اعجب المفارقات أيضا فى معرض الجنس والحياة .. فالغزل والتودد الذكرى ، والدلال والتدلل الانثوى ، ثم هذه العاطفة والآمال المتقدة ، او ذلك الركود والبلادة الظاهرة ، ليست الا امورا لها جذور عميقة تمتد الى الوراء عشرات الملايين من السنين ، وتنبثق اساسا من تودد وتدلل ظهر فى عالم الحيوان ، ثم ورثه ذلك الانسان الجالس فى كازينو على شاطىء النيل ، او فى الخلاء تحت شجرة توت أو تين !

لكن الانسان مخلوق ذكى خبيث ، فتارة يظهر غير ما يبطن ، وتارة اخرى لا يستطيع ان يفهم ذاته ، ومن هنا كان سلوكه معقدا .. فكل فرد منا ليس الا عالما قائما بذاته ، فلا يتشابه مخلوق مع مخلوق آخر فى الصفات والبصمات والسلوك والطباع والفكر والمزاج .. الخ ، كما ان كلا منا يتودد على طريقته الخاصة ، وللنساء التدلل على طريقتهن الخاصة ايضا .. وقد يكون التودد والدلال ساميا ، او قد يكون حقيرا .. او ما بين ذلك تكون الامور !

وطبيعى ان يكون لكل منا قصة حب او زواج او ربما قصص كثيرة ، ومن هنا لا نستطيع ان نتعرض لكل هذه « التابلوهات » الحية المعقدة ، والاحرى بنا ـ اذن ـ أن نلجأ الى صور ابسط من التودد والدلال ، بلا لف او دوران ..

ولنترك مجتمعات البشر ، ولنلجا الى عالم الحيوان .. ففى تودده ودلاله بساطة فى الاداء ، ولقد راينا بعضا من هذه الصور مع ابى جلمبو وطائر العريشة وذكر السمك ذى الاشواك الثلاثة .. الخ ، الا ان القصة لم تنته بعد ، ولنتعرض لفصول اخرى ، ليتبين لنا كيف نبعت عاداتنا فى الاستعراض والتودد للأنثى !

والواقع ان تودد الذكر ، ودلال الانثى ظاهرتان واسعتا الانتشار فى مملكة الحيوان ، فالذكر دائما يستعرض ويتقرب ، والانثى تدرس وترقب ، وقد ترفض وتقبل .. ولكل نوع من الانواع تقاليده وسلوكه مع انثاه ، وغالبا ما تكون للانثى قدسيتها واحترامها بين الذكور ، فقد يهين الذكر ذكرا مثله او قد يقتله ، لكن ذلك لا يسرى على الاناث .. فهن فوق العين والراس !

هل لاحظت مثلا حياة ذكر من الحمام مع حمامته ؟ .. هل رايت كيف يطوف حولها ، ويتمسح بها ، ويكنس الارض بذيله الذى انفرد على آخره ؟ .. ثم هل سمعته وهو يغنى لها اغنيات ذات مقاطع يستحق عليها ضرب النعال ؟ .. طبيعى أنه فى ادائه وغنائه واستعراضاته التى قد تستمر ساعات طويلة (ويا للصبر !) يظن نفسه الفتى الاول والمطرب الاول فى عالمه الذى فيه يعيش ، او انه ليس فى الامكان احسن مما كان ، ثم قد تراه وهو يسرع اليها ، ليدغدغ راسها بمنقاره ، واحيانا ما تسول له نفسه شيئا ، فيضع بسرعة شفتاه على شفتيها (نقصد المنقار) ، وكانما هو يقبلها على طريقته الخاصة .. وبالاختصار سوف تشاهد ذكرا ودودا متدلها فى حب « زوجته » التى لا ينفصل عنها ولا تنفصل عنه الا بالموت ، ومع ذلك فكما بدا معها حياته بالحب والتودد والاهتمام ، فانه يستمر فى مغازلتها هكذا

دون ان يكل او يمل او يتثاءب او يشرد ببصره الى الافق البعيد ، كما يفعل ذلك الجالس مع رفيقة حياته فى كازينو الحمام على النيل !

درس عظيم يلقنه ذكر الحمام لذكور البشر .. وحمدا لله ان نساءنا لا يرقبن ما يجرى هناك فى « العشة » فوق السطوح ، وعندئذ قد تكون مصيبتنا معهن ثقيلة وفادحة ، وقد تذهب احداهن يوما الى ساحة القضاء ، وقد تقول : هذا الذكر .. ذكرى ، لا يساوى ذكر حمام .. لقد كان قبل الزواج شيئا مذكورا ، وبعد الزواج شيئا غير مذكور !

ولها فى ذلك كل الحق .. ولتحيا ذكور الحمام ، وليسقط ذكور البشر !

ومع ان معظم ذكور الحيوان اجمل من اناثها ومع انها اكثر جاذبية ، واغنى الوانا ، واضخم بنيانا ، واعظم جلالا ووقارا ، ومع ان اناثها اقل منها فى هذه الامور منزلة (عدا اناث البشر بطبيعة الحال وكما يروق ذلك فى عيوننا لا فى عيون غيرنا) ، الا ان الذكر الحيوانى لابد أن يتباهى بفخامته ، ويستعرض مؤهلاته ويؤدى طقوسه ، ويقدم توددانه واحتراماته ، وعلى الانثى أن تتدلل .. حتى ولو كانت قبيحة المنظر .. حقيقة نسوقها لبنى جنسنا ـ عالم ذكور البشر ، فلابد من التودد اليهن بما تيسر .. كلاما كان ذلك او هدايا او نقودا او مسا ولمسا وقبلا وحبا وغراما وجنسا .. فالانثى ـ بلا شك ـ تحب كل ذلك او بعضه ، ولكل واحدة منهن مزاج ، فان توصلت انت الى لغزها وحقيقتها ، ثم استخدمت السلاح المناسب الذى يرضيها ، فاعلم انك من المقبولين ، وان كنت غير ذلك ، فانتظر اياما عبوسة قمطريرة ، ونكدا وهموما كثيرة !

صاحب الجلالة الاسد أعظم بهاء من اللبؤة .. الطاووس اروع وأبدع من الطاووسة ، التيس (ذكر الماعز) والكبش والديك والقرد والغزال والوعل وذكر الحمام والسمك والعصفور .. الخ .. ، كلها ذكور ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ اجمل بكثير من اناثها .. وعليك ان تراقب الديك وهو يصيح ويتبختر ، والطاووس وهو يدور حول الانثى ويستعرض ، وذكر الحمام وهو ينفش ريش ذيله على الارض كالمروحة ، والكبش وهو يتجول بين نعاجه ، والتيس وهو ينازل غيره من التيوس حتى لا تعتدى على حريمه .. ومن هنا فقد اتخذه الشاعر الاحمق كنموذج حى ليمدح به اميرا من الامراء ، فقال :

انت كالكلب فى حفاظك للود
وكالتيس فى قراعك للخطب

وعندئذ لم يعجب الامير ان يكون تيسا او كبشا او كلبا ، فأمر بضرب الشاعر علقة ساخنة .. وللامير فى ذلك بعض الحق ، لان الخروف او الكبش او التيس لا يعرف كيف يغازل انثاه ، ولا كيف يتودد اليها (طبعا لانه تيس او خروف ، ولانه ايضا ذكر اهبل) ، وربما نبعت السبة من هنا .. رغم انها ليست سبة كبرى ، اذ لو لاحظت التيس وهو يدافع عن معيزه او اناثه ، لكبر التيس فى عينك ، ولربما صغر امامك بعض ذكور البشر وهانوا !

والواقع ان اكثر صور الغزل والتودد والاسترضاء ـ بالحركة والنغمة واللمسة ـ تنتشر بين ذكور الطير والسمك انتشارا واسعا .. لكنها بين ذكور الطير اكثر جاذبية ، واجمل اداء .. ويبدو ان الاستعراض والتودد وما شابه ذلك له تأثير سحرى على الاناث ، لانه ـ فى الواقع ـ يغير فيها فسيولوجية الجسم ، ويثير هرموناتها ، ويهيئها للدخول مع الذكور فى عمليات الاخصاب .. ففى اناث الحمام مثلا

يتضح ان تكوين البيض يمر على الاقل بمرحلتين ، الر
الاولى : وفيها يتجمع زلال البيض ببطء شديد ، وفى المر
الثانية : تزيد بسرعة تكوين البيضة حوالى عشرين ضعفا ،
هذه المرحلة تظهر تغيرات اساسية وجوهرية فى كيمياء جس
الحمامة (او غيرها من طيور) .. فيزيد تركيز السك
الدم ، وتتضخم الغدة فوق الكلية (الغدة الكظرية) مع
من غدد تشارك بنصيب فى العملية ، ويبرع الكبد بتك
بروتينات خاصة لتساعد فى مكونات البيضة .. الخ ، وي
ان فترة التودد من الذكر والتدلل من الانثى (فترة الخطو
عندنا) تلعب دورا حيويا ونفسيا فى الاسراع بهذه العملي
البيوكيميائية ، كما قد تسرع ايضا بذكور البشر الى دخ
عش الزوجية !

والذين درسوا الطبيعة الحية يقدمون لنا صورا را
وبديعة لهذا العالم المثير .. عالم الطيور .. انه عالم
قبلنا على ساقين ، ويشترك معنا فى رقصات فردية وجماع
ولو شئنا الدقة لقلنا اننا نحن الذين نشترك معه فى رقصا
فلقد سبقنا فى الظهور على هذا الكوكب بعشرات الـ
من السنين !

ولنأخذ طائر الزرزور الوردى ose-coloured starling
حيث نراه مع اناثه فى وضع فردى .. وحولها يدور راق
فى خطوات قصيرة وسريعة ، والريش يهتز ويقف وينثنى ، و
ايضا يزقزق ويغنى ، وكأنه فى هذا يقلد احد افراد قب
الماو ماو ذوى الرقصات التشنجية المصحوبة بصخ
الحناجر ودقات الطبول ، والانثى عن صاحبنا الذكر لاهي
ويجن جنونه اكثر ، ويرقص اسرع ، ويتشنج اعظم ،
ترق لحاله ، وعندئذ قد تلتفت اليه بطرف عينها ، وقد
فى رقصته شيئا من الاثارة ، فتستجيب له بعد اهمال ، وتدور

ويدور حولها ، ويزقزق هو لها ولا تـزقزق هى لـه ؛ وشيئـا فشيئا تشتد حرارة الرقصة ، ويسرعان فى اللف والـدوران ، وفجأة يلحق بها ، ويقفز عليها ، ويروحان فى لحظة عسل حلوة ، وبعدهـا تتكرر الرقصة الفردية .. رقصـة التـزاوج ـ كما يطلق عليهـا العلمـاء .

الا ان هناك رقصة تبدأ فردية ، وتنتهى برقصة جماعية ، ويؤديها احـد انواع الطيور البحرية الكبيرة المعروفـة باسـم الجونيس (احـد انواع طيـور الباتـروس Albatross) .. وفيها يقف الذكر وجها لوجه امام الانثى وجناحاهما مفـرودان قليـلا ، وحولهما تقف مجموعة من الصحاب فى حلقـة واسعـة لتنطلق منهـا الصيحات « وطقطقـات » بالاجنحة تشبه التصفيق الذى نقـوم به نحن معشر البشر عندمـا « نسنجم » من جسـد راقصة تتلوى على خشبة المسرح كالحية . فنساعدها ونشجعها على المزيـد .. وكلما اهتزت اكثـر ، وتلاعبت بجسدها اعظم ، كلما انطلقت الصيحات ، وسالت االريالـة ، وزاد التصفيـق .. وعلينـا ان نعود الان الى هـذا الحفل الراقص ـ حفل الطيور !

فى البداية .. يرفع الذكر والانثى رأسيهمـا الى السماء ، ثـم يحنيانهمـا بسرعة الى الارض ، ليرفعاها من جديـد نحـو السمـاء ، وفيها يحتك المنقار بالمنقار ، وكأنهمـا يتبادلان قبلة سريعة قد لا تلحظها اعين الفضوليين ، وتعـود راس الذكـر الى الارض مارة تحت جناحـه الايمن تارة ، ثـم الى السمـاء تـارة اخـرى ، وبها يعود الى الأرض مارا تحت جناحه الايسر ، وكذلك تفعل الانثى ، وفى كل مـرة يتجهان فيها نحـو السمـاء ، يحظيان « بقبلة » خاطفة ، وتزيـد سرعة اداء الرقصة شيئا فشيئا دون ان تختلف حركة الساق مع السـاق ، ثـم تزيد تبعهما لـذلك حفاوة افـراد الحلقة ، فتصيح الطيور صيحات اعلى ، وتصفق تصفيقا اقـوى ، وكأنما قد حلت بها نشوة كبرى ، وقـد يـدوخ

الذكر او الانثى دوخـة عظمى ، فينسحب من داخ ، ويبقى من صمـد ، واليها يسرع احـد الطيور فى الحلقة ليرقص معها جولـة اخرى ، وقد تنتشر عدوى النشوة بين ذكور الحلقـة واناثهـا ، فيأخذ كل ذكر منها انثى ، تماما كما يحدث عندنـا فى حلقـات الرقص ، اذ تبدأ الرقصة بسيدة وسيد ، ثم تتوافد على الحلقة جموع الراقصات والـراقصين مثنى مثنى ، وتهتـز الاجسـاد هزات حمقى . ثـم تلتف الذراع على الذراع ، وتصطك السـاق بالسـاق ، وعلى انغـام الموسيقى ، وخفوت الاضواء ، وحلقـات الدخـان ، « وجـو » الشراب ، وحرارة الانفـاس ، تشتغـل الغدد وتنطلق الهرمونات فى دمـاء البشر ، كما تنطلق ايضـا بين الطيـور ، وكل مخلـوق بطريقتـه مفتـون ، ولا جديـد تحت الشمس ـ كمـا يقولـون !

ثـم يقدم لنا واحـد من علماء الطبيعة الحيـة ـ ادمونـد سيلـوس ـ صورة اخرى لنـوع من الطيـور (رف Ruff) التى تتميز ذكورهـا فى فصل التزاوج بوجود اطـواق ريشيـة بديعـة الالـوان حول رقابهـا ، وكأنما الطبيعـة تزين عرسانهـا بعقود طبيعية جذابة ، علها تجعل الذكور فى نظر الانثى مقبولة .. ولقد ظل سيلوس يراقب سلوك هذا النوع فصلا كاملا من فصول السنـة .. ففى فصل الربيع ـ فصل الحب والزهور والدفء والتفتح والهرمونـات ـ توزع ذكور هـذه الطيـور انفسهـا فى منـاطق معينـة تنتشر فى المـروج الخضراء ، واطلق على كـل منطقـة اسم « التـل » ، لانهـا ترتفع فوق سطح الارض عدة اقـدام ، وعلى كل تـل يعيش ما بين ستة الى عشرين او ربمـا ثلاثين ذكرا ، وتقوم كل مجموعة منها بأداء طقوس راقصة تدور فيها دورات مجنونة ، وتهتز هزات محمومة ، وكأنمـا هى جماعة من جماعات الدراويش المخبولة ، واحيانا ما تتظاهر بأنها تدخل مع بعضها فى الصراع او التقاتل او الملاكمة ، ولا شك انها تقوم بهذ

الحركات « الصبيانية » علها تنفع فى جذب الانثى . أو على الاقل تثير انتباهها .. وقد تحل « ريف » أو « ريفات » منها ضيوفا على احد التلال (ريف Reeve وريفات Reeves انثى هذا الطائر المعروف برف)، وهنا يتغير النظام ، ولابد للفتيان من القيام بجولة اخرى من جولات الاستعراض ، وبها يتوددون لى اناثهم ، علها تختار ما تشاء .. فالامر امرها ، والحكم حكمها ، بلا رحمة ولا استثناءات !

وعندما تحل ريف على تل الذكور ، فان كل ذكر منها يتخذ وضعا غريبا ، وكأنما هو على الارض يسجد ، أو على سطحها ينبطح ، أو كأنما هو مستسلم لقضاء الله وقدره ، نوع غريب من التودد . وفى هذه الاوضاع الغريبة يفرد جناحيه ، ويفرس فى التراب منقاره ، ويبقى كل واحد على هذا الحال وكأنما هو قد نوم تنويما مغناطيسيا ، وقد يستعرض الفتى منهم نفسه ، فيغير اتجاه جسده عله يأخذ وضعا أحسن ، لكن جناحيه يظلان كما كانا ، وكذلك منقاره . وقد تترك ريف كل هؤلاء الاوغاد ، وتطير الى غير رجعة ، ولكن بعد ان تكون قد القت عليهم نظرة ، وكأنما كل ذكر من هؤلاء لم يرق فى عينيها ، أو يستحوذ على اعجابها . أو ان اوضاعهم هذه ليست كافية ، بل ربما تريد اوضاعا اكثر توددا او انبطاحا واستسلاما وخنوعا .. لسنا فى الواقع ندرى ، لكن الذى ندريه ان هذه الريف قد تحط على تل آخر ، ويفعل الذكور مثلما فعل اسلافهم ، وتسير ريف بينهم ، وقد يعجبها رف من الرفوف (Ruffs) ، وعندئذ تلمسه بمنقارها ، وكأنما لسان حالها يقول « لقد اخترتك من كل الذكور ، فانت فتاى المرموق ، ولك قلبى وروحى وجسدى » !

ويقوم الرف عندما يعرف انه من المقبولين المحظوظين !

ويعلق سيلوس على ذلك ويقول : لكن الغريب هنا أن ذكور هذه الطيور قد جاءت بألوان مختلفة فى اطواقها ورقابها ، بحيث اصبح كل رف منها وحيد زمانه (اى فى « ديكوره » الحى الذى البسته له الطبيعة ، وقدمته لذلك الامتحان العويص) ولهذا كان اختيار الانثى لذكورها اختيارا غير متساوى .. ويضيف : ولقد كان هناك طائر منها قام بعمليات اخصاب اكثر من كل العمليات التى قامت بها الذكور الاخرى على التل نفسه ، ومما يذكر ايضا ان نسبة معينة من الذكور لم يسمح لها بالاخصاب على الاطلاق !

ولابد ان يسعد داروين ـ صاحب نظرية التطور والاختيار ـ لهذه الحالة كثيرا ، فنحن الان امام مشهد حى من اختيار الاناث لذكورها .. ولا شك ان الانثى لها نظرة فى ذكورها تختلف عن نظرتنا نحن اليه .. ونظرتها قد لا تخيب ، فهى تعرف كيف تنتقى الذكر الكفء ليورث كفاءته الوراثية للاجيال المقبلة ، اما الذكور المرفوضة فهى مخلوقات ضعيفة ، وعليها أن تفسح الطريق لمن هو احق بالبقاء .. للاقوياء !

ويقدم لنا ن . ج . بيريل فى كتابه « الجنس والطبيعة الاشياء » صورة حية اخرى عن نوع من الرف او الريف الذى يهاجر من آسيا وافريقيا ويصل الى اوربا فى فصل الربيع .. فعندما تنزل الانثى بين الذكور ، فلابد ان يقفوا لها جميعا مع تقديم التحيات الطيبة ، والتمنيات بالاقامة المباركة .. والرف لا يصيح ولا يزقزق ، ولكنه على اية حال يصفق للفتاة بجناحيه، ولقد اشاع مقدم الانثى بين الذكور كل بهجة وحبور ، فترى الفتى ينطلق الى فتى آخر ويهاجمه ، لكن بدون اصابات ، اذ يبدو ان ذلك نوع من « البروتوكول » الجنسى او التوددى ، أو ربما رقصة او « هبالة » ، او اى شئ آخر لا ندرى أسراره بعد ، ثم يهدأ الجمع ، وتأتى الذكور الى الانثى ، وتقف امامها

او حولها وقفة خاشعة مؤدبة ، ولكل ذكر وضعه الخاص ، فمنهم من يرفع جناحيه ، ومنهم من ينحنى ، ومنهم من ينفش ريشه الذى يحيط بعنقه كالطوق .. الخ ، لكن الكل مؤدب صامت خاشع ينتظر قضاء الانثى فيه ، وحكمها عليه .. وتأتى هذه لتلقى عليهم نظرة فاحصة ، وتتجول هنا وهناك فى خطوات ثابتة هادئة رزينة . وقد تتقدم الى احد الفتيان ، ويقع عليه الاختيار ، ولابد ان يحترم الذكور غير المقبولين رغبة الانثى ، ولابد أن يتركوا للفتى والفتاة « ارض » الزوجية .. وتلك هى « الحضارة » على مستوى الطيور ، ولا شأن لنا بالبشر ، فهم ادرى بأحوالهم !

ويعلق هـ . ج . ويلز ، و ج . هكسلى ، و ج . ويلز فى كتابهم « علم الحياة » على مثل هذه الامور ويقولون : أن الدافع لعملية اختيار الانثى لذكورها على طريقة تعدد الازواج (أو لاختيار الذكر القوى لعدد من الزوجات ، كالديك مثلا والدجاج) شىء هام فى هذه الطيور لانتاج أجيال قوية .. ربما اكثر فاعلية من ارتباط الزوج بزوجة واحدة (كما فى الحمام) .. اى ان التعدد هنا مرغوب .. ولكى لا نغضب نصفنا الآخر فلنسارع بالقول ونقول : فقط فى الطيور وغير الطيور ، وليس فى البشر ! (حد الله بيننا وبينهن) .

واذا كان هذا الاستعراض والتودد واظهار القوة من العوامل البيولوجية الهامة التى تؤدى الى اختيار المخلوق المناسب من بين اترابه ، وتقديمه للانثى المناسبة ، فاننا لا نستطيع ان ندرك السر فى تودد أو استعراض يقوم به ذكر من ذكور الحمام امام حمامته ، فهى له ، وهو لها .. بكل ما يعنى ذلك من وفاء واخلاص .. فلم كل وجع القلب هذا ؟

الواقع ان ما يقوم به ذكر الحمام أو غيره من طيور مشابهة ليس الا مدخلا نفسيا هاما لكى يهيىء به انثاه ، ويشير

فيها بعض العمليات الفسيولوجية التى تؤدى الى تضخم البيض، ثم السماح له بتلقيحها ، وهناك عديد من التجارب تؤيد هذه الاراء ، اذ يكفى مثلا أن تأتى بأنثى حمام صغيرة ، وتدغدغ لها رأسها على فترات كما يفعل ذكرها بمنقاره ، وعندئذ قد يتكون فيها البيض ، الا انها تضعه غير خصيب .

والواقع ان الحديث عن عادات الطيور وطقوسها ، وتودد ذكورها لاناثها ، من الاحاديث التى لا ينضب معينها ، فلكل منها عادات وتقاليد لا نكاد نحصيها عدا ، ويكفى هنا ما قدمنا ، وعلينا ان نستعرض صورا اخرى من حيوانات فى سلسلة التطور ارقى ، لكنها مع ذلك قد لا تكون ارقى فى التودد والمغازلة والاستعراض كما رأينا فى عالم الطيور !

والواقع ان الغزل والتودد فى الحيوانات الثديية التى ننتمى اليها ليس على المستوى نفسه الذى نجده فى الكثير من انواع الطير .. ذلك أن التودد فى الثدييات قد يكون من النوع الردىء ، أو قد لا يوجد على الاطلاق .. باستثناء الانسان .. ومع ذلك ففى البشر ضروب من الناس متفاوتة .. فمنهم من يتودد على استحياء ، ومنهم من يذهب فى تودده الى درجة الفحش وقلة الحياء ، ومنهم من لا يعرف كيف يتودد على الاطلاق ، وهؤلاء « كالانعام او هم اضل » .. فمن طبيعة الانثى ياقوم انها « تموت » فى التودد .. وفى التدلل ايضا ! (البعض يقول : ياعم بلاش وجع قلب ، هوه احنا فاضيين للكلام الفارغ ده ؟ !)

والواقع ان معظم ذكور الحيوان لا يستطيع ان يشاركها فى « حريمها » ذكر آخر ، وهى بهذا تسير على مبدا تعدد الزوجات ، ولكن بالعشرات وبالمئات ، وربما تكون بعض عاداتنا البشرية مشتقة من تلك العادات الحيوانية .. ونقصد بذلك ما كان يجرى فى الماضى (اى نعنى عهد جوارى السلطان

وحريـم السلطان) .. وعندمـا تطور ادراك الانسـان ، تخلى عن هذه الخصال .. لكنها لازالت تسرى فى عالم الحيوان .. ولقد رأينا صـورة منهـا فى الوعول والغـزلان ، ونراهـا فى الديوك والتيوس .. لكن ما خفى كان أعظم !

ففى سبع البحر وفيل البحر يأتى الـذكر قويـا مهيبـا ، وبضخامة فى الجسـم أكثـر من ضخامة الانثى .. وفى فصـل التزاوج يخرج السبع أو الفيـل من الماء ، وعلى شاطىء جزيرة مهجورة يضع الواحـد منها « يده » على قطعة أرض ويمتلكها ، ولا يسمح لذكـر آخر بالدخول الى وطنه او مجاله .. وعلى هذه الارض تفد الاناث ، وتضـع نفسها تحت تصرف الذكور .. وقد يحارب السبع سبعـا آخر ، ويدخل معه فى صراع مرير ، حتى يتخلى احدهمـا لغريمه عما ملكت يداه ، وقد يطرد السبع غريمه من حريمه ، او قد يلقيـه الى عرض البحر ، وعندئذ لن تولـول الاناث نادبة سبعها الذى راح (كما تفعل ذلك بعض نسـاء البشر عندما يذهب السبـع فتصرخ يا سبعى .. يا سبعى) .. فما اكثر السباع التى تفد ، وما أرخصها .. المهم ان الذكـر القـوى هو الذى يفوز طبعـا بنصيب « الاسـد » .. لكن قد يحدث ان «يفترى » الذكـر على الاناث ، فعندمـا يكون بعض افـراد الانسان والحيوان أقويـاء ، يزيد فيهـم الافتـراء .. طبيعـة حيوانية بشرية تجرى على الرجال والنساء سواء بسواء ، لكن .. كلمـا سما البشر بطباعهم كلما كانوا أقـرب الى الانسان منهـم الى الحيـوان .. لكن دعنا من كل هذا لنعود الى الذكر الـذى افتـرى ، لنراه يمسك أنثاه بفمه من رقبتها ، ويلقيها بقوة من فوق رأسـه ، لتطير فى الهواء ، ثم تسقط بين حريمـه ، وكأنمـا هو يريد ان يثبت لهن أنه مفتح العينين ، حتى لا تحدث الخيانات من وراء ظهره ، وكأنه بهذا العمـل المشين يرفع شعارا بين اناثه مؤداه « كل انثى اضبطهـا متسللة ، سيكون جزاؤهـا هـذا

الهـوان » ! .. اى انه سيتلقفها من « زمارة » رقبتها ، ويقذفها دون رحمة او هوادة ، علهـا تكون عبرة لكل الحريـم !

لكن .. مهمـا كانت عين « السبع » مفتوحـة ، ومهمـا كانت يقظته وحرصه على اناثه ، فان الحريـم هن الحريـم .. بمعنى ان الانثى لو ارادت شيئـا ، فلن يفلح حرص « السبع » فى الحيلولـة بينهـا وبين ما تريـد (ونحن نقصد بطبيعة الحال حريـم سبع البحر .. ولابد من التنويه عن ذلك بشدة) !

ومسكين حقا هذا السبع الذى على الشاطىء ! .. فبالرغم من حرصه الشديد على اناثه ، لدرجة أنه يهجر الطعام والنـوم لأيـام قد تطول ليكون نعـم الحارس اليقظ ، الا ان بعض الاناث تسول لها نفسهـا بأن تغافله وتقفز الى الماء لتقابل ذكورا أصغـر سنـا ، واقل مراسا وتجربة من هذا الذكر الواقف هنـاك .. صحيح أنه قـد عرك الحياة وعركته ، لكن ذلك لا ينطبـق على الاناث .. ومع ذلك فمما لا شك فيه ان الهاربات من الذكر القوى المتين شاذات وقليلات العدد (والحياء ايضـا !) .. ولا معـول عليهن ، فالمهم فى الموضوع ان يورث « السبع » القـوى قوتـه للاجيـال القـادمة !

وربمـا لو ذهبت الى حديقـة الحيـوان ، وتـوجهت الى جبلاية القـرود ، لوجدت الصورة تتكرر فى الجيزة ، كما تتكرر فى الجزيرة ــ نقصـد جزيرة السبع فى احد البحار او المحيطات !

والواقع ان القرود (بمـا فى ذلك القردة العليـا) من اذكى الحيوانات الحية بعد الانسان ، ولها معه بعض صفات وعمليـات فسيولوجية مشتركة .. فلاناث القرود دورة او عادة شهرية ، اى انها تحيض ما بين كل ٢٧ ــ ٣٥ يوما .. يتـوقف ذلك على النوع ، وتستمـر فترة الحيض ما بين ٤ ــ ٦ ايام ، وفى هـذه الفترة تختفى عندها الرغبة الجنسية ، وتبدو هادئة الطبـاع ،

معتدلة المزاج ، وبعد ان تنتهى فترة الحيض ، تجتاحها رغبة فى الذكـر (قد يحدث ذلك ايضا فى بعض اناث البشر ، وقد يحدث قبيـل قدوم فترة الحيض ايضا) ، وتبلغ اقصاها وقت افـراز البويضة ـ اى فيمـا بين اليوم السابـع بعـد الحيض واليـوم العشرين .. ولرغبتها علامات مميـزة ، اذ تتـورد اعضاؤهـا التناسلية او ما حولهـا ، وتصبح « مربربة » ومتضخمة (ليس ذلك ـ للاسف ـ من طبيعة انثى الانسان) ، ويتوعك مزاجها ، وتصير سهلة الاثارة .. اذ يحدثنـا الذين شاهدوا هذه الحيوانات ان الانثى ـ فى غياب الذكور ـ قد تحك نفسها بانثى اخـرى فى عملية « سحـاق » متبادلة .. ومـع ذلك ، فانت تستطيـع ان تـرى القردة من نوع الميمون او البابون التى تسكن جبلاية القرود فى حديقة الحيوان وهى تقدم عجزهـا وتضعه فى وجه الذكـر ، وتأخـذ بها وضعا نكاحيا مثيرا ، صحيح ان هذا فعـل مشيـن بالنسبة الينـا ، لكن هـذه الحيوانـات لا تـدرك معنى الفضيلـة والرذيلة ، او التمنع والتبذل كما يدركها الانسان .. كما انهـا لا تحب اللف ولا الدوران .. فاذا ارادت ، تقدمت ونالت .. قضى الأمر ببسـاطة ، وسارت الحياة سيرها الطبيعى !

ويختلف سلوك القرود ، وتتباين عاداتهـا وتقاليدهـا على حسب النوع .. فمنها ما يـرتبط بانثى واحـدة ، ويبقى لهـا وتبقى له العمر كله ، ومنها ما يعيش مع مثنى وثلاث وربـاع ، ومنها مالا تكفيه اربعون او خمسون زوجـة ، ومنهـا مـا تعيش حياة كحياة القبيلـة او الجماعة ، لكن عدد الاناث منها قد يزيد مرتين على عدد الذكور ، ومع ذلك فالذكور القوية هى التى تحكم الانـاث ، وليس للذكور الضعيفة او الشابة مجال مباح فى الحب والنكاح .. ولا شك ان سلـوك القـرود فى الطبيعـة يختلف عن سلوكها وهى حبيسة اقفاصهـا .. ونذكر هنا حادثة لتـوضح هـذا المعنى !

نذكر اننـا كنا نقف ـ منـذ حوالى عشر سنـوات ـ فى حديقة حيوان الجيزة امام قفص به نوع من النسانيس لا نتذكـر اسمه ، ولقد راينـا فى القفص ذكرا يتودد الى انثـاه ويلاطفهـا ويداعبها ، لكنها كانت تصده تارة ، وتقفز منه بعيدا تارة اخرى ، ثـم يتشجع بعد فترة قصيرة ويتقدم اليهـا ، ويربت عليهـا ، او يطوقهـا بذراعه ، علها ترق لحاله ، فلم يزدها ذلك الا تمنعـا وعنادا ، ومنه تنفلت هاربة .. ولقد جذب هذا المشهـد المثير عددا من البشر ، ووقفوا يتعجبون ويقولون « يا سلام .. تمام بنى آدمين وانسخطوا ! » .. وطبيعى ان العلم لا يعترف «باسخاط» البشر الى قرود او نسانيس ، والا كان هـذا بمثابـة نكسـة فى الخلق كبرى ، وردة فى التطور عظمى .. لكن دعنا من ذلك ، ولنعـد الى النسناس الذى يتعـذب فى القفص ، لدرجة ان واحـدا من الآدميين قد ثار لعذاب هـذا المخلوق الرقيق ، فصاح دون حيـاء « ياشيخة الله يلعنك .. عذبت الجدع ! » .. ولقد تقدم « الجدع » على حد تعبيره ـ فى محاولة يائسة وامسك بالانثى ، وكأنما هو يريد ان يغتصبها اغتصابا ، وعندئذ كشرت عن انيابها وثارت وصرخت ، ودفعته بعيدا ، ولمـا لم يجد الذكر فائدة ترجى ، جلس هنيهة ، وكأنما هو يرمقنا بحسرة ، علنا نتشفع له عندهـا ، واخيرا وضع عضوه بين يديه ، واتى بحركات جنسية الى ان قذف نطفتـه حتى كادت تمس اوجه الواقفين ، وبعدها هدا ، وثار الناس على هـذا الحيوان وسبوه ، وكانت لهم تعليقات شتى ، وقفشات مضحكة

لكن الناس ينظرون عادة الى مثل هذه الامور نظرة سطحية ، وقد يتسلون ويضحكون ويسخرون ، فى حين أن دارسى الطبيعة الحية يسجلـون هنا كل كبـيرة وصغـيرة ، ومن المشاهـدات والتسجيلات الكثيرة تتجمع الخيوط ، ثم تنسـج الخيـوط فى حقائق ، ومن الحقائق تنبع المعرفة العلمية !

ان سلوك القرد او النسناس مع اناثه يشبه الى حد ما سلوك الانسان ، فالدافع الجنسى فى هذا النوع يستمر معه معظم اشهر السنة ، وبهذا يختلف عن الحيوانات الاخرى التى هى اقل منه مرتبة فى سلم التطور .. فالجنس عند الطيور والكلاب وسباع البحر والاسود والغزلان موسمى ، وقد يستمر اياما وأسابيع ، ثم يختفى تماما ، وكانما هذه الحيوانات قد اصبحت « خصيانا » .. ذلك ان اعضاءها التناسلية تضمر الى حد بعيد ، ثم تتضخم فى موسم التزاوج ، وتنطلق منها الهرمونات (فى الربيع خاصة) لتدفعها الى التجمع والتزاوج ، اما بعض انواع القرود فخصوبتها تستمر لوقت طويل ، وقد يؤثر حبسها فى الاقفاص على نفسيتها ، وعندئذ تتصرف بطريقة تختلف عن تصرف اترابها فى الطبيعة !

لكن يبدو ان الانثى كانت متوعكة المزاج ، او انها فى فترة من فترات الحيض ، وعندئذ لا تسمح للذكر بالوصال مهما كان الحال ــ حالة معروفة ايضا فى البشر (وقد لا يهتم بها بعضهم أحيانا ، فيتساهلون فى ذلك ، رغم ان الذوق والدين قد حض على تجنب هذه الفعال ، ولكنها الغريزة يا صاح !)

النسناس تكويه غريزة الجنس ، وهو لا يستطيع عليها صبرا ، فهى غريزة عجيبة تعذب ذكور هذا الكوكب عموما ، وكانما هى فى حياتهم شىء هام كالماء والطعام والهواء ، ولهذا قد يدفعون فى سبيلها الكثير .. لكن قردنا ليس لديه شىء يسترضى به اناثه ، ومن حقها ــ والحال كذلك ــ ان تبقر بطنه ، وتمزق وجهه ، وليذهب الى الجحيم بشهوته .. مسكين ايضا هذا القرد الذى فى القفص ، فهو لا يستطيع ان يجد فرجا مع انثى أخرى غير هذه الكالحة الوجه .. القاسية القلب ، اذ لو كان يعيش حرا فى الطبيعة ، لاخذها طولا وعرضا ، ليبحث

عن اخرى تخلصه من ازمته ، ولقد هداه تفكيره ، ففعل كما يفعل البشر ، واستمنى كما يستمنون !

ولاناث بعض انواع القرود « اعلانات » طبيعية على اردافها، وبالتحديد حول اعضائها التناسلية ، وهى تشبه اشارات المرور الى عالم الجنس .. فاذا تضخمت واحمرت فهذا يعنى ان الطريق امام الذكور مفتوح ، واذا ضمرت ، فلا جنس ولا حب ولا مرور !

لكن هذه العلامات المميزة قد بدات تختفى تدريجيا من الانواع شبه الانسانية التى سبقت ظهور البشر على الارض بملايين السنين ، فمن الكشوفات الحفرية الكثيرة يتبين ان هناك اكثر من اثنىعشر نوعا وسلالة من مخلوقات ــ لا هى بشر ولا هى قرود ، بل كانت تحمل صفات من هؤلاء وهؤلاء ، ولهذا فقد اصبحت بمثابة القنطرة التى عبر عليها الانسان الحالى « نهر » التطور ليصل الى ما هو عليه الان .. ولقد انقرضت كل هذه الانواع ، وبقيت أجزاء من هياكلها ــ ليس لمثلها بين هياكل المخلوقات الحية الحالية شبيه ــ لتحكى لنا فصولا شيقة متتابعة من تاريخ الحياة على هذا الكوكب ، ولتؤكد لنا أن الحياة قد اسقطت ملايين كثيرة من انواع المخلوقات التى لم تستطع ان تتطور وتتكيف بالظروف الطبيعية السائدة حولها ، ولهذا كتب عليها الزوال والانقراض !

ولقد كان الغرض من هذا التطور ــ الذى استمر على ارضنا أكثر من الفى مليون عام ــ ان يأتى مخلوق يستطيع ان يدرك وينطق ويفكر وتكون له حضارات وتراث .. وظهر هذا المخلوق فينا ، وهو مخلوق لا شك بديع ، فلقد اكتسبت المراكز العليا فى امخاخنا مميزات ضخمة لم يمتلكها اى مخلوق آخر سوانا ، ولهذا فان الانسان الذكى ــ رجلا كان او

امراة ـ يستطيع ان يحكم على الآخر من تعبيرات وجهه .. حقدا كان ذلك أو حزنا أو سرورا أو اكتئابا أو انهاكا .. الخ ، ولهذا فقد تركزت عيوننا على الوجه دون الارداف ، وتلك ـ فى الواقع ـ قفزة هائلة تباعد بيننا وبين القرود ، وتميزنا عنها بمميزات جوهرية وهامة ، فحيث يستحسن القرد تلك « الوقعة » الحمراء التى قد تتضخم على ردفى انثاه ، وتصبح له بمثابة علامة مميزة على استعدادها للجنس ، وفى الوقت نفسه وسيلة من وسائل الاثارة للذكر ، الا أن ذلك لا يصح ان يكون لانثى البشر وسيلة ، ولا لذكرها غاية .. فتعبيرات الوجه ـ فى هذا المقام ـ ابلغ بكثير من تعبيرات الردف !

والحديث عن هذا الموضوع قد يطول ، لهذا دعنا نفتح له صفحة جديدة !

من أرداف القرود .. إلى أرداف البشر

يبدو ان طبيعة البشر لازالت تحمل شيئا من طبيعة الحيوان ، وان جاءت فينا بطريقة مهذبة لتباعد بيننا وبين سلوكه

كما ان لكل عادة من عاداتنا أساسا قديما ، ولكل شىء مليح فى عيوننا جذورا تمتد الى الوراء عشرات الملايين من السنين !

ولكى نوضح ذلك ، كان لابد ان نتعرض لظاهرة من الظواهر التى أصبحت علامة من العلامات الهامة فى حياة البشر .. ونقصد بها ظاهرة الرقص التى صاحبت الانسان الأول منذ ظهوره على هذا الكوكب الى يومنا هذا .. فلكل شعب من الشعوب رقصاته الشعبية الخاصة به ، وقد يكون الرقص نوعا من التودد .. وقد لا يكون ، لكن ذلك لا يهمنا بقدر ما يهمنا أن نعرف أن انواعا كثيرة من الحيوان تؤدى امام اناثها طقوسا بالصوت وبالحركة ، ولابد ان يكون للحركة ايقاعات خاصة ، لتكون قريبة من رقصاتنا التى تقوم ايضا على ايقاع الموسيقى ودقات الطبول .. فيكون لهذه معنى ، ولتلك مغزى !

لكن أرداف القرود قد جرتنا رغما عنا الى التعرض هنا لعادة من العادات البشرية التى تستخدم فيها الانثى اردافها لتثير ثائرة الذكور !

فلاشك انكم شاهدتم الراقصات على خشبة المسرح او فى اى مكان آخر ، وفى كل مرة تبرز الراقصة « واجهتها » الخلفية ، وتهز ما برز منهـا هزات غريبة تحجظ لها عيون الذكور ، وعندئذ يصفقون تصفيقـا ايقاعيا ، وقد يصرخون صرخات تحمل معنى الاستلطاف والاستحسان ، وعلى قدر حرارة الصراخ والتصفيق تنطلق طاقة الراقصة قوية هـادرة ، فتهتـز الارداف اكثـر ، وترتعش بمعدلات اكبر . ومعها تهتز عيون المتفرجين اعظـم . وهـذا ينبئك بالخبر اليقين .. خبر اننا لازلنا نحتفظ فى ذاكرتنا البدائية ببعض عادات القرود .. فقـد راينا ان ما كـان يثير ذكور القرود فى الجبلاية ، أو فى الاحراش والغابات ، يثير البشر ذوى الياقات المنشـاة ، واربطة العنق المنتقاه .. لا فرق بين قرد ومديـر .. كبير او صغير !

اضف الى ذلك ان البشر يميلون بطبيعتهم الى « الفرفشة » والسرور ، لأن مجيئنـا الى الحياة قد كتب وقدر فى ساعـة من ساعات الرضا والحبور .. اى اننـا أبناء جنس وحظ ، ولا يمكن لغـير هذا ان يـكون !

نعود لنقول : انه لا يزال تحت جلد كل ذكـر منـا آثـار قرد ، وتحت جلد كل انثى بقايا قردة ، فنحن معشر الذكور قد نستملح ما تستملحه القـرود ، ولقـد منحت الطبيعـة اناثنـا « تضاريس » او « روابى » فى الارداف وعلى الصدور ، لتميـز الذكر عن الانثى ، ولهذه معايير خاصـة ، ومقاييس محددة من اختراع بعض الذكور الخبثـاء ، وبها ضحكوا على عقـول بعض الفتيات والنساء ، واستدرجوهن الى مسابقات يطلقـون عليهـا مسابقـات ملكات جمال العالـم ، او ملكة الشاطىء او الاغراء او غير ذلك من مسميات شتى .. المهم ان الانثى تمر شبه عارية على اعضـاء هيئة التحكيم (ونظن انهم من عواجيز مراهقين) ، ليروا تضاريسـها ، ويضعوا الدرجات على حسن تناسقها ، فكان للخصر

درجـة ، وللردف درجة وللصدر درجـة وللسيقـان والوجـه والرقبـة .. الخ ، وبهـذا اصبح للبشر امزجـة تقتـرب من امزجـة القرود ، لكنها تتفاوت بقدر ما تتفاوت انماط تفكيرهم ، ومع ذلك فما قد يروق فى اعيننا قد لا يروق فى اعين الآخرين .. فالقردة ـ على قبحهـا ـ اجمل فى عين القرد من ملكـة جمـال العالم ، ولو اتينـا له ـ اى القرد ـ بهذه وتلك ، لفضل قردته على ملكتنـا !

اذن .. فلقد وضع القوم من « القرود البشرية » للأرداف درجـة ، وبهذا أصبحت من العلامات البارزة التى تحـدد انوثة الانثى .. ويبدو انهـا قد عرفت هذه النقطة من الضعف فينـا ـ ربما عن طريق القردة أو عن طريق عيوننا وثرثرتنا ، واستملاحنا لذلك فى السر وفى العلن ، ولهـذا جاء « التكتيـك » ليلعب دوره فى رقصة على خشبة مسرح ، او فى رواية لا ينسى المخرج ان يظهر لنا فيهـا عينة بشرية تعرف كيف تهز بردفيها عيون المشاهدين ، او ربمـا نرى ذلك فى الشارع ، حيث يصبـح « لتكنولوجيـا » الكعب العـالى دورا هاما فى احداث « رجات » ردفية معقولة او فيهـا شيء من الاثارة والمبالغـة ، وبها ترج مشاعرنا رجـا .. فمنا من يستملح ، ومنا من يستعيذ ويلعن !

ثـم عليك ان تلحظ سلوك البشر عندما تقدم عليهـم من بعيد انثى حلوة رشيقة تتبختر كما تتبختر « ام جلمبـو » التى سبق ان قدمناها قبل ذلك (وليس لأم جلمبو أرد ف على ايـة حـال) ، وعندئـذ قد تجحظ عيـون بعض الشباب والرجـال (الا من رحـم ربى) .. وتنتقل نظراتهم الفضولية من قمـة الراس الى اخمص القدم حيث الكعب العالى الذى يحدث صوتا كصـوت حوافر الخيل .. والخيـل من الحيوانات الرشيقـة ،

وكذلك النســـاء .. وتمرق الانثى مارة بتلك العيون الوقحة ، ومع انــه قد يباح أن نلقى نظرة على الواجهة الامامية للانثى ، الا انك سترى نسبة منهم (والنسبة متروكة لتقديرك ولتكتيكها) وقد دارت برؤوسها ١٨٠ درجة ـ أو ربما أكثر او اقل ـ لتلقى نظرة فاحصة على الواجهة الخلفية .. طبيعى ان هذا السلوك وقاحة من الفاحصين .. لكن لا تلوموا الرجال ولا تلوموا النساء ، فلكل عادة أو استملاح جذور قديمة .. فالتطلع الى الوجه خاصة .. والى « الواجهة » الامامية عامة لابد ان تكون عادة بشرية حديثة ، لكن أن تدور رؤوسنا نصف دورة لكى تلقى نظرة على ما وراء « الكواليس » فتلك عادة القرود كما سبق ان المحنا .. وقد يعلق ذكر وقح على ما راى بصوت مسموع ، وقد يقول ضمن ما يقول « عجبى » .. ان لها مؤهلات خلفية تفوق ما ملكت من مؤهلات امامية » .. (طبيعى قرد ابن قرد) وقد يسمعه ـ لسوء حظه ـ احد رجال شرطة الآداب ، وقد يمسكه من قفاه بتهمة أنه قد تفوه بالفاظ تجرح الحياء العام ، فيروح المظلوم ، ويبقى الظالم !

اضف الى ذلك أن مصممى الازياء ـ ارضاء لنظرة الذكر الفرد وخبث الانثى القردة ـ قد توصلوا منذ قرون الى اختراع عظيم وفعال وجذاب وفيه ضحك على الذقون ـ ذقون الذكور ، اذ صمموا تجهيزات خاصة تضعها بعض الاناث فوق أردافهن الضامرة ، لتبدو شامخة أمام العيون ، وبها ترضى طموح القرود ـ قرود البشر !

لكن الغريب حقا أن الفراعنة قد سجلوا على آثارهم سلالة من البشر قصيرة القامة ، سوداء اللون ، متضخمة الأرداف بشكل واضح .. الا اننا لو ذهبنا الى احدى القبائل الافريقية لوجدنا

ان ذكورها يرون ان تناسق بنيان المراة وجمالها يتركز فى اردافها فكلما ارتفعت وتضخمت ، ارتفعت الانثى فى عين الذكر ، واصبحت امراة فخمة ـ اجتماعيا وجنسيا ، ومن هنا تبدأ النساء فى العناية بها وتربيتها (اى الارداف) فى بناتهن بداية من سن التاسعة او العاشرة ، وتستمر حتى سن البلوغ ـ فى تمرينات صعبة تبدأ بانبطاح الصبية على بطنها ثم تأتى أمها أواحدى قريباتها وتمسكها من قدميها ، وتضغطهما الى اعلا بحيث يؤدى ذلك الى تحريك الردفين نحو ظهرها (الحركة لا شك قاسية) ثم تقوم بتدليكهما تدليكا عنيفا لدرجة ان ذلك قد يحدث نزيفا (ولقد جاءت الراوى حالة من هذه الحالات) ، ثم تعطى الصبية كوبا من السمن لتشربه ، أو تأكل كميات كبيرة من الدهون ، وبمثل هذه التمرينات الطويلة والعنيفة تبرز الارداف وتتضخم ، وتصبح أحدى العلامات الجمالية المميزة فى نساء القبيلة !

والواقع أن التودد البشرى ليس كالتودد الحيوانى ، وان كان يحمل بعض جذوره أو بذوره ، فنحن معشر ذكور البشر لا نصفق ولا نرقص ولا نهتز أو نصيح كما يفعل ذكور الحيوان .. لكن يكفى ان نتطلع ونغمض الطرف ونستملح ، فالانثى الحديثة (أو المودرن كما يصفها البعض) تثرثر بشفتيها دون كلام ، وتنطق بوجهها دون سلام ، وتتحدث بمؤهلاتها الانثوية الكثيرة ، لنتحدث نحن سرا أو علنا لنطرى هذا الجمال ، فاذا لم نفعل ، كنا فى عرفها الواحا ، او اننا مخلوقات بدائية ليس لديها نظر ، أو ربما كالعميان أو اضل .. والمراة الحديثة انثى واعية لكل ما يدور حولها .. وهى تحس من خلال التطلعات البصرية ان ذلك نوع من التودد الصامت ، وفى الكلام الهامس نوع من المديح والاطراء ، وعلى كليهما تعيش الانثى ، كما تعيش على الهواء والغذاء ، وبدونهما قد تموت كمدا !

ولكى تستحوذ الأناث على أنظارنا . كان لابد من عمل « ديكورات » هائلة فى كل مكان على الجسد .. تتوقف قيمتها على يسار حالها او عسره ، لكن الشىء الملاحظ دائما ان المراة تتأنق للشارع اكثر مما تتانق فى البيت (ونحن ايضا .. لكن على خفيف) ، ولهذا فقد رصد العالم ميزانيات ضخمة للرموش والعيون وحول الجفون والحواجب والشعور والشفاه والوجنات والرقاب ، وفى الاذن وما خلفها قليلا ، وتحت الابط ، وفى المعاصم والاصابع والأظافر (لا تنس اظافر القدم من فضلك) وعلى الصدور او ما تحت ذلك * ، ولو سألت عن السر فى ذلك ، لقيل لك انها تهوى ذلك ، لأننا بدورنا نهوى ذلك ، ومع ذلك فلو عدت الى ميزانيتنا ، لوجدت ان ما يصرف على تجميل الجسد اكثر مما يصرف على الكتب .. اى ان ميزانية المستلزمات البدنية والجنسية اهم واضخم من ميزانية المستلزمات العلمية والعقلية ، كما ان اتعاب رقصة بطن أو هزة ردف نصف ساعة او ساعة ، تساوى « هزة » عقل مفكر مائة يوم أو ساعة (كل ذلك متروك ايضا لتقديرك) .. وهذا ينبئك بالخبر اليقين .. ذلك ان الناس يميلون للجنس اكثر مما يميلون للفكر ، او للتسلية اكثر من الجدية ، وتلك طبيعة أصيلة فى كثرة من البشر .. يستثنى من ذلك قلة قليلة تأخذ كل الامور اخذا ثقيلا ، فيصبحون على الناس ايضا عبئا ثقيلا !

ثم عليك أن تتجول بعينيك فى المعروضات التى خصصت لهن ، والتى خصصت لنا ، تجد نصيب النساء منها اضعاف

(*) مما يستحق الذكر فى هذا المجال تلك الحالة التى رواها لى صديق عندما ذهبت أمه لتخطب له فتاة من ذلك النوع الذى يهتم بالتبرج ، وعندئذ نظرت الأم إلى ابنها وقالت : أى بنى « إن كل جزء من جسم هذه الفتاة يحتاج إلى ميزانية خاصة ، ودخلك لا يكفى مصاريف مظهرها .. فا بالك بالباق يا كبدى؟ . .

نصيب الرجال ، ولا اعتراض لنا على ذلك ، فالمراة ولا شك مخلوقة جميلة ، وهى تستحق كل هذا وزيادة ، ذلك ان عمرها محسوب « بالقطارة » .. ورأس مال الانثى يتركز فى شبابها وانوثتها وجمالها ، وكل هذا يحتاج الى صيانة .. والصيانة تستلزم اشياء كثيرة ، وهذه تتطلب مالا ، والمال من الذكر ، ولابد ان يدفع ، حتى لا يصبح طلقة فى مدفع ، ويروح فى خبر كان !

وفى الحديث الشريف يجىء ما معناه : أن المراة تنكح لثلاث : لجمالها ومالها ودينها .. لكن لجمال المراة شقين : شقا جسديا يحسب بالسنوات . وشقا روحيا لا يحده عمر ، ولا يقف فى طريقه سن ، وهو لهذا ابقى من الجسد واعظم وتأثيره اعم !

ونحن نفهم ان تتجمل الانثى من البشر ، لكننا لا نستطيع ان ندرك السر الذى من اجله « يتجمل » الذكر .. فلقد ظهرت لنا على آخر الزمن « نسبة » ـ والحمد لله قليلة ـ من شباب لا هم لهم الا تقليد الانثى فيما تلبس وتتزين .. من ذلك مثلا ان الفتى قد لجأ الى الكعب العالى ، لكن ذلك لا يستقيم الا مع الردف العالى ، والصدر العالى ، وليست هذه من صفات الرجال فى قليل او كثير .. ولا ندرى اية نتيجة تلك التى يسعى اليها الفتيان من هز اردافهم وبمساعدة الكعب العالى .. فالردف من المميزات البيولوجية للانثى ، وليست للذكر ، فان سعى هو الى ذلك ، فقد يرجع الى نداء انثوى ضامر يناديه بأن يتحلى ببعض صفات انثوية ، ويتخلى عن بعض صفاته الذكرية ..

ومما يساعد الكعب العالى على « الشغل الاستعراضى » ان يأتى الفتى أيضا بشعور متهدلة على الجبين وعلى القفا ،

ولابد ـ والحال كذلك ـ ان يلجأ الى صالونات خاصة ليكوى منه ما طال ، ويسوى ما فسد ، فاذا انسدل شعره على عينيه أو جبينه ، اتى بحركة من حركات التدلل الانثوى ، وهى التى تهز الانثى فيها راسها هزة سريعة ، فينحسر شعرها عن وجهها برشاقة تجذبنا نحن معشر الرجال . ورحم الله شاعرنا على الجارم حيث يقول :

ويل الشباب من النعومة انها
اعراض سم للشعوب وشيك
ما اتعس الزمن الجديد بفتية
قتلوه فى التصفيف والتدليك

ثم تأتى ثالثة الأثافى فى بنطلون يضيق على ردفيه بشكل واضح ، حتى اذا سار بكعب عال ، اهتزتا بوضع فاضح .. اضف الى ذلك قمصان وسترات ذات صبغة حريمى ،وكلها اشياء تجعل من الصعب علينا أن نتوصل الى تمييز الفتاة من الفتى ، اللهم الا اذا أسرعت انت الخطى ، ونظرت الى الواجهة الامامية ، ولا تنظر للوجه ، فأحيانا ما قد يخدعك فى نعومته وتقاطيعه التى تشبه وجه الانثى ، وقد تكون سعيد لو رايت له شاربا او ذقنا ، فان لم تجد لا هذا ولا تلك ، فليس امامك الا النهدان ، ففى بروزهما قد يتميز الذكر عن الانثى !

ونحن ـ من الناحية البيولوجية ـ نعتبر الثديين من الاعضاء الثانوية ، فى حين أن الغدد الجنسية من الاعضاء التناسلية الاولية، وقد يأتى الملبس والسلوك بعد ذلك فى المرتبة الثالثة . • فتصرف الانثى غير تصرف الذكر ، وطبيعتها غير طبيعته ، ولهذا كانت «ملابسناهى ريشنا»ـ كما يعبر عن ذلك جون لانجدون ديفيز فى كتابه

« بذور الحياة » .. وهو يقصد ان للذكور ريشا اجمل وأروع من ريش الاناث ، بحيث تستطيع ان تعرف الديك من الدجاجة دون أن تفحص اعضاءهما التناسلية فحصا دقيقا ، وكذلك يمكن تمييز الطاووس من الطاووسة ، وذكر الحمام من الحمامة ، والظبى والتيس والخروف من الظبية والمعزة والنعجة (عن طريق القرون) .. ولا تنس أيضا تلك الهالة من الشعور المتهدلة على قفا بعض الحيوانات مثل الاسد والقرد ، لنفرق بينهما وبين اللبؤة والقردة !

ويعنى هذا ان الحياة قد وضعت علامات مميزة لتفرق بين الذكر ، والانثى ، ويعنى أيضا ان الحيوانات قد أصبحت أسعد حظا منا نحن معشر البشر ، ففيها تبدو الذكور بصفات ، والاناث بصفات أخرى ، الا أن ذلك قد أصبح من الامور العسيرة أحيانا فى حالة شبابنا « المودرن » أو المتحضر * .. فباسم قشور الحضارة أو النكسة فى التطور تخلى بعضهم عن « ريش » الذكور ، وتحلوا « بريش » الاناث !

لكن الحضارة حضارة خلق وفكر وعقل ، لا حضارة شعر وكعب وردف !

(*) لكون هذا التقليد قد ورد من بلاد الفرنجة ، إذن فهو دليل – فى عرف هؤلاء – على الحضارة والتقدم والمدنية ، وهنا تكمن عقدة النقص . إلا أنه من الملاحظ أن معظم هؤلاء الشباب يبدون كالقرود وهم يتعاجبون بشعورهم المتجعدة الخشنة ، ووجوههم الكالحة التى تعلوها غبرة ، ولقد ظلمنا القرود عندما قارنا بين شعور هؤلاء وهؤلاء ، فشعور القرود ناعمة .. والتشبه بالخنافس يعنى أنهم ينتمون إلى أولاد الذوات . وتلك عقدة أخرى .. وربما يكونون من ذوات الظفر والحافر.

ونحن نعلم تماما ان الانثى المتزنة لا يهمها فى الذكر منا كعبا يتبختر ، او شعرا يتهدل ، او ردفا يهتز .. لانها ستسأل حتما عن مركز الذكر الاجتماعى ، بعد ان تلقى نظرة فاحصة على « مركزه » البدنى والرجولى .. وذلك – فى الواقع – نوع من الاختيار الطبيعى السليم .. فالمركز الاجتماعى المرموق يعنى عقلا اكفا ، وفكرا انضج ، « والمركز » البدنى القوى يعنى صفات وراثية مرغوبة ، ولا شك ان تلك ستورث للاجيال القادمة ، وهذا يعنى ان الحضارة الحقيقية حضارة عقول فى المقام الاول .. وتأتى الاجسام بعد ذلك فى المرتبة الثانية .. فرب اشخاص لهم « جسم البغال . واحلام العصافير » !

وماذا يتمنى الذكر منا فى انثاه ؟

انوثة واضحة ، وجمالا معقولا ، ومعاشرة بالمعروف ، وشيئا من تفتح عقلى وامورا اخرى تختلف فى تفاصيلها من ذكر الى ذكر .. فلكل ذكر مزاج وطباع ونظرة تختلف عن نظرات الذكور الاخرى .. فلسنا نسخة بالكربون من بعضنا ، ولهذا كان لابد ان تختلف امزجتنا ، فليس صحيحا انه « اذا اطفئت الاضواء ، تساوت النساء » .. فالذى قال ذلك لابد ان يكون غبيا من الاغبياء .. فحاسة اللمس فى الظلام تستطيع ان توضح لنا الكثير مما يخفى على عيوننا .. وكذلك حاسة السمع والشم .. وعندئذ يتبين لنا كم كان شاعرنا على حق عندما قال « والاذن تعشق قبل العين احيانا » .. وكما تختلف النساء فى الظلام ، كذلك يختلف الرجال – فلكل مخلوق طبيعة وبناء وملمس ورائحة وبصمات ومزاج .. الخ ، تميزه عن اى مخلوق آخر .. فالكلب يستطيع ان يميز كلا منا برائحته. والجسد يرفض عضوا ليس من ذاته .. وهكذا يتبين ان الذى قال « اطفىء .. تتساوى » .. لا يفهم ولا يدرك شيئا

من اسرار الخلق ولا الجنس ولا الحياة .. فهو كالبهيم .. او ربما اضل !

والواقع انك لو سألت اية انثى هذا السؤال البسيط : لو ان الله قد خيرك بين نعمة الجمال وبين المركز والجاه .. فماذا تفضلين ؟ .. لأجابت دون تردد : نعمة الجمال .. ذلك ان راس مالى فى جمالى !

وكان لابد – والحال كذلك – ان تعتنى الانثى براس مالها ، ولا احد يلومها فى ذلك ، لكن لابد ان نلوم الذكور لو انصرفوا عن تنمية العقل (بالمعرفة والقراءة والسلوك) الى تنمية الشعور وابراز الارداف ، او الوقوف طويلا امام المرايا .. فى البيت وفى الاماكن العامة وفى المصاعد .. او اى مكان فيه مرآة ، لدرجة اننا نخشى (من كثرة ما لاحظنا ورأينا) ان يحمل الفتى حقيبة كحقيبة الفتيات والسيدات فيها مرآة ومشط وعطور .. الخ ، ليتزين كما تتزين الاناث ، او كما زينت الطبيعة ذكور الحيوانات .. ولا نظن ان الانثى الحقيقية (اى ذات الرقة والنعومة والانوثة) ترضى بشاب ناعم رقيق يشاركها فى بعض صفاتها الانثوية .. ذلك ان طبيعة الكون والحياة تمنع ذلك .. فالاشياء المتشابهة تتنافر كما تتنافر الشحنات الكهربية والاقطاب المغناطيسية المتشابهة .. فالرجل منا يحب فى المرأة نعومتها وانوثتها ، ويفر من « استرجالها » وخشونتها ، كما ان المرأة الناعمة تحب فى الرجل خشونته ورجولته وكرمه وتودده .. بالكلمة والهدية والمعروف فعادة اغراق الفتاة او الخطيبة بالهدايا يعنى – على حد تعبير كل من لوراس ومارجيرى ميلن فى كتابهما « احاسيس الحيوانات والبشر » – ان الخطيب « سيصبح ممولا حسنا لبيت الزوجية فى المستقبل ، وانه سيتحمل – بكرم – اعباء

الاسرة » .. وبجوار الهدايا تظهر الشبكة والمهر فى المقام الاول ، وكل ذكر ومستواه المالى والاجتماعى !

ويذهب ميلن وزوجته الى التعليق على هذه العادة ، فيذكران انها عادة حيوانية ، ذلك ان بعض ذكور الحيوانات الثديية والطيور والحشرات تتودد الى اناثها بهدايا من طعام او هدايا رمزية او هدايا فارغة .. المهم ان الذكور تعبر لاناثها عن حسن نواياها ، واحيانا ما تحمل النوايا بذور السوء ــ لا يختلف فى هذا ذكر البشر عن ذكر الحشرة !

اذن .. فالصفات المختلفة التى تميز الذكر عن الانثى هى التى تجذب هذا الى تلك .. اى انهما هنا كالقطب الموجب والسالب ، فاذا دخل احدهما فى مجال الآخر ، كان لابد من التجاذب ، وهذا ما تسعى اليه الحياة دائما ليكون التزاوج والتناسل والتكاثر ، وبهذا تحل الاجيال الجديدة محل القديمة ، فتأتى وجوه وتروح اخرى !

ولا شك ــ كما سبق ان ذكرنا ــ ان الارداف المتمثلة من العلامات الجنسية الثانوية التى تميز الانثى عن الذكر ، وهى بلا شك احدى المعالم الجمالية فى المراة ، ولهذا فان الشاعر الانجليزى جيوفرى شوسر الذى عاش فى القرن الرابع عشر يرى أن جمال الانثى يتركز فى « ارداف عريضة ، ونهود عالية مستديرة » !

وفى كتاب « مقالات شهيرة فى العلم » يقدم مارتن جاردنر دراسة كتبها هنرى هيفلوك اليس Ellis (١٨٥٩ ــ ١٩٣٩) بعنوان « ما الذى يجعل المراة جميلة ؟ .. وفيها يعدد الصفات الجمالية ، ويرى أن الاعضاء الجنسية الاساسية ليست مثيرة بالدرجة التى نراها فى الارداف والنهود والسيقان والخصر ..

الخ ، ولقد انعكس البناء الجسدى الانثوى على الطريقة التى تسير بها الانثى .. فنساء بعض الدول الواقعة فى الجنوب (يقصد جنوب اوربا .. وربما يشير الى ايطاليا واسبانيا) يشتهرن بجمال خطواتهن وتناسقها ، او كما يعبر عن ذلك الشاعر الرومانى القديم فيرجيل فيقول « ان الالهة تتجلى فى مشيتها » ! .. فالحركات الاهتزازية للارداف اثناء السير اصبحت من العلامات الجنسية المميزة .. وقد تصبح اكثر اثارة عندما تتصنع المراة ذلك .. وهذا نراه اوضح فى بعض الدول الواقعة خارج اوربا ، بحيث اذا سارت المراة ، سار معها الاغراء والفتنة الجنسية (ونحن نشفق على «خنافسنا» من هذا الوصف الجارح لرجولتهم) !

ويشير اليس فى هذا الصدد الى المراة العربية بوجه عام ، والمصرية بوجه خاص ، ويطرى مشيتها ويمتدحها (ويبدو انه لم يطلع على رقصها البركانى ، اذ لو اطلع ، لوصف وصفا يذهب به عقول الرجال) ، ويشير الى انها تتثنى وتتدلع (كغصن البان) اذا سارت ، وبساعدها ردفاها على هذا الدلال المعروف باسم « الغنج » .. فالمراة الغنجة هى التى تتلاعب بجسمها بطريقة مثيرة يسيل لها لعاب الرجال

والخلاصة ان اليس يصل فى استنتاجاته الى ان الصفات التشريحية للانثى تختلف اختلافا جوهريا عن الرجل ، ولقد انعكس ذلك على مشيتها ، وعلى اردافها .. وصدرها ان اردت ذلك ، وفى ذلك الكفاية لبعض عينات من شبابنا الذى يتبختر ويتثنى ويهتز بكعبه العالى ، ليهتز ردفاه ، رغم اننا ــ والحمد لله ــ لسنا من قوم لوط ، ولا نحب اللواط !

ويبدو ان بعض شبابنا يحبون التقليد الاعمى . وهم فى ذلك يشتركون مع القرود ، فهى أيضا محبة للتقليد ..والواقع

ان تقرب الذكر من الانثى وتقليدهـا فى بعض سلوكها وملبسهـا يرجع الى عادات الشعوب التى نبعت منهـا هـذه الظاهرة القبيحة ، ففيها يبيحون الشذوذ الجنسى ، ولا مانع ـ والحال كذلك ـ أن يتزين الذكر للذكر ، فقد ارتبط احدهما بالآخر ، كما يرتبط الذكر بالانثى ، وربما كانت النتيجة الحتمية لذلك هو تحطيم الحواجز التى تفصل بين الذكورة والانوثة .. لكننا ـ والحمد لله ـ مجتمعات لا زلنا نحتفظ بأصالتنا وتقاليدنا التى تضع الرجل فى مكانه ، والانثى فى مكانها .. ومن اجل هذا تحسدنا نساء الغرب على رجولتنا ، ويحسدنا رجالهم على انوثة نسائنا .. فسحر الشرق ينبع اساسا من سحر المراة .. وكم تغنى الشعراء فى هذا السحر وكم افاضوا !

ومع ذلك فالردف العالى ، والصدر العالى قد جاءا فى المرأة ليؤديا وظائف فسيولوجية محددة .. فالصدر لادرار اللبن وللرضاعة ، والردف مخزن للدهون للسحب منه عند الحاجة .. اى ان النساء هنا كالجمال فى الصبر والتحمل وفسيولوجية تحويل الدهون الى ماء وطاقة ولبن .. اى ان للردف الانثوى وظيفتين (أو ربما ثلاثا أو اربعا اذا اردت انت ذلك *) : وظيفة اعلانية تجذب انظار الذكور ، كما يجذب الفردوس المحرومين ، ووظيفة فسيولوجية وبها تسحب منه الانثى مخصصاتها المدخرة اثناء الجوع والحمل والرضاعة . ولابد ان ذلك كان رحمة من الله بالانثى ، خصوصا عندما عاش الانسان فى العصور القديمة لائذا بالكهوف والمغارات . وكانت الذكور تخرج للصيد فى ظروف قاسية ، علها توفق فى الحصول

(*) الثالثة والرابعة ليستا ذات أهمية بيولوجية .. فالثالثة قد تريح فى عملية الجماع ، والرابعة قد تثير الذكر عن طريق اللمس باليد .. وكلاهما على أية حال مفيد فى بعض الأحيان والأحوال .

على طعام للاناث والرضع والاطفال ، وقد تأتى الرياح بما لا تشتهى السفن ، وعندئذ تشتغل الميكانيكية البيولوجية فى الانثى الحامل أو المرضعة وتعوضها من مخزن الدهون فى ردفيها ، ومنهما الى جنينها او رضيعها ، الى ان يأتى الله بالفرج ، فيعود الى المخزن رصيده .. وهكذا يقوم الردف مقام البنك .. اى ان هناك دائما ارصدة مدخرة ومسحوبة .. الا ان عملة الردف طاقة تقدر بالسعرات او الكالورى الحرارى ، وعملة البنك نقود وشيكات وما شابه ذلك ، وكلاهما بلا شك مفيد فى الحياة .. فالنقود الزائدة .. تعنى طعاما زائدا . يعنى دهونا زائدة .. تعنى اردافا متضخمة .. مالم يوازن الانسان بين ما يأكل وبين ما يحرق او يستهلك .

لكن يبدو ان الحياة قد اضافت للانثى مكرمة بيولوجية هامة جدا لتحافظ على حياتها فى حين انها تقصف بها عمر الذكور .. فالاطباء وعلماء التغذية يحذروننا دائما من زيادة وزن اجسامنا بعد سن الثلاثين ، لان الزيادة تتمثل إنما فى دهون مختزنة ، والدهون ـ فى عمليات التحول الغذائى ـ تؤدى الى كوليسترول، والكوليسترول يؤدى الى أمراض القلب والشرايين .. وهذه تظهر بوضوح فى الرجال ولا تظهر فى النساء الخصيبات .. اى اللاتى لم يبلغن سن اليأس ، فاذا بلغن هذه السن ومررن بهـا ، ارتفعت فيهن نسبة الكوليسترول والجلطات وامراض القلب والشرايين .

ومع أن مخزون المرأة من الدهون ضعف المخزون عند الرجال، الا انها لاتصاب كما نصاب ، والسبب يرجع الى تأثير هرمونات الجنس الانثوية بشكل واضح على كيمياء الدهون ، فتؤدى الى خفض نسبة الكوليسترول فى الاناث فى حين انها ترتفع فى الذكور .. فاذا وصلت الانثى الى سن اليأس ، واختفى الطمث الشهرى ، وافتقد الجسم الانثوى هرموناته التى كانت تشرف

على تجهيز الرحم للحمل ، فان ذلك يؤدى الى زيادة نسبة الكوليسترول فى دمائها بدرجة ملحوظة ، فتصاب كما نصاب .

والواقـــع ان فى هذا التغيير حكمة عميقة ، وهو دليل جديد على اهمية الانثى من الناحية البيولوجية .. فكأنما الحيـاة قد منحت الانثى وثيقة تأمين مؤقتة ضد امراض القلب والجلطات والشرايين طالمــا هى بقيت خصيبة ، فاذا فقدت خصوبتها ، سحبت الحياة منها وثيقة تأمينها ، وتعرضت الاناث لما يتعرض له الذكور ، ولكن بدرجة لازالت اقل لان الرجال يتعرضون دائما للاجهـاد والتوتر ووجع القلب بمعدلات أكبر ، ولهــذا كانت نسبة قصف اعمارهم ادهى وامر !

على خنافسنا اذن ان يعتنوا بتنمية اردافهم اكثر من تنمية مداركهم وعقولهم ، وتنمية الارداف تحتاج الى مخـزون من الدهــون ، ولعل هــذا المخزون يصيبهم بالازمات التى تقصف اعمـارهم ، فيريحون ويسـتريحون ، فلسـنا فيهم راغبين ، ولا لخنوثتهم منجذبين !

ولتحيا ارداف النســاء ، ولتسقط ارداف الذكور .. أو فليذهب هؤلاء بشعورهم واردافهم وكعـوبهم الى الجحيم .. اللهم آمين !

لقــد اضاعوا وقتنا .. وحطموا كبرياءنا .. واضحكوا علينا اناث العالمين .. ألا لعنة الله على المخنثين فى كل آن وحين !

ومسكين والله هذا الصنف من أشباه الذكور .. فلا شك انهم يحسون بنقص لا ندرى كنهه ولا طبيعته ، ومع ذلك « ففاقد الشىء لايعطيه » .. ولعلهم يدركون فيعودون ويرشدون !

رائع حقا عالم النساء !

لقد كان اختيارنا من البداية لعنوان « مسكين عالم الذكور » ثم بدايتنا بمقدمة « نكد أو ذكر » من العناوين المطابقة للحال ــ حالنـا نحن معشر ذكور البشر فى عالم الانسان والحيـوان .. فلقد اتضح لنا ــ من خلال ما قدمنا اننا من الناحية البيولوجية الجنس الاضعف ، وهن الجنس الاقوى والاحسن والاثمن ، ومن هنا كان اختيارنا فى النهاية لذلك العنوان « رائع حقا عالم النساء » .. ليكون الختام مسكا على ايديهن بأذن الله الواحد القهار !

وقد يقال ان فى ذلك نوعا من التحيز او التودد لهن او الخوف منهن .. ونحن ــ فى حقيقة الامر ــ لانخشى الا الله المعز المذل .. ثم المراة .. فهى ايضا قد تعز وتذل ، ويقال ، والعهدة على الراوى ــ وهو من المتزوجين القدامى ــ ان ذلها لذيذ .. لذيذ جدا ! .. ونحن لا نستطيع ان نهضم لذة الذلة .. ويبدو ان العقل البشرى قد اختل كما يختل العقل الاليكترونى . فخلط بين حروف لذة وذلة .. (لاحظ انها نفس الحروف) !

ومــع ذلك .. فالمراة ــ بلا شك ــ مخلوقة جميلة ، وهى الانثى الوحيدة التى ابدع الله تكوينها ، وصهرها فى قالب من الحسن والتناسق والبهاء ، لتحلو فى عيون البشر رغم ما قد يلاقون منها بعد ذلك من امور تجعل منها لغزا كبيرا يستعصى على الحل .. خصوصا اذا ملكت وتملكت .. ومع ذلك فهى لطيفة ولذيذة ..

فلأول مرة فى التاريخ البيولوجى تتخلى الحياة عن الذكر من البشر ، وتصب عنايتها على أنثاه ، وتقدمها له على هيئة مخلوقة تختلف عنه فى الصوت والملمس والقوام والطباع والخطوات وفى كثير من الامور الباطنة التى لاتهمنا هنا كذكور (مثل العمليات الفسيولوجية والهرمونية والكيميائية .. الخ) .. اذ كل مايهمنا منها قد مليح ، وثغر جميل ، وشعور ناعمة متهدلة على كتفيها، وعيون نظراتها كالسهام ، ولغتها ابلغ من الكلام ، ومعانيها اروع من خطب الخطباء ، وحديث المتحدثين والفقهاء والعلماء .. ومن هنا ــ وكما سمعنا وكما نعلم ونرى ــ قد يتراهن بعضهن على ذكر ــ اى ذكر تشاء بأى مركز او فئة تشاء ــ لتوقعه احداهن فى شباكها من اول نظرة .. وربما من ثانى نظـرة او ثالث او عاشر نظـرة .. المهم ان الذكر يقـع والسلام .. (وكل فولة ولها كيـال) !

ولقد وزعت الطبيعة لمسات جمالها على ذكور الحيوان .. فرأينـاها فى الاسماك وفى الطيور والاسود والقـرود والوعول .. الخ ، وبهذه اللمسات الفنية ــ التى قد تأخـذ بألباب البشر (مثل ريش الطاووس البديع) ــ يستطيع الذكر ان يستعرض نفسه امام انثاه .. وفى الانسان انقلبت الآية ، فكان الاستعراض والتدلل للانثى ، والتودد والغزل للذكر .. ولقد ذهب الانسان بعقله المتطور ، ومخـه المدرك ، وتمييـزه الناضـج بين القبـح والجمال ، والفضيلة والرذيلة ، والحب والكراهية ، والتناسق والفوضى .. الخ ، ذهب الى اختراع أمور كثيرة جدا ليزين بها أنثـاه .. ذلك ان معظم الاختراعات القديمة والحديثة من اختراع الرجال .. لكننا نجد انفسنا فى حل من التعرض لهذا الموضوع الطويل ، ويكفى أن نذكر ــ فى ذلك المجال ــ ان معظم بيوت الازياء من اختراع الرجال .. والذى يستطيع ان يحكم على الانثى هو الرجل لا المراة ، والعكس ايضا صحيح .. المهم ان العطور والمجوهرات والمساحيق والدهانات والملابس الخاصة

والعامة « والكورسيهات » « والسوتيانات » وما خفى وما ظهر من آلاف الاصناف التى تملأ مجلدات فوق مجلدات .. كل هذا وغيره كان من صـناعة العقل الانسانى الخلاق ، ليضفى لمسات من الجمال على أنثاه ، لتصبح أروع وابدع واقوى مخلوق على هذا الكوكب .. لا فى العضلات ، ولكن فى التخطيط والرسم والكيد والسياسة التى تتوافق مع مقتضيات الحال .. وكل هذا ــ بلاشك ــ يحمل فى طياته معنى الذكاء .. وبهذا السلاح العظيم تتغلب الانثى ــ لو شاءت ــ على الذكر ، او ربما عشرة او مائة او الف .. او كما تشاء .. المهم انها بذكائها قد تخطط، ونحن نطبق وننفذ .. وقد نصاب ونموت دفاعا عن الشرف المثـلوم ، او الاهانة التى قد تأتيها من الذكور ــ فشرف الانثى غال ومصـون ــ ولكن ما اكثر ماهدر ويهدر فى كل آن وحين ، ودون أن يظهر ذلك او يبين ، وفى ذلك الكفاية لقوم يفقهون فيفيقون !

والتاريخ ملىء بالمواقف الكثـيرة التى ظهر فيها تأثير الانثى على الذكر .. فقديما قيل أن قابيل قتل اخاه الاصغر هابيل من اجل الانثى ولا شك ان هذه اول حادثة قتل تتم فى النوع البشرى .. قتل من اجـل الانثى ، وبسحر الانثى وروعتها وتأثيرها .. واذا صح ذلك ، فلا غبار عليه من حيث المبدا ، فلقـد جاء الذكور ليموتوا من اجل الانثى .. لا يختلف هـذا فى قابيل او هابيل والوعل وخنفس الوعل وابى جلمبو والحشرة وزعيط ومعيط ونطاط الحيط .. فكل هذا من اجل الاختيار الطبيعى للاقوى .. والاقوى يقتـل الاضعف ، لتصبح الانثى للاقوى .. وقد يعترض البعض على ذلك ، وقد يقولون : ان ذلك لا يمكن أن يكون ، وان كان ، فلابد ان يكون هـذا منطق الحيوان .. لا الانسان !

ولكن الانسان حيوان عاقل متحضر ناطق .. اى ان حضارته ومدنيته تمنع ذلك ، وتضع حدا فاصلا بينه وبين الحيـوان ،

ولكن .. من قال لك ان هابيل وقابيل كانا متحضرين وهما يعيشان فى الغابات ؟ .. لابد اذن ـ والحال كذلك ـ أن يسرى عليهما قانون الغاب .. ولا قانون هناك ـ فى الواقع ـ الا هذا القانون .. ولابد أن يتغلب القوى على الضعيف ، والله دائما فى جانب القوى ، حتى يستطيع الضعيف ان يغير ما به من ضعف .. « أن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » ، ضعفا كان ذلك أو كيدا او مكرا أو تواكلا .. الخ ، وهذا هو ناموس الله فى خلقه ، ولا يعرف ذلك الا « اولو الالباب » !

ومهما تكن الامور ، فلاشك ان للقصة معنى واضحا وعميقا . فلقد قتل الأخ اخاه من اجل انثى .. وبعدها لم يسدل الستار . وتنسى « الرواية » بل ان المسرح ـ مسرح الحياة ـ يفتح ابوابه كل يوم ليقدم لنا قصصا اخرى كثيرة .. التخطيط فيها للانثى ، والتنفيذ للذكر .. او يكون اثر الانثى على الذكور اقوى من العقل ومن الحياة .. فيروح الضعفاء ، ويبقى الاقوياء .. يسجن الاغبياء ، والبراءة للاذكياء .. يسقط الرجال ، وتحيا النساء !

ومن أعماق التاريخ أيضا تبرز قصة يوسف وعجل قوم موسى (لاحظ ان هذا العجل المعبود كان من حلى النساء) كليوباترة مع قيصر وانطونيو ، ودليلة مع شمشون الجبار ، وامراة ابى جهل وشجرة الدر .. وما خفى كان اعظم .. ولكن الله حليم ستار ..

صحيح ان النساء اضعف فى العضلات .. وصحيح ان هذا النقص قد ادى قديما الى اغتصاب الرجل للمراة بالقوة ، او خطفها وحملها عنوة .. وصحيح ان آثار هذه العادة لازالت موجودة فى بعض اجزاء من ريفنا المصرى بطريقة مهذبة ليس فيها ضرر او اغتصاب بالمعنى المفهوم ، ولكنها تحمل فى طياتها

بذور الماضى * .. وصحيح أن هناك حالات من اغتصاب الفتيان للفتيات (ليست مأساة بنجلاديش ببعيدة .. اذ اغتصب الجنود أثناء الحرب بين بنجلاديش وباكستان والهند آلاف الفتيات والنساء مما نتج عنه آلاف من حالات الحمل غير المشروع) . وصحيح أن ذكر الانسان هو المخلوق الوحيد الذى قد يغتصب انثاه عنوة (ومعه ايضا فى هذه الصفة بعض أنواع العناكب) ، فى حين أن ذلك لا يمكن أن يحدث فى الحيوان، لأن « عصمة » الجنس بيد الانثى ، وليس للذكر فى ذلك حيلة، فهى التى تحركه وتثيره ، وهى التى تجمعه وتطرده ، وهى التى تسعده وتشقيه ، وهو بالنسبة لها ليس الا بمثابة آلة حية تضغط الانثى على زرارها فى الوقت المناسب ، فتدور لتنكح ، ثم تتوقف وتنام عن الجنس أسابيع طويلة ، وشهورا عديدة ، او ربما العام كله .. وصحيح اننا معشر ذكور البشر نتصرف مع الانثى بوازع من ضميرنا وديننا وخلقنا وقوانيننا التى قد تبعث بنا الى غياهب السجن فيما لو ادعت علينا أنثى (مجرد ادعاء) أننا تهجمنا عليها وأردنا بها اعتداء ، وعندئذ لن تنفعنا عضلاتنا ولا مراكزنا .. اذ لو كان الامر امر عضلات ، لاصبح الفيل والحمار والاسد والنمر والحصان سيد الانسان .. لكن السيادة لا تنبع من العضلات ، بل مردها غالبا الى العقل ، ومن اجل هذا يسيطر الانسان على الحيوان ، وتسيطر المراة على الرجل ، لانها تعرف مكامن الضعف فينا ، وفى قصة دليلة مع شمشون الجبار رمز عظيم لهذه الظاهرة المحيرة .. والظاهرة المحيرة هى المراة .. وفى المراة سلاح مكين ، وسر دفين ، وسحر مبين .. ولا شك أن لديها ـ بجوار كل هذا ـ حاسة عجيبة تقف معها

(*) تتلخص هذه العادة فى إصرار العريس على إنزال عروسه من مركبها ، ثم حملها بين ذراعيه ، والانطلاق بها جريا إلى حيث عش الزوجية ، وهناك يتركها ، ثم يعود إلى أصحابه ، وبعد ذلك يأتى اليها حلالا طيبا بعقد نكاح شرعى .

لتعوضها عن قوة العضلات التى افتقدتها ، ومن اجل ذلك كان عندها حق عندما تقف شامخة واثقة مما تقول وهى تقول « الرجل طفل كبير » .. بداية من آدم عليه السلام ، الى كاتب هذا الكلام عليه الامان ! (منهن طبعا) ! ..

لكن .. لماذا تنظر الينا الانثى مثل هذه النظرة « العيالى » ؟ اى لماذا تعتبرنا اطفالا او عيالا كبارا ؟

لانها تدرسنا فى ساعات ضعفنا .. اى انها قد ترمقنا بحسرة كما يرمق الاستاذ تلاميذه الذين لا يريدون ان يكبروا فى معلوماتهم ، او يتطوروا فى مفهومهم ، فلو اننا درسنا الذكور فى ساعات الرضا والحبور والملذات الانثوية كما ندرس مثلا سلوك خنازير غينيا (وهى حيوانات تستخدم فى كثير من التجارب البيولوجية والطبية) ، لتبين لنا ان الرجل الغضنفر ـ بعد ان ينتهى من مهامه الهرمونية ـ ينام بين ذراعى الانثى كما ينام الطفل الوديع بين ذراعى أمه ، وقد يناجى نفسه وقتها هامسا « عجبى .. لقد تبخر كل شىء فى لحظات .. النار الى رماد .. والحب الى برود ، والقوة الى ضعف ، والرجولة الى طفولة .. عجبى .. عجبى » ! . ثم قد ترمقه الانثى ـ باشفاق ـ وهو واجم ساهم صامت بعد ان كان كالبركان المتفجر بالطاقات والكلمات والآهات .. واضيفوا الى ذلك ما تشاءون من معلومات ، لتكتمل الصورة ، ونصل الى الحقيقة ، وما نحن اليها بواصلين ، لكن الذى سنصل اليه حتما ان انتاجنا من « اللحوم » البشرية ـ نتيجة لتمسكنا بالعملية الجنسية دون ضابط ولا رابط ـ اكبر من انتاجنا من اللحوم الحيوانية .. ومن هنا انخفضت قيمة الانسان وزادت أسعار الحيوان .. نعنى لحم الماشية والطير وما شابه ذلك !

ورائع حقا عالم النساء .. ومسكين عالم الذكور ـ ذكور الانسان !

لكن مما لاشك فيه اننا فى الانثى نتكون ، ومنها نخرج . وعلى صدرها نترعرع ، ومن ثديها نرضع ، وتحت رعايتها ننمو ونكبر ونلف وندور ، واليها نعود ، ولكن بادراك جديد ، حيث نعيش فى دنياها الى يوم معلوم !

يعنى هذا ان فى حياة كل ذكر منا ـ بالتأكيد ـ انثى .. قد تكون اما او اختا او زوجة او حبيبة .. المهم ان هناك انثى يتأثر الذكر بها فى حياته ، وقد تدفعه الى الامام ، وتجعل منه عظيما من العظماء ، او بطلا من الابطال ، او قد تشده الى الخلف ، فتخرب الدار ، وتيتم الاطفال ، او ما بين ذلك تكون اقدار النساء !

ومن هنا تبزغ روعة الانثى . وتبرز خطورتها ، فيكون تأثيرها عظيما فى الوحى الذى قد يهبط على المفكرين والفنانين والفلاسفة والكتاب والشعراء .. ثم ان بركاتهن لا شك فيها فى توزيع الكتب والمجلات الجنسية التى تبرز مفاتنهن (الرجل ضعيف حتى امام الصور .. ومن هذا الضعف تنبع قوة التوزيع) .. كما أن مشاركتهن فى أدوار الاغراء لمن العوامل « الاستراتيجية » الهامة فى انجاح التمثيليات والافلام ، وبها يصعدون الى « قمم » المجد بمساعدة مؤهلات المجد التى تتفوق فى عائدها على المؤهلات العقلية وارقاها .. ومع ان « المجد لله فى الاعالى ، وعلى الارض السلام ، وبالناس المسرة » .. الا انه مع المسرة ايضا تبرز المرأة . . والى المرأة . . انطلق روح الله ، ومنها خرجت على هيئة السيد المسيح ، ليؤدى دوره بين الناس ، وليكون من المنقذين للبشرية ، والداعين للسلام .

والمرأة تحفظ دين الرجل ، لكن الرجل لا يستطيع ان يحفظ دين المرأة ، فاذا أحس الرجل بضعفه ، واذا شعر بعدم القدرة على الاعتماد على نفسه ، سعى الى الارتباط بزوجة لتدير له

شئونه (والمراة بمفردها تستطيع ان تدير شئونها بنفسها) ، ولتكمل له نصف دينه .. اى ان الرجـل بدون زواج ناقص الدين .. وربما يكون ناقص العقل .. لسنا فى الواقع ندرى ، ولكن الذى ندريه اننا لم نسمع ان امراة تزوجت لتكمل نصف دينها برجل ، ومع ذلك فقد تكمل له احيانا دينه ، وقد تعريه من النصف الذى به قد دخل !

وكثيرا ما تروق فى عقولنا سيرة عظيم من العظماء ، او انتـاج مفكر من المفكرين ، او اديب من الادباء ، وقد ترسم لهم هالة من القدسية والاجـلال ، ومـع ذلك فبمقدور المراة ان تلعب بعواطفهم فى الشيخوخة والشباب على حد سواء .. وغالبـا ما يعرى هؤلاء انفسهم فى سيرة حياتهم عندما يصـدقون فيما يكتبون ، فزكى نجيب محمود يذكر بعض ذكرياته فى « قصـة نفس » كيف كان شعوره فى ايام شبابه عندما تقابل مع فتـاة فى مثل عمره وهو صائم فى شهر رمضان فى منزل اسرة يعرفها « وقد جلست الى ماكينة الخياطة تهز قاعدتها بقدميها ، وتمسك الثوب المخيط بيديها ، فيكون لجسمها بهذه الحركة شىء من التوقيع والنغم ، اما انا فقد حييت وجلست الى منضدة قريبة وفتحت القرآن ـ وكنت احمله معى ـ واخذت اقرا فى همس ، وكأن كيانى كله عندئذ كان هو ذلك القرآن .. اخذت اتلو فى همس ، مدخلا نفسى فى عالمه ، ومازجا معانيه ـ بقدر ادراكى لها ـ بشغاف قلبى ، ودخل عم الفتاة يسألها ـ ان كان لديها شىء يلف فيه ثوبا جديد على ذراعه ، واجابت بالنفى ، وخرج العم ، وعلقت الفتاة بعبارة تشير بها الى معنى خفى ، وقرنت العبارة بابتسامة تنادى ، وبنظرة تدعو ، فاذا كنت قد رايت شرارة النار ماذا تفعل بكومة من الدريس الجاف ، فقد رايت ماذا فعلت تلك الشيطانة بجسدى الذى كان الصوم قد جففه . لقـد اشعلت فى احشائه نارا ـ على سبيل الحقيقة لا على سبيل

المجاز ـ لاننى احسست عندئذ لهب النار يأكل جوفى اكلا ، ويعلو الى وجهى فيشويه ، وتحول كيـانى المتلهب الى عينين ذاهلتين تنظر الى الشيطان وقد تجسد فى انسانة من البشر ، لكن لسانى لم ينطق بحرف ، وتسمر بدنى كله على مقعدى ، وعيناها مازالتا تدعوان ، وابتسامتها مازالت تنادى » * !

ويذكر عبـاس محمود العقاد فى « انا » * « ليس الحب بالغريزة الجنسية ، لان الغريزة الجنسية تعم الذكور والاناث، ولا يكون الحب بغير تخصيص وتمييز ، وليس الحب بالشهوة ، لان الانسان قد يشتهى ولا يحب ، وقد يحب وتقضى الشهوة على حبه ، وليس الحب بالصداقة ، لان الصداقة اقوى ماتكون بين اثنين من جنس واحد ، والحب اقوى ما يكون بين اثنين من جنسين مختلفين » .

ويقول عن حبه للمراة « انها لتثير فى الرجل شعور القـوة وشعور الجمال وشعور اللذة ، وشعور الالم ، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة ، وشـعور الانسان كله ، وشعور الحيوان كله .. بل تثير فيه الشعور بما وراء الطبيعة من اسرار مرهوبة ، ومن اغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام »!

ويقول العقاد ايضا « منذ الازل وقفت الفتنة الى جانب ، ووقف الى الجانب المقابل لها حكماء الارض وهداتها ومشرعوها ، واصحاب النظم والدساتير فيها .. قالت هـذه كلمتها ، وقال الحكماء والهداة كلمتهم ، ونظرت ونظروا ، ووعدت واوعدت ، ووعـدوا واوعدوا ، وامامك الناس اجمعون فاسألهم واحـدا

(*) عن دراسة نشرت بالهلال لعلى بركات فى « المرأة والجنس فى المجتمع العربى المعاصر» بعنوان أدباؤنا والاعترافات الجنسية .

واحدا : كم مرة سمعتم هذه ، وكم سمعتم هؤلاء ، وانا الضمين لك ان فى تاريخ كل انسان مرة واحدة على الاقل سمع فيها لهذه الفتنة ، ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ، ولا شىء من الاشياء » .

والاعترافات كثيرة ، ولو جمعت من صدور البشر ، لملأت خزائن من الكتب ، ولأجمعت كلها على ان كل واحد ممن جمعته الظروف بالفتنة المجسدة ، لابد وأن يكون قد ضعف امامها .. اذ مما لاشك فيه ان الانثى قد تركت بصماتها على جلد كل منا، وكثيرا ما كان تأثيرها فوق ارادتنا ، وغالبا ما يتغلب نداؤها على صوت العقل فينا ، ورغم ذلك ـ ولذكائها العظيم ـ توحى لنا « بغمزة » عين حلوة اننا لازلنا سادة هذا الكوكب بعلومنا وفلسفاتنا ودياناتنا واختراعاتنا وغرورنا .. ثم تأتى بعد ذلك بفتنتها لتسود على هؤلاء السادة دون ان يدروا او يدروا لست ادرى !

ولا شك ان الانسان يختلف عن الحيوان فى امور جوهرية وهامة .. فحيث تتحكم الهرمونات فى الحيوانات ، فتجعل منها دمى جنسية حية ، وتدفعها دفعا لاشباع غرائزها ، لتأتى من وراء ذلك ذرية ، نجد ان الانسان هو المخوق الوحيد على هذا الكوكب الذى بزغ فيه نور العقل والحكمة والجمال والادراك والمثل والمعرفة .. الخ . وبجوار ذلك تلعب الهرمونات لعبتها ، ويقع الانسان احيانا فى صراع جبار بين غريزته وعقله .. وقد تتغلب الهرمونات على العقل والارادة . فيسلك سلوك الحيوان، وقد يحدث العكس ،فيصير على طبيعة الانسان .

ويختلف الانسان ايضا ـ والى حد ما ـ عن القرد فى نظرته للانثى .. فحيث تنصب عينا القرد على ردف انثاه ، نجد ان عيوننا قد سمت وارتقت وتطلعت اولا الى وجوه الجنس

الآخر .. والواقع أن العين لم ترتق حقا ، ولكن الاساس يتركز فى امخاخنا التى تطورت فأدركت معنى الجمال . . فالانسان هو ايضا المخلوق الوحيد الذى يستطيع ان يقرأ ما قد يظهر على وجوه الآخرين من انفعالات ، ويستشف ما يبدو عليها من عواطف ، ويعرف ماقد يرتسم فى العيون من لغات .. لاهى مقروءة ولا هى مكتوبة ، ومع ذلك فأثرها يغنى عن اى شىء عداها .. وكأنما وجوه البشر وعيونهم بمثابة لوحات حية رائعة يبزغ منها الشعور بالرضا والطمأنينة والاستسلام والصرامة والبراءة والخبث والمكر والدهاء والدعوة الى الحب والحنين الى الجنس .. الخ ، أى ان لانسان هو الكائن الوحيد ذو الوجه المعبر دون ما ثرثرة او غلبة أو ضوضاء .. ولا يعرف وجه الحيوان عن ذلك شيئا مذكورا .

وعندما تطور العقل ، واستقام الجسم وانتصب فى تناسق على ساقين وقدمين ، واصبح للوجه ـ بتعبيراته المختلفة ـ المقام الاول فى جذب انتباهنا ، ثم يأتى الجسد بعد ذلك فى المرتبة الثانية .. عندما حدث هذا ، كان الانسان ايضا هو المخلوق الوحيد الذى اصبح بمقدوره ان يجتمع جنسيا مع الجنس الآخر وجها لوجه .. ربما يستثنى من ذلك الاسد واللبؤة ، اذ يقال ان اللبؤة تستلقى على ظهرها كما تفعل نساء البشر ، ويقال ايضا انها تأتى بأصوات تشبه التأوهات التى تنطلق من البشر عند ممارسة النكاح ، لكن الاسد بالتأكيد لا يرى فى وجه اللبؤة شيئا يستحق أن يتطلع اليه ، او يتأمل فيه ، فى حين ان ذلك من الامور الهامة التى قد تشد من ازر الانسان وهو يؤدى مهامه الجنسية فى قبلة يذوب فيها ، او لمسة تثيره ، او نظرة تلهب مشاعره ، او تطويقا بالذراع او بالذراعين ، أو وضع الخد على الخد ، او اى امر آخر يشعل فيه الجذوة ، ويؤجج النيران ، ويمنح الطاقة ، أو قد يصاب بالقرف والغثيان

والضمور .. كــل هذا يتوقف على تعبيرات الوجه الذى يتطلع اليــه ..

والانسان ايضا هو المخلوق الوحيــد الذى يستطيع ان ياتى انثاه فى مائة وضع ووضع ، او اكثر من ذلك او اقل ، فى حين ان الحيوان لايعــرف من ذلك الا وضــعا يتيما يؤديه بطريقة اوتوماتيكية اشبه ماتكون بوضع مفتاح فى ثقب البــاب فيشعر باللذة . وبعدها ينتهى الامر ، ويحدث الحمل .

الا ان مافات من امور الحب والغــزل والودد والاستغراق والحب والجنس والضنى والآهات والعــذاب والسعادة والهيام والاحــلام والخيال الذى يحلق بصــاحبه او صاحبته فى دنيــا الورود والعطور والجمال .. كل هذا ليس الا فقرة صغيرة فى مقدمة متواضعة فى كتاب مخلوق جديد سيتشكل جنينا ليجىء الى الحياة .. وهنــا تبرز امام الانثى الأم اصعب واعظم واروع واسمى رسالة يمكن ان يقوم بها مخلوق على ظهر هذا الكوكب . فعليها الحمل والوضع والرضــاعة والسهر والعنــاية بمملكتها الصغيرة فى فترة تعتبر من اغلى واعز فترات حيــاتها . وليس للزوج فى كل هذه الاعباء الخطيرة والثقيلة نصيب كبير .. اذ عليــه ان ينطلق ويسعى ليمول ويمون ثم ينطلق من جــديد .. فاذا اضفنا الى المراة اعبــاء العمل الخارجى - بجوار اعبــائها الاساسية - فان ذلك يوضح لنــا قــوة احتمالها وصبرها ، ولاشك ان الحياة قد امدتها بطاقات خفية حتى لا تنهار كمــا ينهار الرجال .

ونحن - بلا شك - ابناء امهاتنا فى المقــام الاول . كمــا اننا ننتسب اليها اكثر مما ننتسب الى آبائنا . فلقــد كانت علاقتنا بها اقوى (من حمل الى رضاعة الى طفولة وصبا) ، ولقد قضينا معها اوقاتا اطول بكثير مما قضيناه مع آبائنا . وكان ارتبــاط

الابناء بالامهات اقوى من ارتباطهم بالاباء . وحتى التجارب التى اجريت على هذه الظاهرة تؤكد ذلك ، فاذا رات سيدة صورة فوتوغرافية لسيدة اخرى تحمل طفلا ، فان حدقة العين تتسع بنسبة ١٧٪ ، فى حين ان الرجل لا يهمه هذا المنظر كثيرا ، انما تتسع حدقته اذا وقعت عيناه على صورة فاضحة ، او انثى فى وضع من اوضاع الاغراء ، او منظر من المناظر الطبيعية الخلابة . وهذا يعنى ان الاهتمام فى الانثى ينصب على الامومة . وفى الذكر على الجنس والطبيعة الحيــة ، والذى يتحكم فى اتساع انسان العين منطقة صغيرة فى المخ تقع فى مراكز الابصــار .. ونحن فى حل من التعرض لسرد المزيد ، فليس لمثل هذه التجارب هنــا مجال . لكن يكفى ان نذكر اننا نتأثر كثيرا بأمهاتنا اكثر مما نتأثر بآبائنا . فالأم هى المربية الحقيقية للاجيــال ، وهى الاساس فى بناء الدول ، وقد تكون ايضا المعول الذى يهدمها .. وما اروع ما عبر عن ذلك الحديث الشريف عندما يشير الى حقيقة هامة فيقول « تخيروا لنطفكم ، فان العرق دساس » .. وما اصدق الرسول الكريم عندما نسب نفسه الى امه ، لا الى ابيــه فقال « انا ابن امراة كانت تأكل القديد » .. وما قاله امير الشعراء احمــد شوقى شعــرا :

الأم مدرسة اذا اعددتها   اعددت شعبا طيب الاعراق

واحيانا ما تخرج الحكمة ايضا من افواه العامة ، فتراهم يعبرون عن ذلك بطريقة فجة ، لكنها تحمل بذور الواقعية .. « اكفى القدرة على فمها ، تطلع البنت لأمها » .. والعلم ايضا يؤكد كل هــذا بيولوجيا ووراثيا ونفسيا .. ومن هنا يبرز دور المراة الخطــير ، ورسالتها الجليــلة .. فهى الاساس ، ونحن عجينة فى يدها ، وهى التى تشكلنا منــذ الصغر .. ان خيرا فخيرا ، وان شرا فشرا ، ولهذا يقولون انه « من وراء كل رجل عظيم امراة » .. ونضيف ايضا ان من وراء كل مجــرم خطير

امراة اخرى .. لكننا لا نقصد « وراء » بمعناها الحرفى الذى قد تشدقت به يوما واحدة من المتحذلقات المناديات بالمساواة عن غير دراية او فهم ، (ولو شئنا العدل نحن معشر الذكور لطالبنا مساواتنا بالنساء) واعترضت هى على ان تكون المراة وراء الرجل ، وتساءلت : ولماذا لا تكون هى بجواره بدلا من ورائه ؟. ورغم ان كلمة وراء هنا تعنى انها هى صانعته الحقيقية ، وهى التى تدفعه وتعينه وتشجعه وتهيىء له المناخ المناسب للصعود الى عظمته « الفانيــة » ، ومع ان هــذا الصنف من السيدات لا يهتم الا بالمظاهر ــ مظاهر اللفظ والحياة دون دراية بالباطن .. مــع ذلك فلا يهم ان كانت المراة وراء الرجــل او امامه او بجواره او فوقه او تحته .. كل مايهم انها قد صنعته صغيرا ، ولم تتركه كبيرا ، فاما ان تكون له من الرافعين او من الخافضين !

والواقع ان هناك فرقا هائلا بين الأم المتعلمة والأم الجاهلة .. لان الأولى تدرك مالا تدركه الثانية ، ومع ان ثمرات التعليم يجب ان تنصب على تربية الاجيال ، وعلى العناية بتنشئة الاطفال ، الا أن ذلك قد شــغل المراةعن اقدس واعظم رســالة يمكن ان يحملها مخلوق على ظهر هذا الكوكب .. فمواطن صالح ، خير من الف شــهادة ، اذ ماذا يفيدنا فى الشهادات والعلوم اذا لم تكن بغير خلق ولا ضمير ..

وانما الأمم الأخــلاق ما بقيت
فان همو ذهبت اخلاقهم ذهبــوا

ولسنا هنا من دعاة النصيحة ، ولا الموعظة الحسنة ، فلقد جاء الانسان بعقل مدرك ، وهو بلاشك يعــرف الفضــيلة من الرذيلة ، والطيب من الخبيث ، والصــدق من الــكذب .. « فالحلال بين ، والحرام بين » .. وما يعيب معروف ، ومالا يعيب معــروف .. ورحم الله امى وطيب ثراها ، فلقــد كانت تجهل القراءة والكتــابة ، ولكنهــا لم تكن تجهــل ما يضر الناس

وما ينفعهم ، ولا ما يعيبهم او يســمو بهم ، ولقــد تعلمنا على يديها صلة الرحم ، والبر بالناس ، والصدق فى القول والعمل الى آخر هذه الخصال الحميدة التى لايختلف عليها اثنــان : جاهل او متعلم .. انما الجهل أن تنصرف الأم عن اقدس واهم واعظم رسالة .. فاذا اولتها حقها ، وارضت بها ربها ، فلاشك انها ستكون اروع نســاء العــالمين .. وهــذا هو المراد ، من رب العبــاد !

ولنختتم موضوعنا بهــذا الحديث الشريف .. « من اولى الناس بحسن صحابتى يا رسول الله ؟ .. قال : امك قال ، ثم من ؟ .. قال : ثم امك ؟ .. قال : ثم من ؟ .. قال ثم امك ؟. قال : ثم من ؟ .. قال : ابوك » !

ولقد كرمها الرسول ثلاثا وكرمناها .. فهل تكرمنا بثمرات بديعــة من صنع يديها .. فتكون مجــدا للوطن ، وذخــرا للمجتمع ؟ .. لست ادرى ، ولعلهــا تدرى .. فلست ادرى انها تدرى !

« ربنا هب لنا من ازواجنــا وذرياتنا قرة اعين » !

الفهرس

كتب صدرت للمؤلف

	الناشر
١ ـ الميكروبات والحياة	دار القلم للطبع والنشر
٢ ـ دورات الحياة	» » » »
٣ ـ الفطريات والحياه	» » » »
٤ ـ اسرار المخلوقات المضيئة	» » » »
٥ ـ الفيروس والحياة	» » » »
٦ ـ لماذا نموت ؟	الهيئة العامة للكتاب
٧ ـ معارك وخطوط دفاعية فى جسمك	» » »
٨ ـ الانسان والنسبية والكون	» » »
٩ ـ زوجات مفترسات	دار الهلال ـ كتاب الهلال
١٠ ـ انت .. كم تساوى ؟ !	» » » »
١١ ـ مذكرات ذرة	دار المعارف ـ سلسلة اقرا
١٢ ـ هل لك فى الكون نقيض ؟ (لغز الكون والكون المضاد)	الهيئة العامة للكتاب

رقم الإيداع : ٨٧/٥٤٧١
الترقيم الدولى : ٩ - ١١٦ - ١٤٨ - ٩٧٧

مطابع الشروق
القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ ، ٧٧٥٢٢٨ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ ، ٨١٧٧٦٥ ، ٨١٧٢١٣ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

هذا الكتاب

بدون تحيز أو تعصب لبنى جنسه ، ومستندا إلى الحقائق العلمية ، يجىء هذا الكتاب كصفعة لغرور الذكور ، فيضع فيه الإناث «فوق العين والرأس» !

فأساس الأنثى عريض ، وأساس الذكر هزيل ، ولقد جاءت أقوى منا وراثيا ، وأعقد بيولوجيا ، وهذا سادت على الذكر باطنا ـ لا ظاهرا ـ أو ربما باطنا وظاهرا ، فكل هذا ـ كما يشير المؤلف ـ متروك لذكائك وتقديرك ، إذ أنه فى مواقف كثيرة يكتفى بالتلميح دون التصريح .

ويذكر المؤلف ـ بأسلوب مرح ساخر ، وبعبارات وجمل راقصة ـ أمورا تدعو إلى الهم والفكر لنا معشر الذكور ، فأعصاب الإناث أقوى ، وأمراضهن أقل ، واحتمالهن أشد ، وأعمارهن أطول ، وهن بالنسبة للحياة أثمن وأهم !

ومؤلف هذا الكتاب من محافظة بنى سويف ، وقد تخرج فى كلية العلوم ـ جامعة القاهرة ، ويشغل الآن وظيفة أستاذ الميكروبيولوجيا (علم الكائنات الدقيقة) بكلية الهندسة ـ جامعة الاسكندرية ، وله ـ بجوار بحوثه الكثيرة المنشورة فى المجلات العالمية المتخصصة ـ كتب عديدة ، ودراسات طويلة ، ومقالات كثيرة فى الاذاعة والصحف والمجلات تتناول قضايا العلم والحياة بأسلوب سلس يغرى بالقراءة ، ويدعو إلى التأمل الواعى فى هذا